

الفكر الإسلامي

في المواقف المعاصرة

في العصر الحديث

عبد الرحمن
بن عبد الرحمن



دار الدعوة

مستبصر الجمال

الفكر الإسلامي
في مواجهة الغزو الثقافي
في العصر الحديث

حقوق الطبع محفوظة للناشر
الطبعة الأولى
١٤١٨ هـ - ١٩٩٨ م

رقم الإيداع القانوني ٩٧ / ٥٦٣١
الترقيم الدولي: 977 - 253 - 150 - X

دار الدعوة للطبع والنشر والتوزيع
المركز الرئيسي : ٢ ش منشأ - محرم بك - الإسكندرية.
ت: ٤٩٠١٩١٤ - ٤٩٠٧٩٩٨ - فاكس: ٥٩٥١٦٩٥
مكتب توزيع القاهرة : ت: ٣٨٣٢٧٤٧

الفكر الإسلامي

في مواجهة الغزو الثقافي
في العصر الحديث

دكتور
مصطفى حامى
كلية دارالعلوم - جامعة القاهرة

دار الدعوة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا
الزَّيْبُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ
فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ﴾

[الرعد : آية ١٧]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، ونشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً.

أما بعد :

فقد صدر هذا الكتاب - بتوفيق الله تعالى وعونه - في وقت عصيب، تتعرض فيه الأمة الإسلامية لأشدّ الابتلاءات في تاريخها، أخطرها شأناً - وقوع المسجد الأقصى في أسر الصهاينة - وتضييق الخناق عليها بقيد حديدي يسمى نظام (العولمة) ، أي إحكام الهيمنة على الشعوب وفرض الثقافة الواحدة عليها .

وفي هذه الأيام العصيبة لا بد أن نتذكر أن المحن والابتلاءات والحروب ليست أمراً طارئاً أو جديداً على الأمة الإسلامية، إذ لم يخلُ عصر من هجمات أعدائها بالخارج والداخل، ولم تتوقف غزوات الغرب، منذ عصر النبي ﷺ، فقد كانت الحروب سجالات بين (الروم) وأحفادهم من الصليبيين والمستعمرين الجدد في العصر الحديث، وقد صحح الشيخ / محمد الغزالي - رحمه الله - طبيعة العلاقة بين الشرق الإسلامي والغرب المسيحي، بينما تحاول أجهزته الإعلامية تصوير المسلمين بالعدوان، بعناد غريب وإنكار الحقيقة التاريخية التي تسجل أن أهل الغرب هم البادئون .

ويقول الشيخ محمد الغزالي :

(فمن الوضاعة أن يقدم الرومان من أوروبا فيقاتلوا نبينا ﷺ في مؤتة

وتبوك ، وفي سوريا ومصر وفي الأناضول والمغرب ، ثم يجيء بعدهم أحفادهم المستعمرون الجدد ليكرروا العدوان نفسه ثم يقولون في صفاقة : إن الإسلام دين عدوان (١١) (١) .

كذلك يستخلص الدكتور عبدالرحمن سالم بدراسته المستوعبة لأبعاد معركة مؤتة ، أن النتيجة المحققة لها هي بروز العدو البيزنطي على الساحة الإسلامية بكل جبروته وعنفوانه ، مقررأ أن كل العداوات المستقبلية بين المسلمين والبيزنطيين يمكن رد جذورها إلى المواجهة القاسية في مؤتة ، وهي الشرارة الأولى في الصراع الإسلامي البيزنطي طوال أكثر من ثمانية قرون (٢) .

وقد استمرت الحروب بعدها في سلسلة لا تكاد تنقطع ، متسمة بالطابع الديني ، الموغل في التعصب ، والذي يتضح من سلوكيات القادة والجند الرومان ببشاعة عدوانهم الطافح بالحقد والذي يكتسح أمامه النسل والزرع ومظاهر العمران لتركها خراباً ، وقاعاً صفصفاً !

ونجتزئ فقط بعض سلوكيات أحد قادتهم وهو « نففور فوقاس » - قائد الرومان خلال القرن الرابع الهجري - حيث كان يرتكب أفعالاً يندى لها جبين الإنسانية خجلاً ، بدءاً بتخريب المباني والمساجد ونهب الأموال ، مع أعمال القتل والنهب والتدمير لمدينة حلب بأكملها ستة أيام كاملة ، وإشعال النيران واللجوء إلى حيل التخويف والترجيع والإرهاب !

وأمام هذه الأحداث المروعة ، لايسع الدارس المستقصي لها ، إلا أن يقرر - كما فعل الدكتور صابر دياب - أن عصر الحروب الصليبية إنما يرجع إلى

١ - ص ٨ من كتاب (سر تأخر العرب والمسلمين) محمد الغزالي دار الصحوة بالقاهرة ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م

٢ - ص ١٠٢ من كتاب (المسلمون والروم في عصر النبوة) الدكتور عبدالرحمن سالم - ط دار الفكر العربي

بالقاهرة ١٤١٨ هـ - ١٩٩٧ م .

القرن الرابع الهجري ، لأن الروم منذ ذلك الحين وهم يشعلونها حرباً دينية^(١).

ليس عجباً إذن أن يأتينا في العصر الحديث أشخاص مستنسخة من (نقفور) أمثال نابليون وألنبي وجودو وستالين ، وقادة الصرب وغيرهم كثيرون .

ويقول محمد أسد (ليو بولد فايس قبل إسلامه) « إن روح الحرب الصليبية ، في شكل مصغر على كل حال ، مازال يتسكع فوق أوروبا ولا تزال مدنيته تقف مع العالم الإسلامي موقفاً يحمل آثاراً واضحة لذلك الشبح المستميت في القتال »^(٢) .

وعندما اكتشف الغرب أن الحروب والغزوات العسكرية لا تُجدي، وحدها لإزاحة الأمة الإسلامية عن طريقه، تفتت أذهان الساسة، ورجال الكنيسة على استخدام المستشرقين والمبشرين في تخطيط وتنفيذ أهداف الغزو الثقافي (وإذا كان الاستشراق والتبشير قد قام على أكتاف الرهبان والآباء أول الأمر، ثم اتصل من بعد ذلك بالمستعمرين، فإنه لا يزال حتى اليوم يعتمد على أولئك وإن تظاهروا برسالتهم الدينية والخيرية، فإنهم يقظون دائماً، يحدقون بعيونهم ويصيخون بأذانهم إلى جميع الأوساط لمعرفة كل الاتجاهات، حتى يستطيعون أن يذلوا أي عقبة تعترض سبيل نشاطهم وعملهم، فهم في سرية أعمالهم كالجمعية الماسونية، تنشُد في الظاهر سلام العالم، لكنها دعوة سرية لاستتابة حكم التوراة في ربوع العالم)^(٣) .

-
- ١ - المسلمون وجهادهم ضد الروم في أرمينية والنفور الجزرية والشامية خلال القرن الرابع الهجري ص ١٣٩ للدكتور صابر محمد دياب - مكتبة السلام العالمية بالقاهرة ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م ويُظر صفحات ١٣٦، ١٦١، ١٦٣، ٢٠٠ .
 - ٢ - الإسلام على مفترق الطرق ص ٦٤ ترجمة د/ عمر فروخ ط دار العلم للملايين / بيروت سنة ١٩٧٤م .
 - ٣ - الاستشراق والتبشير وصلتهما بالإمبراطورية العالمية إبراهيم خليل أحمد ص ٧٧ مكتبة الوعي العربي بالقاهرة ١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م .

لذلك جاءت نتائج الغزو الثقافي - بلا مبالغة - أشد تدميراً من الغزو العسكري ، فإن الريح الصرصر العاتية التي أخبرنا بها القرآن الكريم لعقاب قوم عاد ، ومازلنا نسمع بمایشابهها في بعض سواحل أمريكا وأوروبا وآسيا وغيرها من بلاد العالم ، فكأنها تُذكرنا بالسنة الإلهية في عقاب العصاة ، أو التحذير من غضبه وعقابه .

إن هذه الريح - رغم شدتها - ربما تُعدُّ أخف وطأة على شخصية الإنسان المسلم من ریح الغزو الثقافي المتواصل والمتنوع ، الذي لا يقتل المباني والأشجار وينسف الطرق والكباري ، بل يقتل العقائد من القلوب ، ومن لم يصدّق فعلیه بقراءة كتاب (تغريب العالم) الذي لخصنا بعض محتوياته بهذا الكتاب ! ولقد طوّقت الشخصية الإسلامية منذ الاستعمار الغربي في العصر الحديث بأطواق مصنوعة وفق ثقافة الغرب ، وفُرضت عليها تصوراته في المعارف والسلوك والعادات ، ومن النادر أن يقف بعضنا ليتساءل عن طبيعة حياتنا المصنوعة بأدوات غربية : ما أهدافها وغايتها ؟ . . . وهل تتفق مع عقائد الإسلام وشرائعه أم لا ؟ . . .

ولعلنا وفّقنا بهذا الكتاب في الإسهام بالتوعية بأمرين :

أحدهما : أن التراث الإسلامي يتفوق على ثقافة العصر .

الثاني : معرفة ما يدور حولنا وما يراد لنا .

وجاء الكتاب على النحو الآتي :

ففي الباب الأول عرضنا لبعض المصطلحات المتصلة بالفكر الإسلامي ، مع التحذير من الخلط بين المصطلحات وأثره التخريبي على المفاهيم الإسلامية الصحيحة الأصيلة .

وعرضنا في الباب الثاني لأثر واقعة انهيار الاتحاد السوفيتي وتهافت الماركسية على ثقافة العصر حيث برزت نظريتان :

أولهما : نظرية (نهاية التاريخ وخاتم البشر) لفوكوياما .

والثانية : نظرية (صدام الحضارات) لهانتجتون .

ثم بينّا موقف الفكر الإسلامي من كليهما .

وخصصنا أحد الأبواب لتناول أزمة العالم الحديث ، وألقينا الضوء على الفكر الإسلامي الغربي في العصر الحديث باختيار بعض الصفوة من مفكري الغرب (علي بيغوفيتش ، رينيه جينو ، مراد هوفمان ، روجيه دوباسكويه) وأفكارهم في مجملها تعطي القارئ صورة متكاملة عن نتائج الصراع الدائر بين الغزو الثقافي والفكر الإسلامي وتشدّ أزره في مواجهة العواصف التي تهدف إلى فقدان الشخصية الإسلامية لتوازنها واعتزازها بعقائدها وانتمائها إلى خير أمة أخرجت للناس ، وقد عثرنا بمؤلفات بعض مسلمي الغرب على خير زاد في معركتنا الثقافية لكي تشدّ أزرنا وتجعلنا الأقوى في المواجهة .

وللقارئ فكرة موجزة وهي تغري بالتوسع في دراسته والإفادة منه :

أن حصيلة أفكار الرئيس علي بيغوفيتش تنري الفكر الإسلامي المعاصر وتمنحه دفعات قوية لمصارعة الفكر المستغرب ببلادنا إذ أظهر بكتابته (الإسلام بين الشرق والغرب) حاجة العصر الماسة إلى الإسلام بعد فشل الأيدولوجيات - لا تطويعه للعصر كما يريد البعض منا !- وفي سياق عرضه الممتاز صحح التصورات المنحرفة في الفلسفة الغربية عن الإنسان ، وأحل محلها تصور الإنسان في الفكر الإسلامي الشامل للعقائد والدوافع النفسية وطبيعة علاقاته الاجتماعية والدولية ، مع تحديد الغايات الدنيوية القصيرة الأجل في ضوء

الشرع والغايات الأخروية اللانهائية .

كذلك وظّف بعض النظريات العلمية في زيادة الإيمان ، نافثاً في الأمة
الأمل في مستقبل مشرق لكي لا تقع صريعة لصاحب فكرة (نهاية التاريخ) .
وباختصار ، يخرج دارس كتابه بأنه باتباع منهج معايير العصر في التقويم
- أثبت أن الفكر الإسلامي يتصدر المقدمة بلا منازع - لا كما يصوّره أعداؤه
بدعاوي ملفقة ، وأكاذيب مثيرة للسخرية !

وتعلمنا من رينيه جينو (المعروف بالشيخ عبدالواحد يحيى) أنه بسبب
نسيان أو تجاهل طبيعة الحكمة الحقة التي تستند إلى التراث نشأت الفلسفة
(الدنيوية)، التي تنكر كل ما يسمو على المستوى العقلاني، وشاع ما يسمى
بالمذهب الإنساني، لا بمعنى المحافظة على كرامة الإنسان وحرية وحقوقه،
بل بالابتعاد عن السماء بحجة امتلاك الأرض !

كما تعلمنا من د/ هوفمان بعد طول البحث والتجربة والاطلاع على
تراثنا الإسلامي وموازنته بالثقافة التي نشأ عليها ، أن الإسلام هو البديل
للانهيار الغربي فسمى أحد كتبه وأهمها (الإسلام كبديل) ، ويمثل بمضمونه
مواجهة حقيقية تصدم الفلسفة العصرية الغربية وتكشف جهلها بالقيم
وإباحيتها المطلقة لكل شيء ، لقد قام بالدفاع عن الوحي الذي تلقته الأجيال
تلو الأجيال بمنهج النقل البالغ الدقة ، كذلك قام - كما فعل سلفه (رينيه
جينو) - بنقد الفلسفة المادية لما عانت من أزمات بسبب القطيعة مع الروح
النقلي ، فانتهدت إلى الفلسفة النفعية المجردة من القيم ، وحرمت الإنسان
من معرفة العالم الغير المحسوس .

ومروراً بنفس التجربة وبعد المعاناة الشخصية في ظل أجواء القلق والتوتر

وفقدان الأمل في الاطمئنان النفسي، عشر روجيه روباسكويه (عبدالكريم) على ضالته في السنة النبوية الخاتمة في سلسلة التنزيل الإلهي، وهي الكفيلة لكل من يلتزم بها بمقاومة الفوضى الحاضرة وإعادة تأسيس الطمأنينة والوضوح داخل الروح وتحقيق الغاية العظمى التي خلقنا الله تعالى من أجلها.

وأفردنا الباب الأخير لمناقشة الفلسفة العملية الأمريكية التي تحاول فرض هيمنتها على العالم بعد سقوط الماركسية، إذ يتضح بالمناقشة أنها بدورها لا تقوى على الصمود أمام النقد بالمنهج الفلسفي، ثم يأتي الفكر الإسلامي فيعرض البديل ويسد الثغرات الهدامة للعلاقات والقيم الإنسانية في الفلسفة الأمريكية.

وإذا كان المنهج الغالب على دراستنا هو المنهج النقدي، فإنه لم يأت نتيجة تكلف أو اصطناع من جانبنا، ولكنه أتى في سياقه الطبيعي مع موقف نقاد الثقافة الغربية من بعض علمانهم وفلاسفتهم وساستهم أنفسهم، وهذا لا يمنعنا من التصريح بأننا نهدف إلى إزالة غشاوة الفتنة عن عيون الأجيال الشابة، حتى يأتي جيل قادم عارفاً بحقيقة ثقافته الإسلامية، فينهض لإحياء حضارته من جديد، بدلاً من الاستمرار في حالة الغيبوبة والتخدير، أو إشاعة روح اليأس، لأن أبواق الإعلام الغربي - أو قل: دعاياته - وكتابات المتغربين أيضاً، تعتمد الإلحاح على الوجه الفاتن لحضارة العصر، وتخفي عن عمد أزماتها الحقيقية.

ومجمل القول أن الفكر الإسلامي أثبت أنه الوحيد القادر على منافسة ثقافة الغرب، وأن الأمة الإسلامية جديرة بتعويض ما فاتها في ميادين العلوم والتكنولوجيا، فإن المنافس الوحيد للحضارة المعاصرة هي حضارة

الإسلام ، وهي الكفيلة بعلاج مساوئ حضارة الغرب لأنها تملك مقومات العالمية، ومنظومة القيم ، والتشريع الراقي في المعاملات - اجتماعياً واقتصادياً وسياسياً - وتُفسّر معنى الوجود والغاية من الحياة ، وتقدم للإنسان منهج حياته الطيبة في الدنيا والكفيل بتحقيق سعادته في دار الخلود أيضاً .

لذلك ترتفع أصوات الصراخ والعويل هناك خشية على حضارتهم من الأفول، وتحذيراً من شمس حضارة تبرز في الأفق لكي ترثها ، وقد تأكدوا من ذلك بعد بحوثهم ودراساتهم في مراكز البحوث وأقسام الجامعات المتخصصة بحضارة الإسلام، وتراكمات جهود المستشرقين طوال عشرات السنين، وأغلبهم من اليهود والنصارى فلا البوذية، ولا الهندوسية ، ولا الكنفوشيوسية ولا غيرها من الأديان، والأيدلوجيات بقادرة على تحدي حضارة العصر .



وأسأل الله تعالى قبول هذا العمل خالصاً لوجهه ، وأن ينفع به المسلمين، ويجعله ذخراً لي بعد مماتي ...

مصطفى بن محمد حلمي

٦ رمضان ١٤١٨ هـ
الإسكندرية في : ٤ يناير ١٩٩٨ م

الْبَابُ الْوَحِيدُ

تعمير

أحوال العالم الإسلامى فى العصر الحديث :

فإنه يتعين على الباحث فى الفكر الإسلامى فى العصر الحديث أن يتعرض أولاً بشكل مجمل لدراسة أحوال العالم الإسلامى وتاريخه الحديث .

ولا بد أيضاً من معرفة أحوال العالم حوله ، وعلى سبيل التحديد العالم الغربى لأن الغلبة صارت له فى حلبة الصراع -عسكرياً واقتصادياً وسياسياً- وأصبحت العلاقات بين الغرب والشرق علاقات المستعمر مع المستعمر .

وإذا كان الغرب قد حسم الأمر لصالحه فى هذه الدوائر الثلاث ، فقد بقيت دائرة (الفكر) مستعصية بالرغم من حملات الغزو الثقافى الضارية ، إذ بينما كان جسد الأمة مشخن بالجراح بالطعنات تلو الطعنات ، نجد أحد المناضلين عن عقيدتها وفكرها - وهو الإمام رشيد رضا - يرفع صوته بكلمات ملؤها الثقة والعزة بالنفس ، تبلغ الذروة باستخدامه لفظ (التحدى) فى قوله :

(نتحدّاهم بالقرآن - وهو يقصد الفلاسفة والمؤرخين من جميع الأمم ولا سيّما أحرار الإفرنج - بأن يأتوا بالإصلاح الدينى والاجتماعى والسياسى مؤكداً تقديم أسمى حضارة على أساس قرآنى) (١) .

(١) رشيد رضا - الوحي المحمدى ص ١٦٥ . المطبعة السلفية - بالقاهرة .

وأخذ محمد إقبال يحذر من التقليد الأعمى لمساوئ حضارة الغرب، ومن أقواله (ولكن اياك والحضارة اللادينية التى فى صراع دائم مع أهل الحق، وأن هذه الفتانة تجلب فتناً وتعيد اللات والعزى إلى الحرم، وأن^(١) القلب يعمى بتأثير سحرها.. . وأنها تدع الإنسان لا روح فيه ولا قيمة له).

وقد أصاب شاعر الإسلام وفيلسوفه الكبير كبد الحقيقة فى تحذيره لأمتة ومعرفته بحقيقة هذه الحضارة التى تبدو فى ظاهرها فتانة وفى باطنها تحمل السم الزعاف، اذ اجتاحت العالم الإسلامى لاستعمارته ونهب ثرواته وتطويع شعوبه لمفاهيمها وفلسفتها وأنماط حياتها .

يقول جان بول رو تحت عنوان (الاستعمار فى بلاد الإسلام) .

(لم يكن القضاء على الدولة العثمانية إلا مظهراً من مظاهر الهجوم العام الذى يشنه الأوروبيون على الدول الإسلامية . ومن جزر الفلبين إلى قلب إفريقيا، عمل الرجل الأبيض على بسط سيطرته على الرجل المسلم وفرض عليه مفاهيمه فى الوجود وطرق معيشته وتفكيره ، ومخططاته وتكنيكه . لقد تبدلت الأسس الاقتصادية وتغيرت المفاهيم ، والغربى الذى عزف عن الروحانية أكد أولية العمل المطلق الذى لا يخضع إلا إلى العقلانيات وانقطع عن الاعتقاد بالله ، وقوى السحر الخفية ، وأولوية الروح ، والعاطفة ، والمشاعر، بل أدار ظهره للحياة ليكتسب الحياة الفانية)^(٢) .

وفى تقسيمه لما سمّاه بالصراع بين المسيحية والإسلام يرى أنه مرّ إجمالاً بمراحل رئيسية أربع :

(١) الترجمة العربية من قصيدة (ضرب كليم) - نقلاً عن كتاب الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية ص ٩٩ ،

(٢) الإسلام فى الغرب - جان بول رو ص ٥٦ تعريب نجده هاجر وسعيد الغزى . المكتب التجارى - بيروت نوفمبر ١٩٦٠ م

الأولى: مرحلة الاندفاع العربى نحو الغرب وتبدأ غداة وفاة النبى
-ﷺ- وتنتهى باحتلال الشرق البيزنطى والمغرب وأسبانيا وصقلية .

الثانية : هى الرد المسيحى فى حرب أسبانيا والعمليات الحربية فى إفريقيا
والمحاولات الصليبية، وتنتهى بالنصر فى حوض المتوسط والفشل فى
فلسطين .

وتشهد الثالثة : دعوة المسلمين إلى التوسع على حساب المسيحيين وذلك
على أيدى الأتراك، تمتاز هذه المرحلة باحتلال القسطنطينية والبلقان وأوروبا
الوسطى .

وأما المرحلة الرابعة : فهى رد مسيحي جديد ، تتميز بطرد الأتراك من
ممتلكاتهم، والقضاء على قوة الإسلام فى آسيا الوسطى وروسيا، وفرض
الاستعمار - أو الحماية على القسم الأكبر من ديار الإسلام^(١) .
ولكن هل استسلم العالم الإسلامى وألقى بسلاحه جانباً وخلع درع
الحرب ؟

إن إجابة المؤلف صريحة فى اعتباره بأننا نعيش اليوم(أى منذ عام
١٩٦٠م) مرحلة خامسة يمكن وصفها بأنها مرحلة النضال ضد الاستعمار
وتحرير الإسلام .

وكان صريحاً أيضاً فى الاعتراف بأن الغرب غير أهدافه، ففي القرنين
التاسع عشر والعشرين ، فى المدى الذى كانت المعركة لا تزال ترتدى فيه
طابع الإسلام، لم يكن الهدف من ذلك كما كان من قبل القضاء على الدين
الإسلامى واستبعاده، بل على الأرجح القضاء على قوته السياسية ليس إلا .

(١) نفسه باختصار ص ٧٠ .

أليس ذلك دليلاً على استحالة القضاء عليه بعد التجارب تلو التجارب ومن ثم لجأوا إلى الحرب الخفية أى الغزو الثقافى لإضعاف قوته فى نفوس المسلمين؟!

وكما قيل (إن الزمن دوار) نرى المؤلف متزعجاً من ظواهر جديدة عقب الحرب العالمية الثانية ، وأخذ يسجل أسباب انزعاجه ففى تحليله للعلاقات المتشابهة بين العالمين الإسلامى والمسيحى يذكر أن بعض المشاكل الحيوية لما بعد الحرب قد نشأت بالضبط من جراء وجود شعوب إسلامية فى الغرب وقال (شئنا أم أبينا : إن الإسلام يلعب دوراً يومياً فى وجودنا . لقد أصبح أحد العناصر الرئيسية فى الحياة الغربية) (١) .

أولاً : علاقة الشرق بالغرب فى العصر الحديث :

ولا ينفرد جان بول رو - الباحث الفرنسى - بهذا الرأى ، إذ نلاحظ ما يشبه الاتفاق بين الباحثين فى علاقة الشرق بالغرب فى العصر الحديث أى أنهم يقدمون صورة تكاد تتطابق مع الاصطدام السابق فى القرون الوسطى فيما يعرف باسم الحروب الصليبية حينذاك .

وفى الدراسة المستوعبة لجغرافية الإسلام التى عالج فيها الدكتور جمال حمدان مجموعة منتخبة ومتراصة من جوانبه الحيوية ومشاكله المعاصرة المؤثرة ، والمتضمن فيها جغرافية الإسلام مع تاريخه وحاضره ، فى هذه الدراسة بمنهجها المتميز استطاع أن يعثر على الصلة بين التشابه البارز فى الشرق والغرب فى القرون الوسطى وفى المعابر الحديثة -أيضاً - راصداً حركات الاستعمار الاوروبى العسكرى وردود الفعل المقاومة له .

(١) الاسلام فى الغرب - جان بول رو ص ٥٦ تعريب نجده هاجر وسعيد الغز .
المكتب التجارى - بيروت نوفمبر ١٩٦٠ م

وهو يؤكد أن العصور الوسطى هي عصر الدين بامتياز سواء فى ذلك الشرق أو الغرب، لذلك جاءت الصليبيات رغم دوافعها الكامنة كاستعمار اقتصادى خفى ، جاءت تحت شعار الصليب وقناع الدين ، فأخذ رد الفعل صورة دينية وتلخص الصراع فى مبارزة ملحمية ومصيرية بين الإسلام والمسيحية .

وبعد ان أصبح العالم الإسلامى فى قبضة الاستعمار فيما عدا اليمن وقلب الجزيرة العربية، كان التحدى (تحدى حياة أو موت بالنسبة للإسلام، وأعاد إلى الأذهان ذكرى الصليبيات . ولم يحاول الاستعمار الأوروبى من جانبه أن ينكر هذا ابتداء من اللبى فى القدس حين أعلن أنه (الآن انتهت الحروب الصليبية) إلى جورو فى دمشق حين أطلق شماتته المعروفة (لقد عدنا يا صلاح الدين)^(١).

وأصبحنا الآن فى مرحلة صراع مكثفة ، يصح معها التساؤل بدهشة عن السر فى أن النسبة الكبرى من صراعات العالم تقع على الأرض الإسلامية والعربية ! وهناك ما يدور فى البلقان وأفغانستان وحرب الخليج بتداعياتها ! ويتساءل الدكتور مصطفى الفقى :

(يا ترى هل هذا مجرد مصادفة لأحداث التاريخ مردها يعود إلى طبيعة الشعوب الإسلامية ومعاناتها أم أن الأمر تحكمى وموجه من جانب القوى المسيطرة على عالم اليوم فى ظل شكله الجديد الذى يسمح لنا بالحديث عن نظام عالمى جديد) ؟^(٢) .

(١) من كتاب العالم الإسلامى المعاصر ص ١٣٢ ط عالم الكتب بالقاهرة ١٩٧١ م .
(٢) الإسلام فى عالم متغير د/ مصطفى الفقى ص ٩٧ . الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٣ م .

وبشكل حاسم أيضاً يأتي الرأي من شخص خبير بدهاليز السياسة ومطلع بشكل عميق على العلاقة التاريخية بين الغرب والشرق: يقول الدكتور مراد هوفمان: (وفى الحرب الصربية الحالية ضد المسلمين فى البوسنة والهرسك، رفع الصرب واليونانيون شعار الحرب الصليبية لاستئصال الدولة الإسلامية من أوروبا بشكل لا يصدق ولكن حقيقى: عادت الحروب الدينية لخشبة المسرح العالمى وليست البوسنة آخرها، ولكنها أحدث الحروب الصليبية، ويسأل الناس أنفسهم ثانياً: الله فى صف من؟ فى الحقيقة، لم ينته عصر الحروب الصليبية فى أى زمان).

ثم يمسك بالعصب الحساس فى الجسد الغربى تجاه الإسلام فيستطرد (نعم، إذا سبرت غور النفس الأوروبية، ولو بخدش سطحي صغير، لوجدت تحت الطبقة اللامعة الرقيقة عداً للإسلام - عقدة فيينا - (يقصد وصول طلائع القوات العثمانية بعد فتح القسطنطينية إلى فيينا ١٤٩٢م) التى يمكن استدعائها فى أى وقت. وهذا ما حدث بالضبط فى أوروبا خلال العشرين سنة الماضية^(١).

ويرى الأستاذ طارق البشرى أن أغلب حركاتنا السياسية كانت تصدر عن المورد الإسلامى العريض وبهذا نفهم حركات السنوسى والمهدى وابن عبد الوهاب والجزائرى والخطابى أى أن كل الحركات الإسلامية ظهرت من المورد الإسلامى فى القرن التاسع عشر. . لم يكن هناك ثمة فارق بين الحركة الإسلامية والحركة الوطنية. وأخذت كل حركة من الحركات الإسلامية تؤكد كل منها على جانب أو آخر مما تحتاجه الشعوب الإسلامية حسب الخصائص التاريخية أو الظروف الاجتماعية والسياسية التى يمر بها كل شعب من شعوبنا

(١) الإسلام كبديل؛ هوفمان ترجمة د / غريب محمد غريب - مجلة النور الكويتية، مؤسسة بافريا، شوال ١٤١٣ هـ - ١٩٩٣م

فهناك من الحركات ما حمل السلاح فى سبيل الاستقلال بلاده مثل أفغانستان وهناك ما اقتصر على الدفاع عن أصول العقيدة حتى لا تحتل مثل حركة سعيد النورسى فى تركيا إبان نظام أتاتورك وهناك من الحركات ما أكد على الجوانب العقائدية مع تقديم مساعدات اجتماعية دون الوصول الى العمل السياسى المباشر مثل جماعة التبليغ فى الهند.

والآن وبعد الأزمات التى تعرض لها الفكر الماركسى والفكر القومى نجدها ترفع راية العلمانية للتخفى وراءها . . والعلمانية المجردة تعانى هى الأخرى من مشاكل حقيقية فى بيئة يصوغ فيها الدين الشخصية والوجدان . . وهى إذا وجدت مكاناً بين بعض المشققين وبعض الطبقات المرفهة، فإن الجماهير لا تستسيغها؛ فهى بطبيعتها متدنية.

وعن الاستنارة التى يرفعها العلمانيون كشعار يقول الأستاذ طارق البشرى:

(أنا لا أفهم بالضبط ما هو تيار الاستنارة، هناك مرحلة فى تطور الفكر الغربى فى العصر الحديث تسمى عصر التنوير وهى فترة ظهور التيار العلمانى المنفصل عن الكنيسة . . وإذا كانوا يقولون الآن إن القرن الماضى هو قرن الاستنارة والحدأة فهذا مفهوم مغلوط لأن القرن الماضى فى تاريخنا لا يغلب عليه وصف الاستنارة والحدأة بقدر ما يغلب عليه وصف أنه قرن الاستعمار والإلحاد والغزو والتجزئة السياسية وهو أيضاً قرن تجمع شعوبنا لمقاومة الغزو والتجزئة والتبعية وتعتبر العلمانية رافضة للدين ومقاومة له ^(١) .

والآن بعد عرض علاقة الغرب بالشرق ، لاحظنا أن الاستعمار هو الهدف الثابت للغرب : فكيف برر استعمارهم ؟

(١) ناقش الأستاذ طارق البشرى أصحاب الفكر العلمانى باقتدار (يُنظر كتابه الحوار الإسلامى العلمانى) - دار الشروق ١٤١٧ هـ / ١٩٩٦ م .

ثانياً : تبرير أو تنظير الاستعمار :

كان الاستعمار جزءاً ثابتاً من سياسات الدول الأوروبية عسكرياً، منذ الرومان، إذ إنهم أول أمة أضفت على العدوان صورة الاستعمار المنظم، لا مجرد عدوان شعب قوى على جيرانه الضعفاء .

وأصبح الاستعمار الأوروبي في العصر الحديث صورة مكررة من عدوان أجدادهم الرومان .

إلا أنه أخذ شكل نظريتين استعماريّتين في السياسة الدولية في القرن التاسع عشر لتبرير استغلال الشعوب :

الأولى : النظرية البيولوجية السياسية التي تعطي للدول الكبار الحق في التهام الدول الصغرى التي يجب أن تذوب داخل كيانات أكبر، فقد ميز رينان (١٨٩٧م) بين الجنس السامي والجنس الآري في كتابيه (تاريخ اللغات السامية) و(ابن رشد) . . وقد جاء في كتابه الثاني :

(وليس العرق السامي أى الشرقى هو ما ينبغي لنا أن نطالبه بدروس الفلسفة، ومن غرائب النصيب ألا ينتج هذا العرق ، الذى استطاع أن يطبع على بدائعه الدينية أسمى سمات القوة ، أقل ما يكون من بواكير خاصة به فى حقل الفلسفة) .

وعلى العكس من ذلك - كما يرى رينان - فإن الجنس الآرى (أى الأوروبي) مهياً غريزياً للقيام بعمليات عقلية معقدة ، تتسم بالتحليل والتركيب والتفكير فى دقائق وتفصيلات الوجود) .

وكتب أيديولوجى الاستعمار الأمريكى باردجيسى فى نهاية القرن الماضى :
(إن القسم الأعظم من الأرض تسكنه شعوب لم تستطع أن تقيم دولاً

متمدنة، وليس بمقدورها عملياً أن تقوم بمثل هذه المهمة، فقد قدر عليها أن تظل همجية أو شبه همجية . . وإزاء هذا الوضع لا يقتصر واجب الشعوب الناضجة سياسياً على الاستجابة إلى توسلات الأمم المتخلفة التي تلتمس المعونة والإرشاد، بل يتعدى ذلك إلى إرغام هذه الأمم على الخضوع والامتثال^(١).

الثانية : إباحة تملك الأقاليم التي تسكنها شعوب متخلفة غير مسيحية، أو قبائل منعزلة عن ركب الحياة العصرية خارج القارة الأوربية واعتبار هذه الأقاليم خالية يمكن تملكها لأول دولة تطوُّها وقد وضع مؤتمر برلين سنة ١٨٨٤م عدة شروط لهذا الاستيلاء حتى يحدث جميع آثاره القانونية في المجال الدولي وتظهر في هذه النظرية النزعة العنصرية الواضحة فضلاً عن استغلال العاطفة الدينية لنشر المسيحية كستار لعمليات النهب والسلب التي بدأها البرتغاليون وتبعهم الهولنديون والفرنسيون والإنجليز).

ويقول اللواء عبد الحميد شرف مستطرداً :

(وكان من المنتظر أن بلاد الإسلام تستطيع مقاومة موجة الاستعمار بفضل ميراثها الثقافى الضخم، ولكن هذا الميراث كان لدى الشعوب وليس عند السلطة الحاكمة، ولهذا ظلت الشعوب إلى حد كبير محتفظة بدياناتها ولغاتها وحضارتها، بينما انهارت الحكومات وتهاوت بسرعة عندما اصطدمت بالقوة الغربية المسلحة بالعلم، والمنظمة سياسياً وعسكرياً والمؤيدة فى الغالب من شعوبها)^(٢).

(١) (نقلاً من كتاب الذين يلحدون فى آيات الله) ص ١٨٢/١٨٣ للدكتور كامل سعفان ط دار المعارف) .

(٢) الصراع الكبير بين الشرق والغرب ط الأهرام ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م .

ثالثاً : دوافع استعمار العالم الإسلامى خاصة :

لا تنطبق هاتان النظريتان على العالم الإسلامى لما يتمتع به من مزايا متفردة جعلت منه خصماً عنيداً طوال عدة قرون، ومن هنا كان لابد من إيجاد مبررات لغزوه واستعمارهِ وكانت (المجملترا) هى رأس الحربة فى استعمار البلاد الإسلامية فى العصر الحديث حيث تزعمت الدول الأوروبية فيما يعرف بمؤتمر (بانرمان) الذى أصدر قراراته المبررة لاستعمار منطقة البحر الأبيض المتوسط .

وقام سير هنرى كامبل (رئيس الوزراء البريطانية وزعيم حزب (الأحرار) بعقد مؤتمر جمع فيه دول فرنسا وبلجيكا وهولندا وأسبانيا والبرتغال وإيطاليا شريكات بريطانيا فى استعمار الشعوب الأفريقية والآسيوية وغالبية الدول الإسلامية - وإن لم تكن كذلك بالكامل - حينذاك - لبحث تجنب الحضارة الأوروبية ما حدث لإمبراطوريات العالم إذ تنمو وتقوى ثم ترسخ وتستقر ولكنها لا تلبث أن تتحلل رويداً رويداً وتضمحل فتزول .

وضمن ما ورد بتقرير لجنة (بانرمان) أن الخطر الذى يهدد الاستعمار الأوروبى إنما يكمن فى منطقة البحر الأبيض المتوسط ويصف الأمة التى تعيش فيها (بأنها أمة تتوافر لها كل مقومات التجمع ، والترابط والالتئام، أي وحدة الثقافة ووحدة اللغة، ووحدة الدين، ووحدة الآمال) (١) .

وإذا ما قمنا بتحليل هذه القرارات لظهرت لنا عدة حقائق منها :

أن بعض فقرات التقرير يدفعنا إلى استخلاص مغزى هام. هو أن الخشية ليست من قوة العالم الإسلامى العسكرية فقد هزم أمام جيوش الغرب المتفوقة تنظيمياً وتسليحاً ، ولكن الخشية من قوة العالم الإسلامى المعنوية : قوة العقائد الدينية ووحدة الفكر والتاريخ والآمال . . . إلخ .

(١) (كتاب صليبية إلى الأبد ٤١٠) ، عبد الفتاح عبد المقصود ، الدار القومية بالقاهرة.

ولم يضيّع ساسة الغرب ومستشرقوه الوقت بل شَمَرُوا عن سواعد الجِدِّ وأخذوا فى تمزيق كيان الأمة سياسياً وجغرافياً ثم انتهوا بالتمزيق الثقافى وهو الأدهى والأمر. وكان الأستاذ محمود شاكر سباقاً فى التحذير من تمزيق (الثقافة المتكاملة للأمة الإسلامية) (١).

وستناقش الآن الفكرة الشائعة التى تغالى فى وصف العالم الإسلامى بالانحطاط عند بداية الاستعمار :

رابعا : واقع العالم الإسلامى فكريا وعمليا :

بدأ بعض الباحثين يعيدون النظر فى غلو الفكرة القائلة بأن العالم الإسلامى كان فى حالة انحطاط شديد وكأن أوروبا جاءت لانتشاله وإنقاذه، كما بالغ بعض الكتاب الأجانب فى وصف هذا الانحطاط لتبرير الاستعمار، وقد ناقش الدكتور عمر فروخ ما زعمه نفر من الأجانب عنا ثم تابعهم على زعمهم هذا - مع الأسف - خلق كثيرون منا أن العرب خاصة والمسلمين عامة قد مروا بعصر من الانحطاط بعد الحرب الصليبية (١). ودليله فى الرد على هذا الزعم الباطل انه يتضح من مراجعة تاريخنا العربى الإسلامى بعد الحروب الصليبية وجود رقى كثير فى عدد من ميادين الحياة، فلقد بقى أسلافنا ناشطين فى التأليف الثقافى إلى أواسط القرن الثانى عشر للهجرة (أواسط القرن الثامن عشر للميلاد) .

ويستطرد فيذكر أنه كان (عندنا فى أواخر هذه الفترة كتاباً فى آلات الحرب والمدفع لأحمد بن غالب الأندلسى، هو مغربى، ثم كتاباً غاية فى الإتقان فى حركات السبع كواكب السيارة ثم كتاب الطب الجديد لصالح بن

(١) ينظر كتابه (رسالة فى الطريق إلى ثقافتنا) كتاب الهلال العدد ٤٨٩ سبتمبر ١٩٩١

نصر الله الحلبي ثم كتباً وبحوثاً قيمة في الفلك لرمضان بن الصالح بن عمر السفطى ثم الكتاب الجامع (كشف اصطلاحات الفنون للتهانوى) . .

تلك بضعة أسماء من مئات وألوف من أمثالها من هذا العصر الذى يسميه نفر من الناس ظلماً عصر الانحطاط^(١) ، بل يرى العلامة الأستاذ محمود شاكر أن ما كان يجرى فى دار الإسلام منذ منتصف القرن الحادى عشر الهجرى (السابع عشر الميلادى) ، إلى منتصف القرن الثانى عشر الهجرى (الثامن عشر الميلادى) ، إنما هو يقظة حقيقية ، ونهضة كاملة ، وإحياء صحيح^(٢) .

كذلك أثبت اللواء عبد الحميد على شرف بكتابه (الصراع الكبير بين الشرق والغرب) أن الكتب العربية كانت تدرس فى جامعات أوروبا طوال القرون - الرابع عشر والخامس عشر وجزء من القرن السادس عشر - وظل بعضها يدرس حتى منتصف القرن الثامن عشر ، وخاصة كتب الطب والجغرافيا والتاريخ والاجتماع ، فإن الشريف الإدريسى هو صاحب أول خريطة للعالم وليس بطليموس ، كذلك العلامة ابن خلدون الذى ظل معترفاً به كأعظم مؤرخ وعالم اجتماع حتى القرن التاسع عشر .

ويقرر أيضاً أنه ليس من الإنصاف المبالغة فى تقدير تخلف الدولة العثمانية ، فقد كانت اسطنبول فى أواخر القرن السادس عشر أكبر مدينة فى العالم . . . وفى القرن الثامن عشر زار العديد من الأوروبيين العاصمة العثمانية للوقوف على أحوالها . ومن مظاهر القوة قيام الدولة بتسليح نفسها وبناء سفنها الحربية حتى القرن الثامن عشر ، ومن المعروف أن القوة

(١) تجديد فى المسلمين - لا فى الاسلام . د/ عمر فروخ ص ٢٠٦ . دار الكتاب العربى بيروت ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م .

(٢) رسالة فى الطريق إلى ثقافتنا ص ١٢٤ كتاب الهلال سبتمبر ١٩٩١ م .

العسكرية تعد ناتجاً من نواتج التقدم العلمى . وقد زار اللواء عبد الحميد المتحف البحرى والحربى باسطنبول وسجّل إعجابه بدقة الخرائط التركية، كما شاهد آخر صناعة ساعات دقيقة وبوصلات من إنتاج القرن التاسع عشر...

واستخلص من مشاهداته أن حملة المبالغة فى تصوير تخلف العالم الإسلامى (هو تهية رأى عام لدى الشعوب الأوروبية لتقبل فكرة الانقراض عليه وتمزيقه باعتباره وثناً غير متحضر ومن هنا كان إنكار كل إسهام محمود لهذه الأمة) . (ويذكر أنه تعرّف أثناء زيارته لاسطنبول سنة ١٩٩١ ميلادية بمدير مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية الذى يقوم بجهود بحثية عظيمة فى التراث الحضارى الإسلامى لتعريف الجيل الحاضر بالتراث العلمى والثقافى الإسلامى فى العصور المتأخرة) .

والمركز تابع لمنظمة المؤتمر الإسلامى ويُمَوَّل من الحكومات الإسلامية ولكن اللواء عبد الحميد يرى ضرورة إشراك الشعوب والأفراد والجمعيات الغير الحكومية فى الدعم المادى لهذا المركز لخطورة دوره فى بعث صحوة حضارية إسلامية (١) .

أضف إلى ذلك الحريات المتاحة فى الدولة العثمانية فإنهم لم يفرضوا على البلاد التى حكموها أى طابع خاص، بل تركوها تتابع حياتها الاجتماعية والاقتصادية كما يحلو لها، وتقوم بشؤون عباداتها حسب عقائدها فتنوعت داخل الوحدة التركية التقاليد والعادات والعقائد والمذاهب الدينية والفكرية والسياسية والاجتماعية فكانت الدولة العثمانية أشبه برقعة الشطرنج لكل شعب فيها نظمه وتقاليده وملابسه القومية ولغاته ولهجاته وزعمائه المحليون، ولم تفكر ولم تحاول الحكومة المركزية فى استانبول صهر هذه الشعوب فى

(١) الصراع الكبير بين الشرق والغرب ص ١٣٤ — .

بوتقة واحدة إلا منذ عهد الاتحاديين (أى جماعة الاتحاد والترقى بزعامة أتاتورك اليهودى الدومى) ، الذى وصل إلى الحكم بعد عزل السلطان عبد الحميد الثانى سنة ١٩١٩ م . وحاولوا تحريك جميع عناصر الدولة فاصطدموا بالقوميات الناشئة وخاصة القومية العربية فلم يحسنوا اختيار الطرف فكانت محاولتهم هذه أحد عوامل تفكك الدولة ونهايتها^(١).

وبعد هذا العرض الموجز لأحوال العالم الإسلامى وصلته بالغرب ستتكمّل عن مصطلح (الفكر الإسلامى) : نشأته وقضاياها



(١) (تاريخ العرب والإسلام) منذ العصور القديمة حتى العهد العثمانى ، أنور الرفاعى ص ٤٧٠ ط دار الفكر - دمشق ١٩٧١ م .

الفقه الإسلامي

تصحيح

المصطلحات والمفاهيم

أولاً : مصطلح « الفكر الإسلامى »

النشأة والقضايا :

قد يصعب تحديد أول من استخدم مصطلح الفكر الإسلامى - وربما كان الدكتور البهى^(١) من أوائل من استخدم المصطلح وحدد القضايا التى عالجها، إذ يعرض فى إطاره الآراء والأفكار المطروحة للبحث عن الاصطدام بالاستعمار الغربى فى العصر الحديث لأنه فجّر مشكلات لم تكن معروفة من قبل فى تاريخ الأمة الإسلامية، فقد دُرِسَتْ مشكلات أخرى فى تاريخنا باسم مصطلحات علوم الكلام والفقه وأصوله والفكر الفلسفى اليونانى أما فى العصر الحديث فقد فرض الغزو الاستعماري الثقافى قضايا أخرى كالتبشير والقوميات والعلمانية والماركسية والوجودية والبرجماتية، فضلاً عن القضايا التى كانت مطروحة من قبل فى علم مقارنة الأديان أو مما كان يثيره الملاحدة والزنادقة ممن ينكرون الأديان ولا يقرون النبوة وعالم الغيب .

شرح المؤلف فى مقدمات كتابه الغرض من تأليفه، إذ بلغت طبعاته خمساً: فى الأولى سجل تأثر المستشرقين منذ الحروب الصليبية بعداوة دينية لم يستطيعوا أن يُنَحِّوها جانباً، مع التعسف والشطط فى الحكم لا حرية البحث أو حرية التعبير كما يزعمون وقد قوبلوا داخل العالم الإسلامى باتجاهين إما التبعية للفكر الماركسى الشرقى أو التبعية العلمانية فى الفكر الغربى ، وسجل المؤلف فى مقدمة الطبعة الخامسة ١٩٦٨م أن العداء الماركسى أخر إصدارها .

وفى الطبعة الرابعة الصادرة سنة ١٩٦٤م سجل فى دهشته مطالبة أحد المستشرقين بتعديل الإسلام حتى يلائم الحضارة القائمة وإلا فالفناء مصيره !

(١) د/ محمد البهى : الفكر الإسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى ط دار الفكر - بيروت ط المحرم ١٣٨٩هـ - ١٩٦٨م .

ويبدو أن هذا مازال هدفاً ثابتاً . . .

أما مضمون الطبعة الثانية - كالأولى - فأفصح عن غرضه في إيقاظ الوعي بتفكير توجيهي محايد لا مذاهب شرقية إلحادية ولا غربية صليبية على أساس من الإسلام الأصيل نفسه وتنمية الذات والشخصية بالتفتيش عن مصادر الأصالة .

وهنا في مصر كان من مظاهر التجديد في الفكر الإسلامي منذ بداية القرن العشرين، ترديد الفكر الغربي في القرن التاسع عشر .

ولم يكن الترديد النافع منه الذي يصح أن يثمر في الجماعة الإسلامية الناهضة، كالفكر العلمي، في مجال التعمير والهندسة، و في مجال الكيمياء، وفي مجال الطبيعة أو الرياضة البحتة، وإنما كان ترديد فكر المستشرقين . . أو الفكر المادى .

إن الذين تجاوزوا من فلاسفة الغرب بنقدهم الميتافيزيقيا و الدين ، لم ينقذوه إلا لتصفيته من العقائد غير المعقولة في عصر تيقظ الإنسان فيه إلى قيمة نفسه . . .

ولكن هنا في مصر والشرق الإسلامي عندما ارتضى المجددون لأنفسهم أن يكونوا مرددين لمفكرى الغرب ردوا هجوماً على دين ليس ثمة داع لمهاجمته وهو الإسلام لأنهم قرأوا ما يشبه الهجوم على المسيحية باسم النقد العلمى أو العقل .

وقدّم الدكتور البهى للاتجاهين السائدين في العالم الإسلامى منذ الاستعمار فقال:

ولم يقف استخدام هذا النفوذ السياسى القوى عند حد الاستغلال الاقتصادى للإبقاء على تخلف المسلمين بل استخدم أيضاً للتنفيس عن الهزيمة الصليبية فى الحروب الماضية .

ولتحقيق هذين الغرضين ابتدأت في الغرب (دراسة) للمقابلة بين المسيحية والإسلام : المسيحية دين المتقدمين والإسلام دين المتخلفين . وقام بعض المسلمين ينادى باتباع الغرب ولا يكون هذا الاتباع مثمراً للشرق الإسلامي إلا إذا اتخذ موقفاً من الإسلام يقربه من المسيحية .

وعلى أساس هذا التقريب قامت حركة السيد (أحمد خان) في الهند التي سماها (تجديد) وقامت حركة أخرى بعدها هي حركة (مرواغلام أحمد) - زعيم طائفة البهائية - وعاون المستعمر الغربي هاتين الحركتين .

ولكن ظهر اتجاه ثان يفهم الإسلام على الوجه الصحيح ويؤمن به إيماناً قوياً، فقام جمال الدين الأفغانى، ومن بعده الشيخ محمد عبده ليدفع حملة التشويه عن الإسلام، ويواجه المستعمر وجهاً لوجه .

وجاء القرن العشرون، واستمرت أيضاً الثنائية في اتجاه التفكير الإسلامي:

أحدهما: سار في طريق خدمة الاستعمار الغربى ولكن عن غير قصد مباشر، ويعتبر تقليداً للدراسات الإسلامية في تفكير المستشرقين الغربيين ، ثم أضيف إليه منذ نهاية الحرب العالمية الثانية الحديث عن الإلحاد في مواجهة الإسلام والمسلمين أى التفكير الوضعى الماركسى .

الثانى: محاولة تجديد المفاهيم الدينية التي باشرها في مصر تلاميذ الشيخ محمد عبده، كما قام بها في الهند فيلسوف باكستان (محمد إقبال) واستنتج من هذا كله أن الاستعمار له صلة وثيقة بالفكر الإسلامى .

كما اعتبر الدكتور البهى أن الفكر الإسلامى في هذه الفترة التي بلغت قرناً كاملاً يتضمن الاتجاهين السابقين .

لقد كان واضحاً إذن في ذهن الدكتور البهى - عندما استهدف إيقاظ الوعي على أساس من الإسلام الأصيل - أن مناقشاته وعرضه للأفكار

المتصلة بالإسلام تقتضى أن يجلي حقائق الدين الإسلامى - فى دائرته الكاملة - أى العقائد والعبادات والشرائع والنظم والمبادئ لا مجرد (أفكار) نظرية كما يوهم عنوان الكتاب .

لذلك نرى أنه لابد من تصحيح عدّة مفاهيم متداولة قبل الخوض فى دراسة الفكر الإسلامى وقضاياها فى العصر الحديث :

أ - : الإصلاح الدينى بين الإسلام والنصرانية

يذكر الدكتور عمر فروخ أن الخلاف بينهما واسع جداً (وإذا كان القول بالتجديد فى النصرانية ممكناً فإن هذا القول غير جائز فى الإسلام فإن المصلحين والمجددين النصارى - وكانوا كشاراً منذ مطلع النصرانية - كانوا يجدّدون فى الدين النصرانى نفسه أما فى الإسلام فكان الإصلاح أو التجديد يتناول ردّ المسلمين إلى حقيقة الإسلام . كان المصلحون النصارى يريدون إنقاذ الناس من قبضة الكنيسة ورجالها ، أما المصلحون فى الإسلام فكانوا يريدون أن يفهموا الناس - كلما انتكس الناس فى جاهليته - حقيقة الإسلام^(١) .

ويقول الدكتور فروخ :

(كنت أتفاوض مرة مع أستاذى المستشرق الألمانى يوسف هل (٨٧٥هـ - ١٩٥٠م) فى هذا الأمر فقال لى : لا شك فى أن لوثر وكان ومذهبه الإصلاحى للنصرانية الكاثوليكية (المذهب البروتستانتى) ، يطالع فى مصحف (فى نسخة من القرآن الكريم) بين يديه . لقد كان القرآن الكريم قد نقل إلى اللغة اللاتينية منذ القرن الثانى عشر (قبل لوثر بنحو أربعة قرون)^(٢) .

(١) تجديد فى المسلمين لا فى الإسلام، د. عمر فروخ ص ١٢ .

(٢) تجديد فى المسلمين لا فى الإسلام، د. عمر فروخ ص ١٢ ، دار الكتاب العربى - بيروت ١٤٠١هـ - ١٩٨١م .

ومن الأدلة على ذلك عدد من وجوه الإصلاح التى افترضها لوثر (وهى موجودة فى الإسلام ومخالفة لما كان معمولاً به فى النصرانية الكنسية) :

الإنسان ينجو فى الآخرة بعمله الصالح لا بحلّ الأسقف له من ذنوبه - لا مكان للصوم فى الكنيسة والعبادة - ليس للبابا عصمة فى نفسه ولا له سلطة على النصارى ولا قدرة على غفران الذنوب - لا إكليركية (طبقات رجال الدين) لا رهبان ، ورجال الدين كلهم يستطيعون أن يتزوجوا - إنكار القربان (قول الكنيسة الكاثوليكية بأن الخمر تنقلب بصلاة من الكاهن فتصبح دم المسيح ويتقلب الخبز فيصبح لحم المسيح) .

ويقول الدكتور عمر فروخ :

(إننا نريد علماء مجتهدين مستنيرين ، يعيدون اسلامنا إلى أصله الأصيل ويزيلون ما علق به وطما عليه خلال القرون الخمسة الأخيرة من الوسواس والدسائس والشبهات . نريد علماء يعملون على وضع الإسلام فى جو العصر وينقلونه من التحجر والجمود إلى الحضور الإنسانى المتجدد بالإستقاء من ينابيعه الروحية وأصوله الحضارية لا تقليد الغرب والتقيّد بمساره التاريخى)^(١)

إن حجة التغريبيين - عند الأستاذ سعد جمعة تقوم على أساس أن ما حدث فى أوروبا حين بروز القوميات فيها على أثر الفصام بين الكنيسة والعلم هو قدر وحتمية تاريخية، وأن لابد للأمة العربية إذا أرادت أن تلحق بركب الحضارة المادية أن تتخلى عن الدين وأن تتخذ العلمانية منهجاً وطريقاً، لأن تقدم الحضارة الأوروبية منوط بغياب الدين . . .

(١) تمديد فى المسلمون لا فى السلام ، د / عمر فروخ ص ١١ .

وأصل الخطأ إغفالهم موضوعية البحث المقارن بين الدساتير والقوانين
الوضعية المنبثقة من أيديولوجية الرأسمالية والشيوعية وبين الشريعة الإسلامية
بمنهجها الإلهي المتقدم على تلك الدساتير والقوانين .

إن مشكلة التبعية والانبهار بالثقافة الغربية خيرها وشرها التي تعانيها
مجتمعاتنا ودولنا وحكوماتنا الجاهلية اليوم مردّها إلى أنه عندما هزم الدين
في أوروبا، برزت النزعات القومية العرقية خاصة وأن حركة الإصلاح الديني
كانت مرتبطة بالروح الوطنية، وانتقلت العدوى بعد الاستعمار إلى الشرق
فتمزق العالم الإسلامي والأمة الإسلامية إلى كيانات إقليمية قومية .

إن التجديد الصحيح المتوافق مع حديث الرسول ﷺ كما يعبر عنه سعد
جمعة رئيس الوزراء الأردني السابق في كتابه (الله أو الدمار) يراه متمثلاً في
(الدعوة الثانية - التي تنفر من التقليد الأعمى للغرب - وهي التي انبثقت
من واقع البلاد المغلوبة، وفي حضن عقيدتها وتاريخها، فقد كانت تهدف
إلى انبعاث إسلامي جديد يزيل ما علق بالإسلام من تشويه وشبهات وتجديد
المفاهيم الدينية وبعث الشريعة الإسلامية والملاءمة بين ذلك كله، وبين تطور
الحياة وأحداثها المتتابة، والحث على اقتباس الحضارة الأوروبية التكنيكية مع
المحافظة على المبادئ والقيم والتنظيمات السياسية والاجتماعية والاقتصادية
التي احتوتها الشريعة الغراء التي هي بشهادة أكبر علماء القانون في الدنيا من
الغرب نفسه الكفيله وحدها بإنقاذ العالم من ويلات التفسخ والتبدد
والانسلاخ الأخلاقي) (١) .

(١) كتاب (الله أو الدمار) للأستاذ سعد جمعة ص ٧٥ ط المختار الإسلامي ١٣٩٦ هـ - ١٩٧٦ م.

ب - اختلاف تصور الدين بين الغرب والمسلمين :

توجز الدكتور هونامارى شمل الإسلام بدائرته الشاملة ومغزاه الحقيقي بقولها (ينبغي ألا ننسى بُيْتَي جوته ، فى الديوان الشرقى الغربى ، الذى يشهد له بالبصر العميق فى عالم الفكر الإسلامى :

إن يكُ الإسلام معناه القنوت

فعلى الإسلام نحيا ، ونموت

وربما نعثر عند الفكرة المجسدة أو الفهم الواعى لهذه الحقيقة بكتاب الدكتور هوفمان (الإسلام كبديل) إذ يوضح منهجه ببداية كتابه بأنه مرافعة تدافع عن الإسلام وتزكيه، جذورها ضاربة فى التاريخ وأسسها قائمة على العلم والموضوعية، مع وعى المؤلف التام بالمعاناة والأدواء والمشكلات. ثم يضع الإسلام فى مكانه الصحيح متعالياً على كلا النظامين الغربى والشيوعى فيقول :

(كان الإسلام، إبان الصراع بين العالم الغربى والشيوعية، يستطيع ان يعد نفس الطريقة الثالثة المباشرة لهما، أى أنه الخيار الحر المستقل عن كليهما لفهم العالم والتعامل معه عقائدياً، أما اليوم فلإن الإسلام يطرح نفسه بديلاً لكلا النظامين، وذلك لتوفير الحياة على أفضل وجه وتذليل مشكلاتها المستفحلة)^(١) .

أما الرئيس على عزت بييجوفيتش فإنه يقدم الإسلام فى شكل دائرة الإسلام المتكاملة الجامعة فى تناسق بديع بين عقيدة التوحيد وبيان حقيقة الإنسان والتفسير الصحيح للحياة والنظم يتفوق على العقائد والنظريات

(١) الإسلام كبديل ، مراد هوفمان المقدمة و ص ١٨ ص ٢٠ مجلة النور الكويتية ومؤسسة بافاريا شوال ١٤٢٣ هـ - إبريل ١٩٩٣ م.

الفلسفية والبيوتوية وحتى النظريات التي تلبس ثوب العلم كالدروينية وما هي بعلمية .

وفى أحد نصوص الكتاب يقرر ان الإسلام ليس ديناً بالمفهوم الغربى وإنما هو بصفة أساسية مبدأ تنظيم الإنسان لقد وُجد الإسلام قبل الإنسان (١) -وسياتي عرض آرائها تفصيلاً- فيما بعد -

ج - التحذير من التوفيق بين الفكر الإسلامى والمذاهب الغربية .

فُتِن بعض المسلمين بالمذاهب المعاصرة حتى بلغ بهم إلى حد إلباسها ثوباً إسلامية: ففى فصل بعنوان (الإسلام والمذاهب الحديثة) سجل الأستاذ فتحى رضوان بعض آراء العلماء الدالة على هذه الفتنة متسهدفاً التحذير منها بسبب الإحساس بالنقص أمام حضارة منتصرة تكتسح فى طريقها بلاداً وتستعبد شعوباً وتفرض نظمها على المقهورين، وكانت الأنظمة السياسية الذائعة الصيت حينذاك هى النازية والديمقراطية والاشتراكية، فعندما ارتفع نجم الألمان وكان هتلر يقودهم من نصر إلى نصر - كان فى رأى عالم مسلم أن النازية هى الإسلام بعد إسقاط الجانب الروحى منه لأن الإسلام ليس روحانية بحتة، فإنه بناء ومادة وقواعد حياة وأصول حكم، وتجارة وصناعة وزراعة، وزواج وطلاق - حياة بشرية كاملة ولكن يحيط بهذا كله ويرفعه إلى مستواه الأعلى ويحمله ويجعله روح سامية هى الاسلام، كما يعتمد على قصة خلق آدم فى البناء المادى للإسلام إذ خُلِق أولاً ثم نفخ فيه الروح ويضيف صاحب هذا الرأى أن الألمان يقولون (المانيا فوق الجميع) والقرآن قال ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ والفارق الكبير بين المعنيين فارقٌ روحى!

(١) الإسلام بين الشرق والغرب ، على بيجوفيتش .

وكما كانت خصومة اليهود لزعيم الألمان، أشد الخصومات الذائعة والله تعالى قال ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ .

وقد أجلاهم الرسول صلى الله عليه وسلم عن بلاد العرب، فى حين أن زعيم الألمان تبعاً لحضارة عهده مثل بهم وخرج عن كل حد معقول وهذا هو الفرق بين زعيم ورسول !

ولكى لا يقع العالم صاحب هذا الرأى فى الحرج فكان يختم كلامه بقوله: (انا لا أدعوكم إلى النازية، ولا أحسنها لكم لأنى أدعو إلى الإسلام) وعلى أثر الحرب العالمية الثانية وانتصار الديمقراطية على النازية، أي الحكم الشمولى للزعيم الذى تجتمع فيه السلطة ويدين له الجميع بالطاعة والانقياد، عندئذ أخذ بعض علماء المسلمين يشيدون بالديمقراطية وأخذوا يستخرجون الآيات القرآنية والأحاديث النبوية المتصلة بالشورى ثم اتضحت فيما بعد عيوب الديمقراطية، إذ أن الصوت الانتخابى لا قيمة له لجائع أو لجاهل، ولا حرية رأى لصحافة فى بلد يحكمه أصحاب النفوذ وتجنى أرباحها من الإعلانات لأصحاب المصانع والمزارع والمناجم وهم بهذا أصحاب الكلمة فى الصحف. (١)

وإزاء هذا النقد القوى الذى يزرى بالديمقراطية السياسية ويعدها نصباً واحتيالاً، شعر المسلمون أن قولهم بأن الإسلام دين الديمقراطية لا يكفى لإعلاء شأنه، وفى الحال استطاع بعض العلماء أن يجدوا النصوص التى تؤيد إن الإسلام هو دين الاشتراكية، فالزكاة من أركان الإسلام وحديث الرسول ﷺ أسس مبادئها (قال: الناس شركاء فى ثلاثة الماء والنار والمرعى) وآيات القرآن الكريم تحرم الربا وهناك أحاديث أخرى تصف مجتمع المسلمين بأنه مجتمع التضامن الاجتماعى الذى يكفل فيه أهله بعضهم بعضاً.

(١) الإسلام والمسلمون، فتحى رضوان ص ٤٩٥ دار الشروق ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م

وبالعودة إلى شرح الخطوات التي خطاها أصحاب الدعوة إلى الحرية الاجتماعية نجدها انتهت إلى التبشير بأقصى درجات الاشتراكية وأسفرت الحرب العالمية الثانية عن ظهور قوة الاتحاد السوفيتي الذي بسط نفوذه المادى والروحي على النصف الشرقي من أوروبا ثم وقفت إلى جانبه (الصين).

ولم يكن ممكناً أن يشهد الفكر الإسلامى كل هذا التطور وألا يفكر فيه فمن علماء المسلمين من رأى فى الشيوعية خطراً محدقاً بأقطار المسلمين ودولهم ، بل بعقيدتهم .

وفى النهاية يقول الأستاذ فتحى رضوان :

(وهكذا نرى أنه ما من صاحب مذهب حديث إلا قال عن الإسلام أنه تطبيق لمذهبه والصورة المثلى لعقيدته، لو صدقنا هذا كله لكان الإسلام نازية وديمقراطية واشتراكية وشيوعية فى آن واحد فهل هو هذا حقاً؟^(١) .

الإجابة قطعاً بالنفى، والحق أن الصلة منبثة بين الإسلام وبين هذه المذاهب التى جاءت بعده بعدة قرون وجاءت ثمرة تطور الحضارة الغربية على أساس من الظروف التى صاحبت نشأتها .

أما الإسلام فإنه كدين يقيم بناءه على قاعدة طويلة عريضة عميقة هى الإيمان بآله واحد يحكم هذا العالم بقوانين ثابتة لا تتغير ويتساوى أمامه الجميع .

والإسلام كمنهج حياة فإن التجربة الإسلامية التى استمرت بضع مئات من السنين حققت للناس الذين شاركوا فيها، من القوة والسعادة والإخاء والتقدم المادى والطمأنينة النفسية والتألق الروحي، ما لم تحققه أية حضارة أخرى فى ظل أى مذهب آخر .^(٢)

(١) الإسلام والمسلمون، فتحى رضوان دار الشروق ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م ص ٥٠١ .

(٢) نفسه ص ٥٠٦ .

د - إن طرق المعرفة أوسع نطاقاً من الفكر وحده :

إن التفكير أو التعقل من وظائف الإنسان العليا في الحياة كالعلوم والمعارف التي تتسع بها آفاقه وتحقق له الإشباع النفسى بالتميز عن سائر المخلوقات ، وكلما ازداد علماً وتوسع في نشره والإفادة من ثمراته في حقول العلوم الإنسانية والتجريبية كلما ازداد سعادة لنفسه ولمجتمعه وللعالم .

هذا امر لا يمارى فيه أحد، أما الاعتراض الوارد فلمنه ينصب على الغلو في العقل وتضخيم دوره على حساب أدوات الإدراك الأخرى في الإنسان إذ يرى الدكتور حسن زينو خطأ تعريف الماديين الإنسان بأنه حيوان عاقل لأنهم يقصدون بالعقل الدماغ بمعنى أن الجهاز العصبى للإنسان أعقد من غيره في الأحياء، وبناء على هذا المفهوم ينبغي أن يقال أن لكل حيوان عقلاً على درجات متفاوتة والإنسان أعلى الحيوانات عقلاً. ويقرر الدكتور حسن زينو أن هذا التعريف خطأ كله (لأنه مترجم عن اللغات الأجنبية ترجمة خاطئة والأعاجم يعنون بالعقل كما قلنا الدماغ، في حين أن العقل كما حدده القرآن ليس هو الدماغ وإنما مركزه القلب ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا ﴾ .

وذكر علماء التوحيد أن الدماغ آلة التفكير وأن مركزه القلب وهذا ما توصلت إليه الدراسات حديثاً في أن العقل فى كيان الإنسان والذى يقول أن العقل هو الدماغ إنما يقلّد العوام فى رأيهم (١) .

وبعد استقراء الآيات القرآنية التي تصف وظيفة القلب وأحواله والقسوة التي

(١) التطور والانسان ص ١٤٩ ، للدكتور المهندس حسن زينو (تخصص الجيولوجيا والتنقيب) ط دار الدعوة - بيروت ١٣٩١ هـ - ١٩٧١ ، وقد تأكد هذا التفسير بناءً على تجربة د/ برنار - وهو طبيب بجنوب أفريقيا - يقوم بزراعة قلب ناجحة تماماً من الناحية الطبية، ولكن عندما وضع المريض تحت الملاحظة . . حدث في أثنائها أنه كان يهذي ويتحدث عن فكر لا يمت إليه بصلة ، وعندما طلب تفاصيل حياة صاحب القلب الأصلي ، فكانت المفاجأة أن المريض لا يهذي ، ولكنه يتحدث بأفكار صاحب القلب . . واعتزل الدكتور برنار مهنته !

وكرر الدكتور مجدي يعقوب التجربة حيث أجرى لطفل عملية زرع قلب ناجحة ، إلا أنه أصيب في أعقاب العملية بمرض أدى إلى تدمير قواه العقلية !

(باختصار : مقال بقلم د/ علي الخطيب : مجلة الأزهر صفر ١٤١٨ هـ ص ١٧٨ / ١٧٧)

وصف بها قلوب أهل الكتاب ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾ وكان القرآن هو الروح الذى أحيا القلوب القاسية ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ فحياة القلب ليس معناه ان لا يجرى فيه دم، وقسوة قلوب أهل الكتاب إلى أشد من الحجارة ليس معناه انعدام نبضها وإنما المقصود بذلك هو الصم المعنوى عن الفقه والعقل^(١).

وطرق المعرفة، وأبلغها معرفة الله عز وجل ليست محصورة فى الفكر وحده، ويذكر الراغب الأصفهاني أنه ما من برهان ولا دلالة وتقسيم وتحديد مبنى على كليات المعلومات العقلية والسمعية إلا وكتاب الله تعالى قد نطق به، لكن أوردته تعالى على عادة العرب دون دقائق طرق الحكماء والمتكلمين، لذلك يرى الأصفهاني أن الله تعالى أخرج مخاطباته فى محاجة خلقه فى أجلى صوره تشتمل على أدق دقيق، لتفهم العامة من جليها ما يضعهم ويلزمهم الحجة .

ويفهم الخواص من أثنائها ما يرفى على ما أدركه فهم الحكماء ، ثم يقرر :

(ومن هذا الوجه كل من كان حظه فى العلوم أوفر كان نصيبه من علم القرآن أكثر، ولذلك إذا ذكر تعالى حجة على ربوبيته ووحدانيته أتبعها مرة بإضافتها إلى أولى العقل، ومرة إلى أولى العلم، ومرة إلى السامعين، ومرة إلى المفكرين، ومرة إلى المتذكرين، تنبيهاً على أن لكل قوة من هذه القوى ممكن إدراك حقيقة منها .

وفى الحديث، قال النبى ﷺ (تفكروا فى خلق الله تعالى ولا تفكروا فى الله) فإن فيما خلق تفكر معاً متفكر .

قيل لإبراهيم النخعي: إنك تطيل الفكرة، قال (إن الفكرة منغ العبادة)

قال ابن عباس - رضيه الله - (التفكر فى الخير يدعو إلى العمل به والتفكر فى الشر

(١) نفسه ص ١٥٠ .

يدعو إلى تركه)، والفكر إذن يتصل بالسلوك، وهذا يقتضي إلقاء الضوء على مسألتين هما :

أولاً - الفكر أحد وظائف المؤمنين :

سواء صح نسبة الكتاب موضوع دراستنا هنا إلى الإمام الحسن البصري أم لم يصح^(١)، فإنه يحدد الوظائف المتعددة التي تبلغ أربعاً وخمسين وظيفة تجب على المؤمنين في كل يوم - وما التفكير إلا واحد منها، فكم تبلغ نسبتها إلى إجمالي الوظائف؟

إن مؤلف الكتاب يذكرنا بوظائفنا بدءاً من ذكر الله تعالى والوضوء والمحافظة على الصلوات في الجماعة ومروراً بأكل الحلال والتوكل على الله والصبر على الشدائد وجميع أعمال القلوب من التوبة والإخلاص وحفظ اللسان والمن والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وغيرها وغيرها من الأوامر والنواهي حتى (الاستعداد للموت) !

إن السمات التي نلاحظها في هذه الوظائف أنها تغطي أنشطة الإنسان كلها بشكل متوازن بين وظائف الجوارح والقلوب، وبين القيم والأخلاق والعلاقات الاجتماعية والأوامر والنواهي، ووظائف العقل .

ففي وظائف الجوارح تندرج أعمال ذكر الله والوضوء والصلاة والصدقة .
وفي وظائف القلوب يندرج تطهير القلب من جميع المعاصي والتوكل والرضا والشكر والصبر والإخلاص .

وفي دائرة القيم الأخلاقية نجد الصدق والقناعة وأداء الأمانة وترك العلو .
وفي الوظائف الاجتماعية نجد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وحفظ مال

(١) كتاب أربع وخمسون وظيفة تجب على المؤمنين في كل يوم، المنسوب للحسن البصري تحقيق وتعليق قسم التحقيق بدار للتراث بطنطا - مصر ١٤١٢ هـ / ١٩٩٢ م .

اليتم وبر الوالدين وصلة الرحم .

وفى رأس الأوامر والنواهي تأتى طاعة الله عز وجل وألا يشرك به شيئاً، وكذا
النواهي عن شرب الخمر والزنا .

وتنحصر بين كل هذه الأنشطة وظائف العقل فى ثلاث: العبرة والتفكر
والتعلم^(١)

أما عن نطاق الفكر وحدوده وحاجته إلى الوحي الالهي فيقول الدكتور
كامل سعفان محذراً من الغلو فى الفكر :

إن (الفكر الإنساني) لا يمتد إلى كل شئ ولا ينكشف له كل شئ ، ومن
البديهيات أن الغيبيات جزء من حياته رضى أم كره، فإذا كان لا يعلم ما يجرى
خلف بابه، أو تحت نافذته بل لا يعلم ما سيحدث له إن لم يكن لا يعلم ما
حدث له فكيف ننكر أن (يغيب) عنه من أمر الروح والملائكة والجن والجنة
والنار؟!

الفكر الإنسانى قاصر، ونموه دلالة قصوره، ومن قصوره ألا تكتمل الأفكار
والتصورات والمعتقدات والغايات تابعة من ذاته، ومن ثم كانت الحاجة إلى
الرسالات السماوية، تقويمه، وتبصره وتهديه ولو ترك أمره بيده لما كانت الهداية،
لأن (الأفكار والتصورات والمعتقدات والغايات) الإنسانية تأخذ شكلاً فردياً
وشكلاً جماعياً، ومع الفردية والجماعية تتطور أو تتصارع، وتتوالد، وتتفانى،
ولا يكون التكامل، وإن حظيت فى مرحلة بالتأييد، وبالمغلاة فى التقدير^(٢).

(١) المصدر السابق باختصار.

(٢) الذين يلحدون في آيات الله ، د. كامل سعفان ص٩

دار المعارف بالقاهرة سنة ١٩٨٣م

ثانياً - الدراسات الإسلامية النظرية ومناهج التخصص فى العلوم الإسلامية :

ويدعونا الحديث عن المصطلحات إلى ضرورة التمييز بين (الدراسات الإسلامية) والعلوم الإسلامية وقد سبقنا الدكتور محمد حسين رحمه الله إلى التحذير من الانسياق وراء ما يسمى (بالدراسات الإسلامية) التى تنسبنا قوميتنا وكل شخصياتها وأن ننسى ديننا وكل ما يتصل به بزعم (الموضوعية) التى يكثر البعض من الكلام عنها وهى فى الحقيقة ليست إلا حيلة لسلخنا من إسلامنا وعروبتنا باسم العلم .

فإذا أخذنا الموضوعات التى تناقش وتعرض باسم (الدراسات الإسلامية)^(١) . فينبغى أن نضع شرطاً أساسياً لمناهجها، أى (أن كل ما يكتب عن إسلامنا وعروبتنا أن يكون وسيلة لتعميق صفتنا الإسلامية، ولا خير فيه إن لم يؤد إلى هذه النتيجة) .

ويمضى الدكتور محمد حسين قائلاً :

ولكن ينبغى أن لا نخلط بينها وبين (العلوم الإسلامية) فالعلوم الإسلامية هى علوم التفسير والحديث والفقه وما يتصل بها من دراسات مكملتها ومعينة عليها، وهذه الدراسات لها مكانها الطبيعي فى المعاهد الإسلامية المخصصة لهذه الدراسات، تحيطها ضمانات تصونها من الانحراف وتمنع الانحراف ان يتسرب إليها إن شاء الله) .

(١) يُنظر كتابه (حصوننا مهددة من داخلها) ط المكتب الإسلامى ط ٤ / ١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م بيروت دمشق ويرى الدكتور محمد حسين أن الدراسات الإسلامية تسمية أوروبية ص ٣٠٩ و ص ٣١٣ .

بهذا التوضيح فإننا نضع (الفكر الإسلامى) كفرع من فروع الدراسات الإسلامية بالشروط التى سبقنا إلى وضعها الدكتور محمد حسين، ونضيف إليها الجديد، أى أنه عبارة عن نتاج الفكر الذى تصدى للفلسفات والنظريات الغربية ناقداً لها وواضعاً البديل الإسلامى محلها .

ولكن مهما كانت العلوم التى تدرس بعنوان الدراسات الإسلامية متشعبة ومستوعبة لعلوم الإسلام وعقائده وتاريخه وحضارته، فإنها لكى تؤهل دارسيها لإبداء رأى العلمى الصحيح أو الإفتاء فى المسائل الفقهية، إذا أريد إعداد الدارسين إعداداً يؤهلهم لإبداء الرأى العلمى الصحيح المدعم بالأدلة فى القضايا الإسلامية، لا بد من الدراسة المنهجية المتقنة لعلوم الكتاب والسنة ويصحبها تقوى الله تعالى . .

وهذا هو رأى الدكتور طه جابر العلوانى الذى ينبه إلى أن الأخذ من المصادر - القرآن والسنة - بمبادرات فردية فيه الكثير من المحاذير، ويفصل ذلك بقوله (فلا بد من الاستعداد السابق ثم التزود لذلك بأدواته التى فصلها أهل الاختصاص من معرفة ضوابط الاستنباط وقواعده، وإتقان العربية وأساليب التعبير عنها، ومعرفة علوم الكتاب والسنة والناسخ والمنسوخ، والعام المراد به الخصوص والمطلق والمقيد من المنصوص . . . وهذا النوع من المعرفة لا يمكن تحصيله من خلال قراءة كتاب أو كتابين، بل لا بد من دراسة منهجية متقنة، تضع فى يد الدارس مفاتيح تلك العلوم التى تهيم له سبيل الولوج إلى ساحة الفكر الإسلامى والعلوم الإسلامية وحتى تؤتى تلك الدراسة أكلها لا بد أن تعتمد على البحث المستوفى الذى يقوده الأستاذ المتقن والموجه المجيد ، والناقد البصير ، فى ظل من تقوى الله وابتغاء الأجر منه (١) .

(١) أدب الاختلاف فى الإسلام ص ١٦٠ كتاب الأمة - قطر جمادى الأولى سنة ١٤٠٥ .

والى نفس الرأى يذهب الدكتور محمد حسين :

(فدراسة العلوم الإسلامية تقوم على أوليات لا بد من تحصيلها : حفظ القرآن وإتقان تفسيره وكل ما يتعلق به من أسباب النزول والناسخ والمنسوخ والعام والخاص ، ودراسة الحديث النبوى الشريف وشرحه وما يستنبط منه من أحكام ودراسة الفقه فى أقسامه المختلفة وأبوابه المتعددة ، ومسائل المتشعبة ، فى العقائد و العبادات والمعاملات وأن تقرير هذه القواعد فى المنهج العلمى لهذه العلوم الدينية ضرورة كضرورة اتباع المنهج العلمى فى العلوم التجريبية كالطب والهندسة والزراعة وسائر العلوم المهنية سواء بسواء ، فكما لا يتصور تخريج طبيب أو مهندس بغير إلحاق بكليتى الطب والهندسة ، كذلك لا يتصور أن يفتى أحد فى القضايا العقيدية والفقهية بغير الحصول على ما يؤهله للإفتاء أو إبداء الرأى المدعم بالأسانيد والأدلة .

ونحن نؤيد الدكتور محمد حسين فى رأيه بأنه بدون تحصيل الأسس الأولية فى العلوم الإسلامية السابق الإشارة إليها، فإن الدراسات الإسلامية (ستكون حتماً دراسة متحررة، لأن صاحبها وهو يزعم أنه متخصص فى الدراسات الإسلامية سيفتى بعقله الحرّ من عند نفسه إذا استفتى فى شأن من الشؤون الإسلامية التى لم يسبق له دراستها أو التى درسها منحرفة غير سوية)^(١).

- وسنعرض بالفصل التالى الغزو الثقافى وخططه وآخر مراحلـه وهو (التغريب) .

(١) ينظر كتاب (حصوننا مهددة من داخلها) المكتب الإسلامى ط٤ ١٣٩٧ هـ / ١٩٧٧ م بيروت - دمشق ويرى أن الدراسات الإسلامية تسمية أوروبية ص٣٠٩ / ٣١٣ .

الفصل الثاني

الغزو الثقافي

وخططه

الغزو الثقافي وخططه

لما كان الغزو الثقافي هو الأداة الرئيسية للغرب بعد انحسار الغزو العسكرى، فإننا سنعرض لخططه وتطوراتها :

وإذا كانت خطط الغزو العسكرى تبدأ بفتح الثغرات والنفاذ إلى تحصينات العدو المحكمة، ثم تتقدم بعدها بأسراب الطائرات لذلك الحصون وتفتيت خطوط الدفاع، ثم تأتى قوات المشاة لاحتلال الأرض والسيطرة عليها للتمكين من البقاء . . . فبالمثل تدرجت مراحل الغزو الثقافى على شكل خطوات تدريجية وتنوع واتخذت عدة طرق، ونجحت بعمليات (غسيل المخ) أن تربي أجيالاً جديدة قبلت ما كان يرفضه الآباء والأجداد عندما اصطدموا بالاستعمار، ثم جاءت أجيال جديدة بعد حركات الجهاد . أقل قدرة على المقاومة . .

ويمكن القول أيضاً إن الأسلحة العسكرية والتهديد بغزو الجيوش أصبحا من مخلفات القرون الماضية فى السيطرة وامتلاك النفوذ، وأصبح البديل هو السيطرة السياسية والثقافية والاختراق الإعلامى لعقول الشعوب وهذه الأدوات يملكها الغرب كلها الآن ويحسن استخدامها ولا يلجأ للغزو العسكرى إلا عند الضرورة القصوى، وخير مثال هو حرب الخليج .

وقد اتخذ الغزو الثقافى شتى الأساليب وتدرج على مراحل، ثم أحكم أخيراً قبضته على العالم الإسلامى بواسطة البث الفضائى الرهيب فتحول من احتلال الأراضى إلى احتلال الفضاء للتحكم فى الأفكار والنفوس وتوجيهها كيفما يشاء .

أولاً : خطط الغزو الثقافي :

إن هذه المخططات كما يحصيها الشيخ محمد محمود الصواف - رحمه الله تعالى-^(١) تنضج في الأساليب الآتية :-

١- فتح المدارس الأجنبية: في ديار المسلمين وتكثيرها وتنويعها وإرسال القُسُس والرهبان ليشرفوا على هذه المدارس ويربوا أجيال المسلمين على الولاء لهم.

٢- إرسال البعوث إلى بلاد المسلمين وتكثير الإرساليات التبشيرية لتنتشر مكامن التبشير في كل مكان وتشكك الشباب المسلم في دينه وعقيدته . . ومن وسائلهم فتح المستشفيات والمستوصفات ، ودور التمريض لنفس الغرض^(٢) .

٣- إرسال البعثات إلى ديار الغرب: لينهلوا من ثقافته ويعودوا إلى ديارهم وقد ودعوا هناك دينهم وخلقهم ومبادئهم .

٤- نشر الكتب المفسدة العابثة التي تشغل الشباب عن ثقافتهم الأصلية وتلهيهم بالعبث والخيال الماجن .

٥- السيطرة قدر المستطاع على برامج التعليم في الديار الإسلامية وتوجيه التعليم توجيهاً علمانياً .

٦- نشر المجلات الخليعة والسينمات المسمومة وبرامج التليفزيون المشحونة بما يثير غرائز الشباب ويشغلهم عن التفكير في مصالح أمتهم ومستقبل بنيتهم .

(١) مخطط استعمار العالم الإسلامي طبعة دار الثقافة بمكة المكرمة ١٣٨٤ هـ ١٩٦٥ م .
(٢) ويذكر روبرت كابلان أن الأمريكيين نجحوا في التبشير بالتعليم ، وقد أنشأ دانيال بليس (وهو مبشر) الكلية البروتستانتية في بلاد الشام عام ١٨٥٥ م لتمرير خلاصة القيم الغربية إلى العالم العربي عبر الزمن ثم أصبحت الجامعة الأمريكية في بيروت وأن أول جهد منظم في حركة القومية يمكن إرجاعه إلى عام ١٨٧٥ م عندما قام خمسة شباب تعلموا في هذه الكلية بتشكيل جمعية سرية .
وأصبح غريجوها من الطلبة المسلمين في مواقع القيادة في مجتمعاتهم .
(كتاب الحملة الأمريكية - متعربون وسفراء ورحالة) ترجمة محمد الخولي كتاب الهلال يونيو ١٩٩٦ م صفحات ٧٠ / ٨٢ / ٨٧

٧- فتح نوافذ للحضارة الغربية والثقافة الغربية وتمجيدها والدعاية لها، لينظر منها شباب الإسلام فيقتنى مناهجها وتأخذ مظاهرها الخلابه، فيبدأ بأخذ ثقافتها ويعجب بحضارتها ويحتقر بعد ذلك أمته وبلاده لسوء حاضرها المائل أمام عينيه .

٨- تمجيد وإحياء الحضارات القديمة كالحضارة الفينيقية والحضارة الفرعونية وتسلط الأضواء عليها ، لينبهر بها الشباب المسلم وينسى حضارته الإسلامية الأصلية وقد طمسوا عنه أخبارها ، وشوهوا له حقائقها ، وفتحوا عينيه على حضارتهم وأمجادهم ومدنيتهم الحاضرة .

٩- العمل على إلغاء المحاكم الشرعية والسيطرة على أوقاف المسلمين ونشر القوانين الوضعية ودراستها حتى أنشئت كليات للحقوق في أكثر البلاد الإسلامية تدرس القانون الروماني والقانون الفرنسي وغيرها من القوانين الأجنبية ولا تدرس الشريعة الإسلامية إلا في زاوية من زواياها وهي في الأحوال الشخصية فقط .

١٠- إضعاف سلطان الإسلام في نفوس المسلمين ويعتمد هذا الأسلوب على السخرية بعلماء الدين وتصويرهم بصورة الجامدين الجاهلين تارة ، والمنافقين المستغلين لسلطان وظائفهم تارة أخرى ، وبث الإشاعات ونشر الاتهامات المختلفة حولهم لتقليص نفوذهم وسيطرتهم على نفوس المسلمين .

١١- تشويه حقائق الإسلام ووضع الإسلام في قفص الاتهام والتركيز على القرآن الكريم وتوجيه الهجوم عليه .

١٢- توجيه الأدب والأدباء والصحافة وجهة علمانية لا دينية والسيطرة على دور النشر والتوزيع وإنشاء دور ضخمة للطباعة والنشر والتأليف تتولى نشر ما يريده الاستعمار وترويجه في أوساط المسلمين .

١٣- تشويه التاريخ الإسلامي والتشكيك في حوادثه وإبراز الجوانب الضعيفة أو المؤسفة فيه حتى يتشبع شبابنا بالحق على الإسلام والنفور من تراثهم وتاريخهم .

١٤- إنشاء المذاهب والمبادئ الهدامة كالماسونية والبهائية والقاديانية وغيرها وإشغال المسلمين بها وإخراجهم من دينهم بواسطتها وإنشاء الأحزاب السياسية المتناحرة والمختلفة المبادئ والاتجاهات بزعامات يوجهها رجال من الشرق والغرب .

١٥- إلغاء الخلافة الإسلامية وتفريق كلمة المسلمين وجعلهم أمما وشعوباً مختلفة بعد أن كانوا تحت لواء الخلافة أمة واحدة .

١٦- العمل على إفساد المرأة المسلمة ثم إخراجها باسم الثقافة و الحرية والديمقراطية سافرة ومتبرجة وجعلها أحبولة الفساد ومن ثم تعطيل الأسرة وهي كيان المجتمع الإسلامى .

١٧- محاربة اللغة العربية الأصلية والدعوة إلى العامية لقطع الصلة بين ماضى المسلمين وحاضرهم .

١٨- وضع قدم الاستعمار فى فلسطين فى قلب البلاد الإسلامية بواسطة اليهود^(١) .

ويتحقق آخر صورة من صور الغزو الثقافى فى مجال عرض الغزو الإعلامى الواسع فى إفريقيا إذا أن البث المباشر باللغات الأجنبية هو من أخطر الأسلحة لتوجيه رأى العام، وهو يوظف الكلمات والصور فى صناعة العقل والفكر على مختلف مستويات الحياة فى هذه المجتمعات وهو مؤثر فعال فى تغيير الثقافات واللغات وأساليب التواصل بين المواطنين، ومنظومة القيم والسلوك التى تحكم حياة البشر خاصة الأجيال الجديدة من الطفولة والشباب .

وتوجد دراسات متخصصة فى مجالات الإعلام والاتصال والثقافة تتحدث عن هذه الجوانب، وهى صادرة عن منظمات إقليمية ودولية عديدة بالإضافة إلى مؤلفات وكتابات باللغة العربية وغيرها من اللغات الأخرى .

(١) باختصار من كتاب (مخططات استعمار العالم الإسلامى) . ط دار الثقافة بمكة المكرمة ١٣٨٤هـ - ١٩٦٥م .

خلاصة القول فى العصر الحاضر: الحرب أولها كلام وآخرها كلام وصور.

ونراها بهذه الصورة أشد فتكاً من غيرها من الحروب، بل إن الحرب الكيميائية وحرب الجراثيم وحرب النجوم لا تعادلها فى خطورة جرائمها: فباسم الفن والبث التليفزيونى الحامل للقاذورات والسموم فى قنوات متخصصة من عرى فاضح، وزنا علني، وشذوذ جنسى، وجرائم قتل واغتصاب، كلها تريد دفع شبابنا دفعا للتقليد أو الغرق فى المياة الأسنة للاتصالات الجنسية المحرمة، فيصبح عبداً للشهوات، مبدد القوى، فلا ينهض لعمل منتج، ولا يشور لكرامة، ولا يتحرك لصدد معتد أثيم .

وُلّا حظ أن روافد أو خطط الغزو الثقافى فى الوقت الحاضر تصب فى بئر واحد هو التغريب ، فما هو ؟ وما هى آخر تطوراته ؟

التغريب : التغريب كما يعرفه الدكتور محمد حسين رحمه الله تعالى (يقصد به طبع العرب والمسلمين والشرقيين عامة بطابع الحضارة الغربية والثقافة الغربية، مما يساعد على إيجاد روابط من الود والتفاهم).

ويضيف شرحاً لعمليات التلاعب بالاصطلاحات (وهذا الذى نسميه الاستعباد الغربى (تغريباً) هو ما يسميه سماسرة ذلك الاستعباد وصنائه (تطويراً) وهو ما يعنونه حين يتكلمون عن بناء المجتمع من جديد، ثم يحذرنا من الانسياق وراءهم ماضين فى الهدم (لا يرضيهم إلا أن يأتوا على بنياننا من القواعد، بما يتضمنه من دين وتقاليد وفنون وآداب ولكنهم سوف يعجزون عن البناء سيهدمون مجتمعنا ثم يتركونه وسط أنقاض نظامه القديم فى فوضى لا سكن فيها ولا قرار. ويوادر هذه الفوضى وأعراضها ظاهرة لكل ذى عينين. ذلك لأن المجتمعات لا تبنى فى يوم وليلة، ولكنها فى مئات السنين، ولا تبنى فى صحف منتشرة أو قاعات مغلقة، ولكنها عملية معقدة أشد التعقيد تتفاعل فيها قوى المجتمع

كله، ويستمر هذا التفاعل أجيالاً تتمحور عن هذه القواعد وهذه الأشكال، بما تتضمنه من التقاليد والقوانين وأساليب الذوق والتفكير)

ولشرح آخر مراحل التغريب والقفزات الهائلة التي قفزها حتى وصلنا إلى واقعنا المعاصر فإن ذلك يتطلب عرض موجز لكتاب (تغريب العالم)^(١) الذى يصور لنا آخر مراحل الغزو الثقافى، محدداً وظائف أجهزته، وجنسياتها وأهدافها فى تشكيل رغبات وحاجات المستهلكين وأشكال سلوكهم وعقلياتهم . . يقول مؤلفه:

(ينطلق فيض ثقافى بمعنى فريد من بلدان المركز ويحتاح الكرة الأرضية . .

تتدفق صور، كلمات، قيم أخلاقية، قواعد قانونية، اصطلاحات سياسية، معايير كفاءة، من الوحدات المبدعة على بلدان العالم الثالث من خلال وسائل الإعلام. صحف، إذاعات، تليفزيونات، أفلام، كتب، اسطوانات، فيديو، دس) ويتركز الجانب الأكبر من الإنتاج العالمى للعلامات فى الشمال، أويصنع فى معامل يسيطر عليها حسب معايير ومواصفاته .

ولنلاحظ اعتراف المؤلف للحيوية الطاغية للمجتمعات العالمية التطور التى تحقق كل إبداع ثقافى لدى الأسرى السليبين للرسائل .

(١) تغريب العالم ، سيرج لا توش ، تعريب خليل كلفت . ط دار العالم الثالث بالقاهرة ١٩٩٢ م .

ثانياً : آخر مراحل التغريب ووسائله :

(تغريب العالم) : صدر حديثاً كتاب بهذا العنوان وستعرض الأفكار التي عاجلها الكتاب لأنه يتضمن آخر التطورات التي تفتتت عنها أذهان المخططين للتغريب منذ الحروب الصليبية كهدف رئيسي لها .

إنه يرى أن أروع ما حققه الاستعمار هو مهزلة تصفية الاستعمار ، لقد انتقل البيض إلى الكواليس ، لكنهم لا يزالون مخرجى العرض المسرحي .

ويقصد أحياناً بالتغريب (الاستعمار) وسيادة الرجل الأبيض فإن الهدف من الاستعمار ظل ثابتاً أى التبشير وغزو الأسواق والتزود بالمواد الأولية والبحث عن أراضى جديدة والحاجة إلى الأيدي العاملة .

ويستثنى المؤلف اليابان من سيطرة الرجل الأبيض فيقول (يشكل النجاح الأكيد لليابان ، الذى خلص آسيا من أسطورة الرجل الأبيض ، تحدياً رهيباً لتفوق العرق الأبيض) .

والكتاب بمحتواه ربما يكون أحد أدوات الحرب النفسية إذ يعرض لخطط سحق القوى التى تقاوم حضارة الرجل الأبيض ولهذا يهدف إلى بث اليأس فى قلوب سكان العالم الثالث - ونحن منهم - بإقناعنا بأن العالم تغرب ولا فائدة من المقاومة .

ولكنه فى الوقت نفسه يلقي الضوء على الطريق إلى مستقبل أفضل حيث يتنقل عن غيره من الباحثين حركات نهوض الحضارات المضطهدة ضد حضارة الرجل الأبيض ويرى أن الصراع سيكون طويلاً ومرعباً .

وباستخدام عناصر الامبريالية الثلاثة : (العسكريون ، التجار ، المستشرقون) وضع الغرب يده على الكرة الأرضية نهائياً ففى سنة ١٨٠٠ ميلادية كانت أوروبا تسيطر نظرياً على ٥٥٪ من الكرة الأرضية وتستغل فعلياً ٣٥٪ من مساحتها ،

تحققت الأحلام التي صاحبت تاريخ الغرب (يحلم نابليون بأن يحدو حذو الإسكندر فيزحف على مصر . وباستيلائه على مدينة الجزائر يستأنف شارل العاشر الحرب الصليبية .

أى كانه استأنف مهمة شارل العاشر .

ويحدثنا عن آخر ما وصلت إليه مراحل الغزو الثقافى فيقول تحديداً :

(ينطلق فيض ثقافى بمعنى فريد من بلدان المركز ويحتاح الكرة الأرضية . وسوق المعلومات شبه احتكار لأربع وكالات: أسوشييتدبرس ويوناييتدبرس (الولايات المتحدة) رويتر (بريطانيا) فرانس برس (فرنسا) . ويتدفق ٦٥٪ من المعلومات العالمية من الولايات المتحدة .

وهذا الفيض من المعلومات لا يمكنه إلا أن (يشكل) رغبات وحاجات المستهلكين، أشكال سلوكهم، عقلياتهم، مناهج تعليمهم، أنماط حياتهم) .

وتحت عنوان (تحت راية الصليب) يتساءل المؤلف: هل يمكننا أن نستوعب الغرب فى كيان دينى؟ ويجيب أنه فى كثير من الأحيان يقترن الغرب بنعت المسيحى وأن الهداية بالسيف والإيمان أساس من أسس التوسع الغربى (ولكنه يقرر الواقع فىرى أن حالات دخول الإسلام أكثر عدداً بكثير فى الوقت الحاضر من حالات التنصير وتبدو أكثر صلابة) .

كذلك فإن العالم المسيحى الغربى الكاثولىكى دعم حقاً توسعة الموجه الأولى وحتى الثانية من الاستعمار .

وبعد مقارنات بين اتجاهاى التبشير البروتستانتى والتبشير الكاثولىكى يقرر أن الظاهرة التبشيرية حقيقة أكيدة من حقائق الغرب .

ويقول مؤلف الكتاب بمناسبة النشاط الإحسانى والعقلانى إنه ليس سوى مظهر، ومظهر جذاب للغرب، ثم يعلن رأيه بصراحة (لكننى أعتقد أن الغرب

يتمثل في ذلك أيضاً. وحتى في الوقت الحاضر، ينشأ الجانب الأكبر من مشروعات التنمية كقاعدة في العالم الثالث، على نحو مباشر، تحت راية الصليب).

ويشرح (الخصوصية الغربية)، إذ يرى أن الغرب ليس مجرد كيان ديني، أو أخلاقي، أو عرقي أو حتى اقتصادي، إن الغرب كوحدة تركيبية من هذه التجليات المتباينة كيان (ثقافي) وظاهرة حضارية.

ويرى ضرورة الاتفاق على معنى الألفاظ، ومنها لفظ Cultre (ثقافة، حضارة . . . الخ).

ويقتل بنا إلى تفاصيل كثيرة ويفرقنا باصطلاحات وتعريفات عن أنواع الثقافة، ثم يأتي إلى أهم ما يثير الفزع والرعب من هذه الحضارة عندما نراه يشرح بصراحة لاليس فيها أنه (بحو ثقافة شعوب العالم الثالث يحولها التغريب على هذا النحو إلى جماهير أمية. وتغدو تلك الثقافة إخراجاً من أجل مستهلكين سلبين غرباء على ثقافتهم الخاصة).

ولعل الطريقة السحرية في محو ثقافة العالم الثالث تكمن في عملية التنمية، إذ ربما لأول مرة يعرف أن الثقافة في هذه الحالة ليست بُعداً من أبعاد التنمية، بل إن التنمية هي التي تغدو بالعكس بُعداً من أبعاد (الثقافة الغربية الوحيدة).

ويوافق المؤلف على تعريف الحضارة بأنها :

(الطريقة التي نولد بها، ونحيا، ونحب، ونتزوج، ونفكر، ونؤمن، ونضحك، ونتغذى، ونلبس، ونبنى منازلنا، وننظم حقولنا، ويتصرف بعضنا إزاء بعضنا الآخر).

وعن نظرة الغرب للحياة الدنيا، يحدد المؤلف أولوية هذه الحياة (والواقع أن الغرب، عندما يفك سحر العالم، يجعل من الحياة الدنيوية القيمة الأولى بلا

منازع، وعندما لا يعود المرء يجد الخلود أمامه، تغدو الحياة نضالاً قلقاً ضد الزمن).

ويقر المؤلف أننا الأسبق في التمدين إذ كانت بغداد والقاهرة مدناً ضخمة عندما لم تكن لندن وباريس سوى بلدين ونيويورك غابة عذراء.

ويرى أن أروع نجاحات التغريب في انتشار أدوات السلطة مستدلاً على ذلك بما لاحظته كاستورياديسى بفطنة ثابتة عن تقنيات السلطة، أى تقنيات الخبل الجماعى (هناك مكبر صوت فى كافة القرى يبث خطاب الزعيم، هناك تليفزيون يقدم نفس الأخبار... الخ. وتنتشر هذه التقنيات بسرعة النار فى الهشيم، وقد اجتاحت الأرض بأسرها:

وسرعان ما انتشر ذلك فى كل مكان إن أى أونباشى فى أى بلد من بلدان العالم الثالث يحسن استخدام سيارات الجيب، والرشاشات، والبشر، والتليفزيون، والخطب وكلمات (الاشتراكية) والديمقراطية والثورة وكل هذا، قمنا نحن بمنحه لهم وتلقينه إياهم بسخاء بالغ) .

أى أنها مجرد شعارات ولافتات خادعة قد تخفى الواقع المخالف لها تماماً، وربما لا يسمع الغرب إلا فى نطاق ضيق (المكون الآخر من مكونات مجتمعنا، أى قيم التحرر، الديمقراطية، البحث الحر، الاستقصاء الحر)... الخ .

ويرى أن الطريق المختصر لنشر الحضارة وتحويلها إلى العالمية هو استخدام الشرطة والجيش فيقول (وإذا كان للحضارة أن تختزل إلى الشرطة والجيش، فإن العالمية متحققة إذن منذ الآن) .

ويستخدم المؤلف ألفاظ : التقدم والتنوير والتحديث كمرادفات، ويعرف الحداثة بأنها (مشروع شامل يفسح للاقتصاد مجالاً واسعاً، فى حين أن التنمية ليست فقط سياسة اقتصادية بل هى أيضاً إصلاح للمجتمع بأسره .

وفى سياق التنمية بين بلدان العالم الثالث يعزز من جديد السعى الإلزامى وراء لحاق مستحيل (بالغرب) فى سياق محاكاة معممة .

ويقول (أما وعد الغرب، الوعد بالثروة والرخاء، فيغدو من الناحية الفعلية: الفقر واجتثاث الجذور، والإقصاء وليس هذا بصفة انتقالية، بل بصفة نهائية تزداد تأكيداً على الدوام .

ويمضى فيقرر أن نتائج سير عمل الغرب الفعلى فى سياق عملية تغريب العالم وبأية وسائل يتحقق هذا الاجتثاث للجذور على مستوى الكرة الأرضية .

ويصبح ما هو مطروح على سكان العالم الثالث عند إحلال هويتهم الثقافية المفقودة يتمثل فى هوية قومية مجردة وإنتماء زائف إلى جماعة عالمية .

ويغدو إنسان (الجنوب) مُغَرَّباً بحكم تطلعاته وإحالاته وكثافة ضغط المدينة وأنماط استهلاك المركز على حياته اليومية .

وتحت عنوان (محور الحدود الإقليمية) والتحول القومى الثقافى يبدأ بمقدمة يسجل فيها السذاجة البالغة لنص الميثاق الذى يعلن أن الشركات المتعددة الجنسية لا يجوز لها أن تتدخل فى الشؤون الداخلية للبلدان التى تعمل فيها .

وشرح سذاجة هذه المقولة يقتضى تسجيل حقيقة هذه الشركات عبر القومية التى تخضع لمنطق الربح أكثر من السعى وراء السلطة ، ولكنها فى الواقع تزعم بلا تعمد السلطات القائمة وتخلق على نحو خبيث علاقات ولأء جديدة لحسابها الخاص . . . وتم إحلال أجهزة إدارية محل المؤسسات السياسية وبذلك تفرغ الدولة الأم من جوهرها .

وفيما يتعلق بالثقافة فإن الأمر يبدو أكثر تعقيداً إذ تنجلي دفعة واحدة (إمبريالية) ثقافية غربية وبالأخص المنجلو سكسونية، كذلك تُصنع الثقافة باستخدام وسائل الإعلام (صحف، كتب، اسطوانات، كاسيتات، إذاعات، أفلام،

تليفزيون) يشبه احتكار لبلدان الشمال، وتجري عملية غزو ثقافى للجنوب من جانب الشمال، وداخل الشمال من الولايات المتحدة نحو البلدان الأخرى (ومنها فرنسا) .

ونحو ما يسميه المؤلف (العوامل المباشرة) التى تتجاوز (النزعة القومية)، تشكل التدفقات الإعلامية بواسطة الأقمار الصناعية للاتصالات البعيدة وتقنية معالجة المعلومات بالكمبيوتر - تشكل رغبات وحاجات وأشكال سلوك وعقليات ونظم تعليم وأنماط حياة المتقبلين وينتج عنها فقدان الهوية الثقافية المؤكد، كما يسهم فى زعزعة الهوية القومية سياسياً واقتصادياً، وحتى ما يتبقى من الإبداعية (القومية) يجد نفسه فى حالة تبعية إزاء ثقافة أجنبية .

ويصف أحوال هذا الواقع بقوله (بفضل أروع وسائل النشر الممكنة، يجرى اليوم نشر ثقافة يمكن القول عنها فى أفضل الأحوال أنها غياب للثقافة وتم إنتاجها عشوائياً) .

وبعد الانتهاء من عرض موضوع التغريب بتفصيلاته يأتى المؤلف فى نهاية المطاف فيلقى بهواجسه إذ يخشى على حضارة الغرب من الانهيار ، لأنه يرى فى نجاحها المتواصل فى أعمال التغريب دليل على بقائها كقطب أوحدها أما إذا اعترضتها مقاومة (الأخضر) من دول العالم الثالث فإن هذا يشكل عنده علامة الخطر ببدء تدهور هذه الحضارة .

وتتضح مخاوفه بالذات مما سماه بحركات الهوية الأصولية الإسلامية مثالها الراهن الأكثر نموذجية ، فهو يكتب (والحقيقة أن حركات الهوية التى تعبر عنها الأصولية الإسلامية، مأخوذة ككل، مثالها الراهن الأكثر نموذجية أكثر تعقيداً . ذلك أن الصعود المذهل لهذا التيار لا ينبغى أن يخفى ظواهر أخرى من نفس الطراز، مثل التطرف البرهمانى فى الهند أو مختلف مطالب الهوية مثل صعود

النزعة الإقليمية (حتى فى البلدان العجوزة فى أوروبا) وكافة هذه الحركات أحدثها إخفاق التحديث، وتنتج عن تشويهات ناشئة عن هذا الإخفاق . ذلك أن الجماهير العربية التى يؤثر فيها الإخوان المسلمون والحركات الشيعية فى الوقت الراهن، كانت ناصرية أو بعثية منذ عشرين سنة، أى أنها عقدت آمالها آنذاك على التحديث وأمنت بتواليف ممكنة بين التراث العربى والحداثة . ويسمح بعضها الراهن بتقدير مدى فداحة خيبة أملها) .

ولكنه تجاهل التاريخ الصحيح للأمة الإسلامية بإنكاره أن المجتمعات العربية لم تجعل من الدين فى يوم من الأيام مبدأها الوحيد لتحقيق الهوية الاجتماعية وبالرغم من إطلاقه اسم العصر الذهبى للامبراطوريات العربية الكبرى ولكنه يصفه بالفساد و الهرطقة والزندقة .

ويُزَوِّر التاريخ بقوله (ولم تكن الشريعة الإسلامية فى يوم من الأيام القانون المدنى) منكراً أنها ظلت حاکمة لنحو أربعة عشر قرناً .

وبإشفاقه على عملية التغريب بسبب العائق الدينى - وهو الإسلام - وما يسميه (الرابطه الدينية المجردة ويخص بالذكر الممارسات الدينية الشعبية كالمرابطين) ثم يضع العالمية الغربية فى مواجهة مع عالمية عنيفة وارتدادية تماماً، وبنه إلى أن معاداة الغرب لدى هذا التيار معلنة أكثر مما هى عميقة، ولكنه يعترف بأنه يؤدى وظيفة تدميرية على التغريب ويكتب (ويمكننا أن نقرأ هذه الأعراض لسقوط التغريب، على نحو سلبى تماماً، على أنها الدليل على الإخفاق الكلى للحضارة، لأنه لا يمكن أن تكون هناك حضارة أخرى سوى الغرب) .

أى أن الهدف الحقيقى هو تحطيم غيرها من الحضارات .

ثالثاً : الوجه الآخر لحضارة العصر :

استطاع الفكر الإسلامى فى العصر الحديث مواجهة الحرب الثقافية المعلنه والخفية ، فكشف عن الوجه الحقيقى لحضارة الغرب أمام المفتونين بها - وهم فى الحقيقة ضحايا - كما تصدى للثغرات التى نفذ منها الغزو الثقافى للشخصية الإسلامية كما سيتضح لنا فى هذا البحث .

ولعل أول ملامح الوجه الخفى لحضارة العصر هو التفرقة العنصرية :

فإن الناظر للحضارة الغربية والباحث فى تاريخها أو فى واقعها المعاصرة يصطدم بظاهرة لا يمكن التغاضي عنها وهى التفرقة العنصرية لأنها من ملامحها البارزة كالمرأة القبيحة تعجز عن ستر قبح وجهها حتى لو غطته بالمساحيق وأدوات التجميل المصنعة فإذا ألقيت على وجهها كوباً من الماء لأزال عنه الصبغة وظهر سافراً يثير فى الناظر إليه النفور والاشمئزاز .

ويؤرخ الدكتور إبراهيم مدكور لهذه الظاهرة فيذكر أنها ترجع إلى اليونان إذ اعتمدتها لفلسفتهم وعلى رأسهم أرسطو بالمقولة المشهورة (كل ما وراء أثينا بربر) .

(وجاراهم الرومان الذين كانوا يعتزون بعنصريتهم كل الاعتزاز ، وقد أقاموا عليها تفرقة فى تشريعهم وقوانينهم بين الرومان وغير الرومان . .) إلى أن يقول (وكم قاسى زنوج أمريكا من هذه النظرة العنصرية التى كانت تعدها الكنيسة أمراً واقعاً لا مفر منه ، ولم يخفف من وقعها أخيراً إلا قانون الحقوق المدنية ، الذى ساوى بين البيض والسود ، ولا يزال لهذا الأمر رواسب وذبول فى دولة عظمى لها نظمها وشرائعها .

ويبدو أن هذا التمييز العنصرى جعل العقل الغربى المعاصر أيضاً لا يتصور أن هناك طريقاً غير طريقه ، ولا أساليب سوى أساليبه ، ولم تستطع الحضارة الغربية

الانفتاح على غيرها من الحضارات، طوال تاريخها، وأظهرت دائماً استعدادها للاستغناء عن ما عند الآخر، كان الغير عند الرومان هم البرابرة، وعند الفرنجة هم الشياطين، ولم يستطع العقل الأوروبي في القرنين التاسع عشر والعشرين ان يسبق على سكان المستعمرات سوى وصف (الاهالى) .

وبعقد مقارنة فى قضايا الإنسان والحياة والقيم فى الفكر الإسلامى :

يشرح الدكتور مذكور كيف كرم الله تعالى الإنسان فى القرآن الكريم آيات بينات فى تفضيل الإنسان على غيره من الكائنات ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ وفى شرح الآية يحصى الدكتور إبراهيم مذكور المنازل الدالة على هذا التكريم وبخاصة فى موقف آدم من الملائكة، فهو أكثر علماً، وأعلى منزلة ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ قالوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿ قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ الْغَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ البقرة من الآية ٣١ : ٣٣ . ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ ﴾ فإذا سوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿ الحجر من الآية ٢٨ : ٢٩ .

وأكد القرآن حرمة الإنسان ونادى بحقن الدماء فحرم وأد البنات وقتل الأولاد خشية إملاق، وقرر القصاص والحدود والدية والجزية حقناً للدماء وحقناً للأرواح، ولا يعتدى على ابن آدم بغير حق ولا يعذب ولا يمثل به ولا يعرض لهوان يتنافى وكرامة الإنسان، والحرب والسلم فى ذلك سواء، لا يؤخذ الخصم فى الحرب على غرة، ولا ينكل به، ويعامل الأسير معاملة كريمة، ويستطرد الدكتور مذكور مقارناً بين نماذج القيم الإنسانية التى أشاد بها الإسلام فيتساءل:

(فأين حضارة القرن العشرين من هذا، وفيها تعذيب وتمثيل يعود بنا إلى وحشية القرون الأولى، وكلنا يذكر ما كان يجرى فى معسكرات الاعتقال أثناء الحرب العالمية الماضية، ولا نزال نقرأ ونسمع عما يلجأ إليه من وسائل التنكيل فى بعض السجون والمعتقلات، وقدم لنا العلم الحديث طرقاً وأدوات نستخدمها دون شفقة أو هوادة فى إذلال الإنسان وإهدار كرامته)؟؟ (١) .

أ - مخالفة المذاهب الغربية الحديثة لروح الحضارة الإسلامية :

يُطلق لفظ العصر الحديث عادة على أواخر هذا القرن الذى نعيش فيه فإذا تحدثنا عن عصرنا فنعنى بذلك طبيعة الحياة الإنسانية والنظم السائدة التى تحكمها ثقافياً واقتصادياً ودولياً فما هى طبيعة الحياة فى عصرنا الحاضر ؟

لكى تتبين لنا الإجابة على هذا السؤال، لا بد من التعرض بإيجاز للأنظمة السائدة والتى تحكم أهل العصر الحديث بفلسفتها وخططها وأهدافها وإن أهم تيارين صبغا العصر بصبغتيهما هما التيار الماركسى أو الاشتراكي أو الشيوعى فى روسيا وأوروبا الشرقية الذى استمر نحو سبعين عاماً قبل انهياره سنة ١٩٨٩م، والتيار الديمقراطي الرأسمالى فى أوروبا الغربية والولايات المتحدة الأمريكية .

ولكن الدارس المتعمق لكلا التيارين يقف على الجامع المشترك بينهما أى (النظرية المادية للحياة) فإن كانت اليسارية المتمركزة حول الماركسية تبنت المادية كشعار أيديولوجى فكراً وأسلوباً فالليبرالية الرأسمالية تعيشها حياتياً فعلاً وممارسة، ودونما حاجة لشعار أو غطاء أيديولوجى يبرر سلوكها واحتكارها، هذا من حيث تصور النظامين للحياة الإنسانية (٢) .

(١) فى الفكر الإسلامى - للدكتور إبراهيم مدكور ص ١٦١ سميركو للطباعة والنشر القاهرة سنة ١٩٨٤
(٢) (نظرات إسلامية للإنسان والمجتمع من خلال القرن الرابع عشر الهجرى ص ٧٤ / د/ رشدي فكار - مكتبة وهبة بالقاهرة سنة ١٩٨٠) .

وكان الهدف الثابت للجانبين هو السيطرة على دول العالم الثالث ومنها دول العالم الإسلامي، كل ذلك يتم وراء سمات وشعارات براقة معلنة أمثال:

مفهوم الحرية، مفهوم التطور، مفهوم الأمن والسلام .

بينما التطبيق على أرض الواقع والتعامل مع الشعوب مغاير لها تماماً لذلك فلا نخدعنا الشعارات البراقة المتغيرة حسب الظروف والأحوال، وكلها تحمل لافتات جذابة كالضياء التي تجذب الفراش ويكون فيها مقتله .

فمثلاً كان الماركسيون يعلنون أنهم أنصار الشعوب الصغيرة في التنمية والرخاء والتطور والحرية والاستقلال بينما معاملاتهم تهدف إلى النقيض من هذه المدركات، فهي في الواقع مجرد شعارات جوفاء حيث إنه ظهرت الحقائق لتدوَّى في آذان المخدوعين عقب انهيار الاتحاد السوفيتي .

ويرفع الليبراليون شعار (الحرية) وهي في قاموسهم تعنى تخلى الشعوب عن ارادتها ورضاءها بما يفرضون عليها من توجيهات .

أما مفهوم التطور وهو أشد جاذبية، فيعنى ان تتجرد الشعوب في جميع مساراتها السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والفكرية عن كل تاريخها وتراثها الحضارى وأصالتها العقيدية والقومية والوطنية (١) .

كذلك ترددت ألفاظ على نمط التطور تبدو في ظاهرها متباعدة ولكنها في الحقيقة متشابهة المضمون كما سيتضح بعد قليل كالتحديث والتقدم والعصرية، ويقصد بها مجازاة العصر المتغرب وصياغة حياتنا وفق مفاهيمه وأساليبه، وعندئذ لابد أن يُجابه العصريون بسؤال ضرورى يحتاج إلى إجابة وهو: هل معنى هذا أن نلقى وراء ظهورنا بتراثنا ؟ وننزح عن أنفسنا رداء الهوية ؟

(١) (مجتمعنا المعاصر والطريق إلى الإسلام ص ١٠٣ نور عالم خليل الأميني - ط دار الصحوة بمصر سنة ١٩٨٨) .

وإذا كانت الإجابة بالنفي قطعاً إذا أردنا المحافظة على ذاتية الأمة الإسلامية والإبقاء على هويتها، فإننا نرى أيضاً أن إثارة الشك حول إمكان جمع الفكر الإسلامى بين الأصالة والعصرية معاً يحمل بين طياته دلالة التشكيك فى مقدرة الأمة على الاستمرار فى أداء رسالتها، وإلا، فكيف عاشت طوال القرون الماضية وكانت حضارتها مكتسحة ومتفوقة فاستوعبت ثقافات أمم أخرى، بل قاومت ألواناً من الغزو الاستعماري ربما كان أشد وأعتى مما تعانيه الأمة فى السنين الأخيرة؟!

ويلاحظ إن اتجاهاً عاماً ظهر بين علمائنا وقادة الفكر فينا فى العصر الحديث لصدّ الطارئ الدخيل من ألوان الثقافات والاتجاهات الفلسفية الوافدة مع الاستعمار الغربى ووقفوا بعناد محذرين ومنذرين .

وربما يعتبرهم البعض أنهم (كانوا محافظين أكثر من اللازم) - ولكننا نجد لهم بعض العذر الآن بعد انزلاق الأمة فى تيار التقليد، فقد حذروا وأنذروا بدافع من حرصهم الشديد على ضرورة المحافظة على الأصالة والوعى بالذات، وكانت نظرتهم أكثر صواباً من نظرية التحديث على النمط الغربى وخلاصته أن السبيل إلى الرقى هو الأخذ بالحضارة الأوربية خيرها وشرها، حلوها ومرها وما يحمد منها وما يعاب !

وبصرف النظر عن مضمون الفكرة عند التنفيذ لأنها تؤدى إلى (الفناء فى حضارة أخرى)، فإن ذلك يستحيل تحقيقه ، لأن (لكل حضارة روحاً خاصة بها تظهر فى وجوه المدنية العديدة وهذه الروح يمكن أن تضعف ، ولكنها لا يمكن أن تموت) (١) .

(١) تفسير التاريخ ص ٢٩ عبد الحميد صديقى ترجمة د/ كاظم الجوادى ط دار القلم الكويت ١٤٠٠ هـ .

وكانت حضارتنا (نائمة) بتعبير توينبي فيلسوف التاريخ حينذاك، ولكن النائم لابد أن يستيقظ والمخلصون من أبناء الأمة يفضلون إيقاظها والعمل على إنعاشها لتدب الحركة في فكرها وتنشط من جديد بدلاً من (إفنائها) في حضارة أخرى، أو تحولها إلى تابع ذليل، كالعبد الذي يرضى سيده بتقديم التضحيات تلو الأخرى، ولكن السيد يأبى إلا المزيد .

هذه الصورة التقريبية سجلها الشيخ/ مصطفى صبري في معرض حديثه عن علاقة الشرق بالغرب في العصر الحديث فقال (ولكن أين ذلك من الغرب الذي يعمه في طغيانه ويريد أن يخرج الشرق المسلم من دينه ومعجزات نبيه - ﷺ - تزلفاً إليه، وهيهات لا يرضيه إلا التنازل عن الشطر الباقي أيضاً) (١) .

خدعة التحديث :

ولم يكن الشيخ - رحمه الله تعالى - ملهماً بقدر ما كان واعياً بحقيقة المعركة بين الأصالة وما يسمى بالتحديث - وهو في حقيقته التغريب أو (التفرنج) وكان الشيخ أحمد شاعر أيضاً رحمه الله - من علمائنا الذين عارضوا موجة التأويل ليتفق الإسلام مع العصر فوصف المتأولين لآيات القرآن بقوله (فمن تناول آياته غير مؤمن به، يريد أن يفسرها على غير ما هي عليه بصريح اللفظ في كلام العرب، حتى يوافق ما آمن به، أو ما أشربته نفسه، من عقائد أوروبية ووثنيها وإلحادها أو يقرّبها إلى عاداتهم وآدابهم - إن كانت لهم آداب - ليجعل الإسلام ديناً عصرياً في نظره ونظر ساداته الذين ارتضع لبانهم، أو ربيّ في أحضانهم) (٢)

(١) (القول الفصل بين الذين يؤمنون بالغيب والذين لا يؤمنون ص ٨٨ ط دار السلام - القاهرة - حلب - بيروت سنة ١٩٨٦) .

(٢) (ص ٥ من كتاب (كلمة الحق) ط دار الكتب السلفية بالقاهرة ١٤٠٧ هـ .

والآن، بعد انقضاء السنوات الطوال على بداية المعركة، بدأت تظهر بعض الحقائق التي كانت تدور وراء الكواليس الاستشراقية والسياسية الأوربية .
ولندع برنارد لويس يتكلم مفصلاً عن بعض ما كنا نجهله، ولكنه يطابق توقعات الشيخ مصطفى صبري بحذاقها :

يجيب برنارد لويس على السؤال (ما هي نتيجة عملية التغريب) ؟
فيقول :

(وهذا سؤال يجدر بنا نحن الغربيين أن نوجهه لأنفسنا ، لقد كانت عادتنا التي تعودناها في العالم الغربي هي : كلما اتجه الشرقيون إلينا كلما ازداد تمسكنا بالغرب لنجعل أنفسنا مثالاً للفضيلة والتقدم فإذا تشبهوا بنا عددنا ذلك أمراً حسناً ، وإذا لم يكونوا كذلك عددنا ذلك سوءاً أو شراً .

فالتقدم هو في التشبه بنا أما إذا لم يقتدوا بنا فذلك هو التقهقر والاضمحلال !! إلا أن الأمر ليس كذلك بالضرورة ، فعندما تصطم مدنيتان تسيطر إحداهما وتتحطم الأخرى .

ينبرى المثاليون والمفكرون فيتحدثون بطلاقة وسهولة عن تزاوج بين أحسن العناصر من المدينتين ، إلا أن النتيجة العادية في هذا التلاقى هي تعايش بين أسوأ العناصر من الإثنين)^(١) .

ويرى جارودي أن مفهوم (التحديث) غلب عليه مفهوم الاقتداء بالغرب، ويرى ان إقحام الاحتياجات الغربية في حياة المسلم قادته لأن يصبح غريباً عن نفسه وذريته وتاريخه ومستقبله . أم ما اقترح على العالم العربي الإسلامي ليتخذ طابع الحداثة هو أن يمر بالمراحل ذاتها التي اجتازتها أوروبا منذ أربعة قرون . وأن يعتبر ماضي الآخرين على أنه مستقبل له^(٢) .

(١) (الغرب والشرق الأوسط ص ٥٦ ، ٥٧ تعريب د. نبيل صبحي (كتاب المختار) بالقاهرة .

(٢) ص ١٨٣ من كتاب (الإسلام دين المستقبل) ترجمة عبد المجيد بارودي ط دار الإيمان بيروت - دمشق ١٩٨٣ م) .

ومن هنا ظهرت قضية التوفيق بين التراث والعصرية والحق أن ما واجهته الأمة فى العصر الحديث لم يكن كارثة من نوع جديد، بل سبق أن واجهت من الكوارث ما هو أشد قوة وخطراً، ولنتذكر حروب الفرس والروم فى بداية عصر الإسلام كما واجهت الاكتساح التتارى وأنقذت منه نفسها والعالم معها، وانتهت الحروب الصليبية لصالحها بعد كر وفر دام نحو قرنين من الزمان .

التوفيق بين التراث والعصرية والتحذير منه :

نعود إلى الملاحظة الجديرة بالتنويه : إنه لم يظهر فى تاريخنا قط هذا التوقف وهذا التساؤل: هل نمضى قدماً متابعة واستمراراً لحركة تاريخنا الفياض بالمواقع تلو المواقع التى تحقق فيها النصر لأننا تشبنا بعقيدتنا وأفكارنا وتراثنا الحضارى الإسلام أو نتوقف حائرين باحثين عن أيهما نفضل الاستمسك بالتراث الذى انبثقت منه العقائد والأفكار أم مجارة العصر الذى نعيشه؟

وعندما يطلق لفظ (التراث) على التناج العلمي والثقافي الإسلامى فإنما بغرض بث بذور التشكيك فى قيمة ومدى قدرته على الارتقاء بالأمة من جديد بعد عصور الاستعمار والقهر والتبعية !

ويدور أصحاب هذا الاتجاه على المطالبة (بفرز) التراث لإبقاء ما يصلح منه للعصر واستبعاد غيره .

فإلى أي مدى يمكن تطبيق هذا الرأس الغريب ؟

هل يقصد به القرآن والسنة ، أم العبادات وأهمها الصلاة ، أم نظمه التشريعية الراقية ، أم قيمه الأخلاقية الثابتة ، أم عقائده وأفكاره ؟

ولا بد منذ البداية - حتى لا تختلط المدركات والمفاهيم - أن نحدد التعريف الموجز للإسلام كدين ومنهج حياة ، أو دين وحضارة وليس مجرد تراث كغيره من تراث البشر القابل للفرز والتنقية، وبهذا التحديد ليس الإسلام (ديناً خالصاً وإنما هو نظام اجتماعي كامل، وإنه ليس مجموعاً من الطقوس والعبادات يتقرب بها الإنسان لربه - عز وجل - وإنما هو مجموع من القواعد والأنظمة التي يستطيع الناس أن يعيشوا بمقتضاها، ومن هنا كان الإسلام حضارة كاملة ونظاماً جامعاً، استطاع أن يمد بلاد الشرق بكل مقومات الدول وأساليب السياسة والحياة والتشريع والحضارة مدى بضعة قرون^(١) . ويقول الدكتور حسين مؤنس في كتابه (الإسلام حضارة) وحيث أن الإسلام في ذاته حضارة لا قاعدة حضارية كما يقولون - فهو دين الجماعة ودين الأمة والأمة هي التي تطبق الدين وتحفظه وترعاه وهي التي تنشره بين الناس^(٢) .

فما المقصود إذن عن البحث في (التراث)؟ أو وضعه مقابل (العصرية) إن تراثنا يختلف عن تراث أية أمة أخرى لأنه ميراث النبوة ويتسم بالحيوية والخلود لأن مصدره الوحي الإلهي ، لا قرائح البشر ، وإن كان لعلمائنا - علماء الحديث والأصول والفقه - من دور، فهو فقط المحافظة عليه نقياً خالصاً حتى لا تختلط به (البدع) التي هي من صنع البشر، أو تفسيره

(١) (الشرق الأوسط في العصر الحديث ، د / حسين مؤنس ط المكتبة التجارية بمصر سنة ١٩٣٨ م)

(٢) (الإسلام حضارة ط ١١١ ط الدار السعودية - جدة ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م) .

وشرحه لعامة المسلمين .

والتراث بهذا التحديد لا يقتصر على الماضى التاريخى ولكنه باق إلى قيام الساعة^(١) ولا يحتاج إلى (إعادة نظر) أو (فرز وتدقيق) لأن علماءنا قد استكملوا الفحص بأدق المناهج العلمية المعترف بها، لا سيما علوم مصطلح الحديث وأصول الفقه، وبما وضعوه من شروط للتفسير والاجتهاد والإفتاء، مع بقاء الوحي الإلهى بالكتاب والسنة لم تمسه يد بشر بتحريف أو تصبغه بالصبغة البشرية .

وإذا استعرضنا أغلب البحوث التى تلقى وتناقش عادة فى ندوات (الأصالة والمعاصرة)، أو على صفحات الجرائد والمجلات، رأيناها تهتم بمناقشة موضوعات عدة من أبرزها بحث الصلة بين (التراث والعصرية)، والمقارنة بين الحضارتين الإسلامية والغربية، والإجابة المطلوبة من الفكر الإسلامى على السؤال المطروح بالشكل الآتى (ماذا تأخذ وماذا ندع من الحضارة المعاصرة؟)

وهكذا تتشابك الموضوعات وتتداعى الإيحاءات، فيُلحق بها أشباهها كالبحث فى التراث :

ما هو طبيعته ؟ . وهل يُقصد به التقاليد والعادات والأعراف ، ومن ثم فقد أدت دورها ولا حاجة للعمل بها فى عصرنا ؟ أو ما الذى نستبقيه صالحاً للعصر ؟

(١) يفسر الأصفهاني الحديث (أنا معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة) بأن ما تركه الأنبياء هو العلم وهو صدقة تشترك فيها الأمة ، وما روى عنه عليه الصلاة والسلام من قوله (العلماء ورثة الأنبياء) فإشارة إلى ما ورثوه من العلم (المفردات فى غريب القرآن - ص ٥١٩ تحقيق محمد سعيد كيلانى ط الحلبى ١٣٨١ هـ ١٩٦١ م) .

وربما كانت أهم الندوات التى عقدت لهذا الغرض تلك الندوة الكبرى التى عقدت بالبحرين (١٤٠٥هـ - ١٩٨٥ م) لمناقشة (اتجاهات الفكر الإسلامى المعاصر) وتحدد هدفها بأنه البحث فى الأعماق (عن الطريق الجديد الذى يمكن أن نستبطن معالمة من خلال مسيرتنا الحضارية عبر هذه الحركات التى تنظم العالم الإسلامى فالمستقبل هو الهدف، وليس مجرد الوقوف - إيجابياً وسلباً - على أطلال الماضى القريب أو البعيد، بل لابد أن يتعاقب هذا الماضى القريب أو البعيد، لابد أن يتعاقب هذا الماضى مع الحاضر ويدفعه إلى الأمام صوب أهدافه المستقبلية المحددة، مستفيداً من التجارب الحية^(١) .

ولكن مما يلفت نظر المتابع لأراء المتفرجين أن خلفياتهم الثقافية ورواسب افكارهم (الجاهزة) المتتقاء من الفكر الفلسفى خاصة، أدت إلى حجب الرؤية السليمة لعقائد الإسلام وآفاقه . ويصعب على هؤلاء فعلاً إصدار أحكام صائبة على الإسلام لأنهم مقيدون بأفكار، ومتشبعون بنظريات يتعذر عليهم التحرر منها وقبول أفكار ونظريات مغايرة، اللهم إلا اذا انطلقوا بعيداً عنها وأعادوا البحث والتمحيص للتراث العلمى الهائل الذى تركه علماء المسلمين المخطوط منها والمنشور (مع العلم بأن المخطوطات التى تركها لنا علماؤنا تقدر بنحو نصف مليون مخطوطة لم ينشر منه أكثر من الخمس)^(٢) .

(١) (من مقدمة الندوة بقلم د. محمد الأحمد الرشيد ص ٩-١٠ ندوة اتجاهات الفكر الإسلامى المعاصر البحرين ٣-٦ ١٩٩٥/٢/٢٥ مكتبة التربية العربية لدول الخليج ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م) .

(٢) (سلوك المالك فى تدبير الممالك ج ١ ص ١١٣ د/حامد ربيع مطبعة الشعب بالقاهرة) .

تفوق التراث الإسلامي على ثقافة العصر

ونحن ندعو إلى دراسة الذخائر والنفائس التي تركها لنا علماؤنا في مجالات العلوم الإنسانية خاصة كالنفس والتربية والاجتماع والسياسة والاقتصاد، وأهميتها مستمدة من ثلاثة عناصر :

١- أنها بمثابة الحصون التي تصون عقائدنا وعبادتنا وشرائعنا وقيمنا الأخلاقية وتعبّر عن الاستقلال والذاتية لثقافة الأمة وأنظمتها .

٢- أنها تتفوق على ثقافة العصر وفلسفاته .

٣- أننا بإحياء هذا التراث والعمل به نصبح مؤهلين للتأثر في العصر - لا التأثر به - أى التقدم للأخذ بيد الإنسانية لأن الإسلام دين الإنسانية ولا يقتصر على شعب أو قوم .

ولا وجه للعجب في هذا لأن أزمة العصر الحديث تحتاج إلى حل من خارج ثقافته وخبرته وتاريخه ونظمه، وهذا ما يقصده جارودى عند حديثه عن الدروس المستفادة من الإسلام .

وتحت عنوان (ما الذى يجب أن نتعلمه من الإسلام فى الوقت الحاضر) ؟

يلقى جارودى علينا بعض الدروس نذكر منها :

إقصاء الأصنام الحديثة فى مجتمعات الغرب كصنم النمو والتطور والتقنية والفردية والقومية وقوة السلاح والجيش وكل منها يحمل محرّماته ورموزه المقدسة وطقوسه (ويؤكد الإسلام رفضه لهذه الأصنام بقوله : لا إله إلا الله والله أكبر)^(١) .

(١) الإسلام دين المستقبل ص ١٨٩ ،

تعديل موقفنا فى التعامل مع الطبيعة، فبدلاً من الروح العدائية التى دأبنا عليها منذ عصر النهضة، علينا أن نتعلم من الإسلام كيف حمل الإنسان مسئولية الحفاظ على توازن العالم - لا تدميره - فبدلاً من استهلاك احتياطات الطاقة الجوفية بشكل عشوائي، دون أن نحسب حساباً للأجيال اللاحقة، ولا للأهداف الانسانية الشاملة، يعلمنا هذا التفكير أن نعود إلى نبع الطاقة الذى لا ينضب، المتمثل بالمياه والبحار والشمس والأرض والرياح^(١). ويستشهد جارودى بالآيتين ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ (٧٢ : الأحزاب) .

كما يشير أيضاً تولي الإنسان منصب (خليفة الله على الأرض) وربما يقصد قوله تعالى ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ (٣٠ : البقرة) .

ولكن لا بد من الإحتياط فى تفسير آية الخلافة والتقيد بالشروط التى وضعها العلماء، إذ ليست الخلافة منوطة بالإنسان على إطلاقه، بل محددة - كما فسرها الطبرى بآدم - عليه السلام (ومن قام مقامه فى طاعة الله والحكم بالعدل بين خلقه، وأما الإفساد وسفك الدماء بغير حقها فمن غير خلفائه، ومن غير آدم ومن قام مقامه فى عبادة الله) .

كذلك يشفق أرنولد توينبى على حضارة العصر الحديث من خطرين داهمين : أحدهما : نفسى وهو التمييز العنصرى، والثانى : مادى وهو شرب الخمر، ويرى أنه إذا سمح للفكر الإسلامى أن يؤدى دوره فسيبرهن عن قيم اجتماعية وأخلاقية سامية .

(١) الإسلام دين المستقبل ص ١٨٩ ،

(فعدم وجود التمييز العنصرى بين المسلمين هوأحد أبرز الإنجازات الأخلاقية للإسلام، والعالم المعاصر فى وضعه الراهن بحاجة ماسة لنشر هذه الفضيلة الإسلامية ^(١) .

وفى مجال التشريعات وإصدار القوانين، يظهر سمو الشريعة الإسلامية بمقارنتها بالقوانين الوضعية فإذا كانت المجتمعات الإنسانية تأخذ فى صياغة القوانين كلما دعت الحاجة، ثم الاضطرار لإجراء التعديلات والتنقيحات على أثر التطبيقات وظهور الثغرات، واستفحال الأخطاء فإن الشريعة فى الإسلام تتميز بالكمال والاحاطة بكل ما تحتاج اليه المجتمعات فى معاملاتها، وقد أكد الإمام الشافعى هذه الحقيقة، وخلاصتها (أن نصوص الشريعة وافية بحكم كل ما يقع من الحوادث ويجبر من الوقائع، فليست هناك واقعة إلا وفيها نص من كتاب أو سنة يستدل به على حكم الله فيها . غير أن هذا الحكم قد يؤخذ من لفظ النص ، أو من معقوله بطريق القياس . يقول الشافعى (ليست تنزل بأحد من أهل دين الله نازلة إلا وفى كتاب الله الدليل على سبيل الهدى فيها) ^(٢) .

وتفسير ذلك بشكل مجمل أن خط ارتقاء إصدار القوانين والتشريعات بواسطة علماء القانون وفقهائه يتجه - بعد التجارب تلو التجارب وضياح السنين والأجيال - يتجه إلى مرتبة الشريعة الإسلامية التى استقرت عليه فى مكانتها السامية منذ نحو أربعة عشر قرناً .

(١) (الإسلام والغرب والمستقبل - ص ٦٢ ترجمة د/ نبيل صبحى ط دار العربية - بيروت ١٣٨٩هـ - ١٩٦٩م) .
(٢) (نظرية المصلحة فى الفقه الإسلامى ٣١٢ للدكتور حسين حامد حسان مكتبة المتنبي بالقاهرة سنة ١٩٨١م ونص الإمام الشافعى من كتابه (الرسالة) .

وإذا كان لابد من كلمة نوجهها للمتشككين فى إمكانية الشريعة الإسلامية للوفاء بحاجات العصر الحديث فإننا نسوق لهم رأى أحد اساتذة القانون المدنى المقارن بجامعة باريس الذى أثبت (إمكان الاستعاضة عن القوانين المدنية الاشتراكية بقانون ستالين الصادر فى روسيا سنة ١٩٣٧ ولم يفته وهو يهودى فرنسى أن يقول : إن هذين المتناقضين : قانون ستالين (الذى احتوى جميع القوانين الاشتراكية) وقانون نابليون (الذى احتوى جميع قوانين أوروبا وأمريكا) لا يمكن لقانون على ظهر الأرض أن يقارب بينهما، ويمكنه أن يحل محلها سوى القواعد العامة والكتليات الأساسية بالشرع الإسلامى)^(١)



(١) (الإسلام ومشكلات العصر) ص ٩ الدكتور مصطفى الرافعى دار الكتاب اللبنانى - بيروت سنة ١٩٨١) .

القيمة الثالثة

مواجهة الفكر الإسلامي

للفكر والثقافة

صلة التقدم التكنولوجى بالارتقاء الحضارى :

إذا وصف العصر الحديث بأنه عصر التقدم التكنولوجى والوصول إلى القمر واستخدام الكمبيوتر، فلا صلة له بما نحن بصدره ولا يدخل فى صميم قضيتنا، فإن المسلم المعاصر يستخدم أدوات العصر وآلاته، ولا أظن أن هناك خلافاً فى وجوب ذلك وضرورته، بل ان دراسة العلوم التجريبية الحديثة فروض الكفاية ونحن نلاحظ أن الغرب يضمن علينا بأسرارها بينما يصدر إلينا آدابه وفنونه الهابطة .

وإذا عبّرنا عن العصر بلغة مفسرى التاريخ والحضارات ، فإن التقدم التكنولوجى وحده لا يعبر عن ارتقاء حضارى :

يقول جود (أنظر إلى الطائرة التى يدوى صوتها وهى تخترق السماء الصافية فى الصيف، لقد تضافرت فى صنعها معرفة الإنسان بالرياضيات وعلم الحركة والآليات، ومعرفته بالكهرباء والاحتراق الداخلى وعبقريته فى تطبيق المعرفة، ومهارته فى صنع الخشب والمعادن . . . إلخ أما الآن فانظر إلى الغرض الذى من أجله استخدمت الطائرة الحديثة والذى يبدو أنها ستظل تستخدم من أجله بازدياد، إنه إلقاء القنابل التى تدمر وتخنق وتحرق وتسمم وتقطع اوصال أناس عُزل)^(١) .

ومن هنا ظهرت إحدى مآسى الإنسان فى العصر الحديث بسبب الانفصام بين عالم الروح وعالم المادة، وكأنه - رأى الإنسان - هو والعالم حوله مجرد مادة بلا روح أو بلا نفس لها أشواقها وتطلعاتها، بينما العامل النفسى والوجدانى فى الإنسان فى حاجة إلى اشباع من لون خاص - وهى تختلف

(١) - A guide to modern wickedness, Joad . 263 . 262 نقلاً عن تفسير

التاريخ، عبد الحميد صديق ص ١٢

نوعاً وكماً عن مجرد الإشباع المادى !

لقد فقد الإنسان (الشعور بالهدف الذاتى) وأصبحت هذه الحضارة المتقدمة (تتج عوالم انحطاطية أكثر خلال الملل وفقدان الهدف .

وأصبح العصر الحديث فى رأى كولن ولسن (عصر اللامعنى) ففقدان المعنى والهدف يجثم على أدبنا وفنوننا، هذا الشعور العام بأن التأكيدات التى يمنحها الدين قد ضاعت ولا يمكننا استبدالها، فتحليل العلم للمشكلات العلمية يزيد فى اتساع هوة الفراغ المؤلم، ومن خلال هذا تبدو الثقافة الغربية تعاني الانهيار والانتكاس لما لا يقل عن مائة سنة، إذ إن الأمر ليس إلا مسألة تفكير فى معرفة المدة التى تستمر فيها قبل أن يلتهمها الإفلاس الماحق)

وربما كان هذا الرأى معنأ فى التشاؤم، ولكنه يعنى لو نزعنا منه الغلو فى التشاؤم، يعنى أن مرحلة الانحدار مستمرة، ولم تعد الثقافة هناك تمثل عناصر التفوق التى ظنت أنها ستمتلكها إلى الأبد، وسنعرض فيما يلي للرأى الناقد لحضارة العصر مع تقديم البديل فى ضوء العقائد الإسلامية :-

أ- الآثار السلبية للفلسفة المعاصرة :

ويضيق المقام عن الإسهاب فى تناول المذاهب الفلسفية الغربية، غير أن الذى يعيننا هو إذا كان من محاسن الفلاسفة الذين يقرون بالميتافيزيقا (أى ما وراء الطبيعة) إنما أقرروا (بوجود الله سبحانه، وحدوث العالم، وحرية الإرادة وخلود القيم التى من أجلها عاش الإنسان وجاهد)^(١) فإن هؤلاء ممكن دعوتهم بالحكمة والموعظة الحسنة إلى الإقرار بالمبادئ العقلية والبراهين المنطقية ليتحول تصورهم للميتافيزيقيا من تصورات ذهنية وخيالات مبهمة إلى معرفة عالم موجود حقيقى ونظمه الفائقة فى عظمتها وجلالها، المتضمنة لتفاصيل

(١) مع الفيلسوف د / محمد ثابت الفندى ص ٢٧٢ دار النهضة العربية - بيروت ١٩٨٠م.

العالم الآخر (ونعنى بذلك كله عالم الغيب وفق العقيدة الإسلامية) .
ولكن ما الحيلة فى مذاهب الوضعيين المنطقيين الراضين لكل ما هو غير
مادى محسوس وخاضع للتجربة ؟!

ونخشى أن يصل بهم الأمر إلى إنكار وجودهم أنفسهم ، أوهم كما
وصفوا بحق أنهم أهل (اللا فلسفة المعاصرة) ! ^(١)

كذلك فإن لنا مواقفنا المستمدة من عقائدنا وأفكارنا الجلية الواضحة فتغنيا
عن أن نلهث وراء أمثال سارتر والوجوديين - كما يُراد لنا بحجة العصرية
والتحديث بغير وعى بذاتنا وثقافتنا، بل لمجرد معايشة العصر ومتابعته !

إن أى مسلم عارف بدينه يسخر سخريه لازدعة من أقوال سارتر وعباراته ،
ومنها مثلاً (كل موجود يولد من غير داع ، ويمتد وجوده فى ضعف ،
ويموت صدفة) !

أو (الموجود يوجد من غير داع ، وبلا سبب ، وبدون ضرورة) !
فإذا ألقينا على عامة المسلمين - فضلاً عن خاصتهم - مثل هذه العبارات
فإنهم بلا شك سينفرون منها، بل سيطوِّحون بها بعيداً لأن ثقافتهم الإسلامية
توضح الحكمة من الوجود وتضفى عليه معنى وتعرف له غاية .

ونضيف أن قضايا الفلسفة المعاصرة هى نفسها القضايا التى كانت مثارة
فى عصر الفيلسوف اليونانى أفلاطون ٤٣٨ ق.م وهذا ما يؤكد ديورانت فى
كتابه (قصة الفلسفة) حيث يشير إلى كتاب (الجمهورية) لأفلاطون ثم
يطرح القضايا التى بحثها، وهى نفسها المطروحة بواسطة الفلاسفة المعاصرون
(فهنا - فى الجمهورية - سنجد ميتافيزياه، ولاهوته، وأخلاقه الوضعية،

(١) السابق ص ٢٥٩ .

وعلم نفسه وعلم تربيته، وسياسته، ونظريته فى الفن، وهنا سنجد قضايا تفوح منها رائحة العصرية ولها مذاق معاصر: سنجد الشيوعية والاشتراكية، الحركة النسائية وتحديد النسل وتحسينه، وستطالعنا قضايا نيتشة، الأخلاق والأرستقراطية، وقضيتا روسو، العودة إلى الطبيعة، والتربية الانعتاقية، وقضية بيرغسون، الابتداع الحيوى، والتحليل النفسى لفرويد، كل شئ موجود هنا^(١)

أما أرسطو الذى ظل طويلاً المعلم الأول ثم اختفى فى الفلسفة الحديثة فقد عاد فى فرنسا والمجلترا ليأخذ حظه من الدراسة، بسبب فلسفته فى الوجود، أو نظرياته المنطقية .

صحيح أن ذلك يجرى فى نطاق الاتصال بالفلسفة القديمة لتجديدها (أو لتجديد الاتصال بها لفهمها فى ضوء جديد)^(٢) إلا انه يدل على التشبث بثقافتهم ، والحرص على الاتصال بمنابعها والفخر بالماضى التاريخى ، ومع هذا لا يوصفون (بالرجعية)!

ويدل أيضاً أنه لا جديد تحت الشمس، ولكن حركة دائرية فى حلقة مفرغة فلا تتقدم إلى الأمام لحل معضلات الإنسان أو الارتقاء به وتحقيق سعادته .

لا مخرج إذن إلا بالاهتداء بالوحي المنزل الذى خُصت أممتنا بتعاليمه الأخيرة الكفيلة بتحقيق الحياة الطيبة فى الدنيا والسعادة فى الآخرة . وهنا لا بد من التأكيد أن أوروبا لم تخلع عنها دينها كما يوهننا بذلك المتغربون بل ما زالت محتفظة بمسيحياتها كعامل من عوامل التميز والمحافظة على الهوية

(١) قصة الفلسفة - ويل ديورانت ص ٧٣ ترجمة أحمد الشيبان - منشورات المكتبة الأهلية بيروت ١٩٦٥ .

(٢) مع الفيلسوف - د. ألفندى ص ٤٥ / ٤٦ .

نشأت عليه الأجيال هناك، فلا عجب أن يصف الأستاذ/ أحمد بهاء الدين الحضارة الغربية بالمسيحية، إذ مازال هناك حزب في إيطاليا اسمه الديمقراطية المسيحي، وفي ألمانيا وفي فرنسا حيث قبل ديجول كذلك الأمريكيان الذين هاجروا إلى أمريكا كانوا متدينين ومن أسباب هجرتهم الاضطهاد الديني، ورئيس الجمهورية في أمريكا يحرص جداً أن يُصور كل يوم أحد عند ذهابه إلى الكنيسة^(١) كذلك لا تُعادي العلمانية الدين في الغرب كما سنوضحه بالباب الثاني من هذا الكتاب .

ب - حقيقة العلاقة بين الإسلام والفلسفة :

يرى المسلم المزود بحصيلة الفكر الإسلامي أن في المعارف والعلوم المستمدة من كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ ما يُغنيه عن الالتجاء إلى أية فلسفات وثقافات أخرى من تصورات البشر، هي أقرب إلى التخمينات منها إلى الحقائق والوقائع الصحيحة، وعندئذ تُثار مسألة الصلة بين الإسلام والفلسفة :

ويرى أنه أول ما يجب تحديده قبل تقرير نتيجة البحث هو التمييز بين تعريفيين :
أحدهما: تعريف الفلسفة بأنها نتاج ثقافي غربي يمتد منذ الأجداد اليونان إلى العصر الحديث .

والثاني: أساليب العقل المنطقية التي يعتمد عليها الإنسان في الإدراك

(١) (ص ٢٣٣/٢٣٢ من كتاب (الإسلام في مواجهة العصر وتحدياته أو تعقيب على ندوة الأهرام في ٧-٤-١٩٧٢م عبد الكريم الخطيب ط دار الفكر العربي ربيع الأول ١٣٩٢هـ مايو ١٩٧٢) . ومازالت الخطوط تمضي قدماً في الغرب نحو الحرص على إضفاء الطابع المسيحي عليه ثقافياً وسياسياً، ومما يذكر في هذا الصدد أن أحد ساسة هولندا وصف الاتحاد الأوروبي بأنه (نادي مسيحي) كمبرر لرفض تركيا الانضمام إليه، وهنا أيضاً حركة مسيحية أصولية يمينية في أمريكا بقيادة يهودية صهيونية تطرح نفسها على أنها حركة صليبية جديدة ويدعي المنتمون إلى جماعة السيادة العسكرية لهيكل أورشليم أنهم فرسان (ينحدرون روحياً من الصليبيين الذين حاربوا الكفار ؟؟؟) .
فهمني هويدي (حين ترد تركيا بالتحالف مع واشنطن وإسرائيل)
• الشرق الأوسط ٩٧/١٢/٢٢ ص ٩ .
• حلیم بركات (مواسم الأعياد في أمريكا : أصولية مسيحية بقيادة يهودية) الحياة ١٩٩٨/١/٧ ص ١٧ .

والفهم والاستنباط وغير ذلك من العمليات الذهنية .

ولا ينبغي الخلط بين التعريفين ونضيف هاهنا أيضاً ما اقترحناه من قبل بكتابنا (الإسلام والمذاهب الفلسفية) بضرورة اتخاذ منهج آخر في الدراسة، وقلنا هناك :

(فقد آلبنا على أنفسنا الالتزام بالمنهج المقارن والإطلال على الفلسفات من نافذة واسعة، تتسع لرؤية شاملة لتاريخ وحضارات الأمم بدلاً من النافذة الضيقة التي ألجأنا إليها المستشرقون في عهد مضى وانقضى - لكي نضطر إلى الدخول في دائرة الصيغة الضيقة التي وضعوها في شكل سؤال اصطنعوه اصطناعاً وهو :

(هل في الإسلام فلسفة)؟ أو هل استطاع المسلمون إبداع فلسفة ؟

ونقول: إنهم اصطنعوا هذا السؤال اصطناعاً لأنهم صاغوه وفق ثقافتهم ونظرتهم المتعالية المعتزة بالعنصر الآري دون غيره من أجناس البشر، وكانوا يقصدون بالفلسفة، التفلسف على نمط فلسفتهم الغربية، أو فلسفة أجدادهم اليونان بوجه خاص .

إن السؤال الصحيح في هذا الغرض ينبغي صياغته في شكل آخر مخالف تماماً: وهو هل الإسلام يخاطب (العقل) ويأتى بالبراهين الدالة على كماله أم لا ؟ (١)

ونضيف بأن استخدام المنهج المفروض علينا يعد لونا من (الاستقطاب الفكرى) (يعرف الأستاذ/ جمال سلطان (الاستقطاب الفكرى) بأنه ارتباط فاعلتنا الحضارية في شقها الفكرى بالإداعى بالطرح الاستشراقى لقضايا

(١) مقدمة كتابنا (الإسلام والمذاهب الفلسفية) ط دار الدعوة بالأسكندرية ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ .

ومشكلات الفكر الإسلامى ويؤدى فى النهاية إلى قولبة قضية الإسلام، من خلال القوالب المنهجية والفكرية، التى صاغها الفكر الأوروبى، فتصبح «دراسة الإسلام» عبارة عن (ملحقات) أوروبا بالضبط - تذييلات فكرية على القضايا التى يفجرها العقل الأوروبى الذى يهدف إلى مسح الهوية وفرض التبعية (١).

ولا يقتصر الأمر على ضرورة تغيير منهج دراسة الفكر الفلسفى بل ينبغى اتباع ذلك فى باقى العلوم الانسانية - كالاقتصاد والسياسة والنفس والأخلاق والتربية - بدلاً من استخدام المناهج الغربية، فإن الاستقلال بالمنهج أصبح ضرورياً بعد تجاربنا مع الغرب حيث أخضع هذه العلوم لمقاييسه وقيمه الخاصة، ثم النظر إلينا من موقع الاستعلاء حيث يضعون النموذج الأوروبى فى قمة التطور وإعطائه الصبغة النموذجية المثالية (٢).

ويلفت نظرنا الدكتور عبد الوهاب إلى حقيقة أخرى ربما غابت عن الكثيرين، وهى ان علماء الاجتماع الفرنسيين جعلوا منه باباً من أهم ابواب (العلوم الاستعمارية) فمن حيث موضوعه ينظر إلى مشاكل المجتمعات المستولى عليها ومن حيث أهدافه حيث كان يخدم مصالح الامبراطورية الفرنسية (ص ١٤٤) ويعلل الباحث نشأته إلى ما اتضح للاستعمار من ان الشعوب الإسلامية المغلوبة المهزومة عسكرياً لم تخضع ذهنياً وعقلياً لسيطرة الغرب عليها، بل اتجهت تبحت فى ثقافتها ماضياً وحاضراً عن مقومات

(١) (ينظر مقاله القيم بعنوان (الاستقطاب الفكرى ومأزق الإرث الاستشرافى) بمجلة منار الإسلام - قطر جمادى الآخر ١٤٠٩ هـ الموافق ١١ يناير ١٩٨٩ م من ص ٩٥ إلى ص ١٠٠).

(٢) (من مقال (الحياة الاجتماعية كما صورها بعض المستشرقين) ص ١٥٥ للدكتور عبد الوهاب أبو حديبة كتاب مناهج المستشرقين فى الدراسات العربية الإسلامية الجزء الثانى - ط مكتب التربية العربى لدول الخليج الرياض ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥).

لتجابه خطر الاحتلال، وعندئذ يضع (رينى مونى) مشروعاً باسم (على الاجتماع الجزائرى) للتعرف على حياة الشعوب الجزائرية . ص ١٤٢-١٤٣ وشهادة الدكتور عبد الوهاب لها وزنها لأنه من كبار المتخصصين فى هذا الشأن حيث يعمل مديراً لمركز الدراسات والأبحاث الاقتصادية والاجتماعية بتونس) .

ج - مفهوم الدين فى الفكر الإسلامى:

يُلاحظ على نظريات المثقفين المحدثين المتأثرين بثقافة الغرب أنهم حصروا انفسهم فى دائرة المباحث الفلسفية وانساقها سواء فى أصلها اليونانى القديم أو الأوروبى الحديث ، كما اعتادوا - بسبب مناهج التعليم التى أسسها المستشرقون وتلاميذهم - اعتادوا صبغ الإسلام بالصبغة الثقافية الغربية التى تفصل بين الدين والحياة، أو الدين والأحكام العقلية، والدين والنظريات العلمية ومن ثم أصبح مفهوم الدين عندهم مجرد لون من الثقافة كغيره من ألوان الثقافة الأخرى من العلوم والآداب والفنون، والتدين مجرد علاقة تربط بين العبد وربّه، وعما دها القلب والعاطفة ولا دور للعقل وأحكامه فيه، ولا صلة بالحياة الإنسانية الاجتماعية أو الاقتصادية أو السياسية !

ويصحح الفكر الإسلامى هذه النظرة الخاطئة مبيناً الإسلام - كما عرّفه البعض من غير المسلمين - يحتوى على كل شامل إذا حللنا عناصره، سنعثر فى النهاية على عقيدة وشريعة ونظم وأخلاق تجمع بين النظر والعمل فى دائرة واسعة تضم الفرد والمجتمع والأمة: يقول د/ فيليب حتى (الإسلام منهج حياة، وهو - بهذا النظر - يتألف من ثلاثة جوانب أساسية: الجانب الدينى والجانب السياسى والجانب الثقافى. هذه الجوانب الثلاثة تتشابك وتتفاعل، وربما انقلب بعضها إلى بعض مرة بعد مرة من غير أن نلاحظ ذلك)^(١)

(١) (الإسلام منهج حياة ص ٩ ترجمة د/ عمر فروخ ط دار العلم للملايين سنة ١٩٨٣)

ويتضح من هذا التعريف صفة (الشمول) التى تكمن فيها فاعلية الإسلام وقوته المنيعه بالرغم مما تلقاه من ضربات كما يرى الأستاذ العقاد حيث صابر الكوارث والشدائد (زهاء تسعة قرون، ولم يزل بعدها «وحدة إنسانية» هائلة تتخذ مكانها بين هيئات الأمم - ولا تزال - على أمل وثيق فى المزيد^(١)

وربما يقصد تجاوز الإسلام للحدود الضيقة للجنس واللغة والبيئة وارتفاعه إلى مستوى (إنما المؤمنون أخوة) .

وتتضح الميزة الثانية للإسلام بأنه (عقيدة شاملة لأنها تشمل النفس الإنسانية بجمليتها من عقل وروح وضمير)^(٢)

ونعود إلى بيان الفجوة العميقة فى فهم بعض المستغربين للإسلام، إذ يتضح فهمهم له على غلط العقيدة النصرانية المؤدية إلى إقامة بعض العبادات والشعائر ثم ممارسة الحياة الفردية والاجتماعية والسياسية وفق النظريات والمذاهب الوضعية .

وهنا مفترق الطرق بين الإسلام وغيره، وكان الفيلسوف جارودى على وعى بأخص ما ينفرد به الإسلام، لأنه (الاستسلام والخضوع لإرادة الله عز وجل وعلى هذا المفهوم فكل ما فى الوجود هو خاضع ومستسلم لله فالأشجار فى نموها والحيوانات فى توالدها والأحجار فى ركودها مسلمة أى خاضعة لقوانين الله، لكن بدون إرادة منها. أما الإنسان فهو الوحيد الذى يملك الاختيار فى أن يختار الإسلام أو يرفضه، فهو بذلك يتحمل المسؤولية الكاملة).^(٣)

(١) الإسلام فى القرن العشرين، حاضره ومستقبله ص ٣٢ .

(٢) الإسلام فى القرن العشرين، حاضره ومستقبله - عباس العقاد .

(٣) الإسلام دين المستقبل، جارودى . .

فما هي مكانة الإنسان ومبدؤه ومصيره في العقيدة الإسلامية ؟
سنوجز الإجابة على هذا السؤال بعد إعطاء فكرة عن تفرد الثقافة
الإسلامية من حيث العقائد والمعارف، ومن حيث العبادات والسلوك ، وهي
مغايرة تماماً لثقافة العصر الحديث .

د - التعريف بالعقائد الإسلامية:

عاجلت كتب العقائد الإسلامية كل ما يدور حولها إجمالاً وتفصيلاً ،
وأسهبت في شرح كافة مسائلها واستوعبت الإجابات على ما يدور في
الذهن من تساؤلات واستفسارات عن عالمي الغيب والشهادة بحيث لم تترك
زيادة لمستزيد .

وإن استطلاع فهارس أحد هذه الكتب ليحمل المرء على الاقتناع بصحة ما
نقرره، إذ تتضمن التوحيد وصفات الله عز وجل وأسماءه الحسنى وأفعاله ،
والرسالة وإثبات نبوة نبينا محمد ﷺ ، والقرآن كلام الله عز وجل ، الإيمان
بالقدر وأفعال العباد ومسؤوليتهم عن أفعالهم ، وبيان الكبائر ومرتكبيها
والحكم عليهم ، والإيمان وزيادته بالطاعات ونقصانه بالمعاصي ، والملائكة
والجن وصفاتهم وأفعالهم ، وأشراط الساعة وأماراتها وأحداث يوم القيامة
ووصف كل ما سيجري فيها ، الجنة ونعيمها والنار وعذابها ، إلى جانب بيان
فضائل الصحابة وإثبات الكرامات ، ومناقشة المخالفين في العقائد ، وغير ذلك
من أمهات المسائل التي لا غنى عن معرفتها ، وهي معروضة وفق منهج
علمي قائم على استعراض الأدلة ، وتتفقد آراء المخالفين بموضوعة ومناقشتها
بمنهج جدلي يقوم على التمهيد ويهدف إلى الإقناع بمخاطبة العقول
والأفهام .

فكيف مع هذا كله يُراد من المسلمين التحول من عقائدهم بواحاتها
الفسيحة وآفاقها الرحبة التي ينفردون بها إلى ثقافات غيرهم من الأمم
ومتابعاتها، بأفكارها المحدودة وتصوراتها الضيقة المصطبغة بالوثنيات ؟

بل كيف يُعقل من أتباع خاتم الأنبياء صلى الله عليه وسلم اتباع فلاسفة
اليونان والتابعين لهم من المعاصرين الجاهلين بحقائق الألوهية بل الإنسانية؟
أولئك الذين خبطوا خبط عشواء فيما يتعلق بذات الله وصفاته، - كما
يصفهم الإمام الندوى - (وكان عمادهم فى ذلك الظن والتخمين، والحرص
والترجيح دون استناد إلى توجيه سديد وإشراق مستقيمة ﴿مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ
عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾، ولا تقل فلسفتهم والهيئاتهم التي دونها حكماءهم
وفلاسفتهم طرافة وخرافة عن أساطير الشرق والأعيان وأعاجيبها، وقد تلمع
فى أقوال سقراط وأفلاطون - دون أرسطو - وتعليمات فلاسفة الأخلاق
إثارة من تعاليم الأنبياء لمعان البراعة فى الليلة المطيرة الشاتية، مما يدل على أن
تعاليم الأنبياء قد طرقت آذانهم فى حين من الأحيان، لكن هذا النور لم يكن
من السطوع والثبات بحيث يمكنهم أن يعولوا عليه فى دياجير الحياة ﴿كُلَّمَا
أُضَاءَ لَهُمْ مَشْأَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا﴾ (البقرة/ ٢٠).^(١)

(١) (الاسلام فى عالم متغير، للإمام/ أبى الحسن الندوى ص ٧١ مكتبة الحياة - بيروت -
١٤٠٠ هـ / ١٩٨٠ م) .

هـ - الإنسان : مكانته ومبدؤه ومصيره فى العقيدة الإسلامية :

يرى المتدبر للقرآن الكريم عنايته بالإنسان بالحديث عن أصل خلقه وأطواره والحكمة من خلقه ومصيره فى الآخرة. كذلك أمره ونهيه وبيان الحلال والحرام وتعريفه بربه عز وجل وتحذيره من عداوة الشيطان، إلى غير ذلك من عظام الأمور التى تتناول الإنسان من كافة الجوانب .

وما يدعو للاهتمام فيما نحن بصدده التعريف ببداية الخلق وبيان القرآن الحكيم لأصل الفطرة وطبيعتها وإن الإنسان خلق عارفاً لربه تعالى موحداً إياه عزوجل، كذلك تلفت الآيات القرآنية فى سور شتى أنظارنا الى أصل خلق الإنسان لنقف على هذه الحقيقة المذهلة، وهى كوننا مخلوقين من نطفة فعلقه فمضغة وما بعدها . . ثم الموت والنشأة الآخرة .

ومن هذه الآيات ما ورد فى سورة (المؤمنون) : قال تعالى ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ﴿ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ ﴾ .

ألا يدعونا ذلك إلى التفكير والتدبر، ثم يصبح رادعاً ووازعاً عن التكبر، ومن ثم ينبغى على الإنسان أن يسلك السلوك المتوافق مع حقيقته كمخلوق مصنوع مريبوب، فيخضع مختاراً لربه عز وجل فى حياته كلها، ويستخدم قدراته ومواهبه العقلية والجسمية فيما خلق من أجله فستحقق سعادته وسعادة المجتمع الإنسانى كله؟

وهذه فى الحقيقة هى مهمة الأمة الإسلامية على مدى العصور، كانت تؤديها

عندما كانت مقاليد الأمور بيدها ، وهي مطالبة باستردادها لاستئناف دورها من جديد ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ .

كذلك نلاحظ أيضاً نداء القرآن الكريم للانسان ﴿ يَا بَنِي آدَمَ ﴾ لتذكيره بفطرته - والميثاق ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴾ أو تقولوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴾ .

وإنه مخلوق مريبوب ، خلق بعد أن لم يكن ، وأنه في حاجة دائماً إلى ربه عز وجل ، حيث إنه سبحانه هو الذي أنعم عليه بالحياة ابتداءً بالخلق ، وهو الذي يمهّد بالنعم التي تجعل حياته باقية ، وممتعة .

﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ ﴾ أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ ﴿ نَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴾ عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَى فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ ﴿ أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴾ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿ إِنَّمَا لَمُغْرَمُونَ ﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ﴾ أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ ﴿ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴾ ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ ﴾ أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ ﴾ .

وتتميز هذه الآيات القرآنية بأنها لا تخاطب العقل وحده أو العاطفة وحدها ولكنها موجهة إليهما معاً فتؤدي إلى الاقتناع العقلي وتغذي العاطفة والروح معاً لمن أزاح عن نفسه قيود التقليد للثقافات الأخرى !

إننا إذن نفرد كأمة إسلامية بتصوراتنا الخاصة ، وفي كتب العقائد ما يشبع

تطلعات القارئ إلى معرفة الإجابة على كل ما يدور في خلدته من تساؤلات .
ولضيق المقام ، ولعدم الخروج عن غرض هذا الكتاب ، نكتفى بإعطاء القارئ
فكرة موجزة مستمدة من أحد علمائنا - وهو الراغب الأصفهاني (٤٠٢هـ) الذي
انكب على القرآن الحكيم مستقرئاً دورة حياة الإنسان المتكاملة .

و - الغرض من خلق الإنسان ووظيفة العبادة في حياته :

يرى الراغب الأصفهاني استناداً إلى الآيات القرآنية أن للإنسان ثلاثة أفعال
تختص به وهي :

١- عمارة الأرض المذكورة في قوله تعالى ﴿وَأَسْتَعْمِرْكُمْ فِيهَا﴾ لتحصيل المعاش
لنفسه ولغيره .

٢- خلافته عز وجل المذكورة في قوله تعالى ﴿وَيَسْتَخْلِفْكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرْ
كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾

٣- عبادته المذكورة في قوله ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ أى
الامتثال لله سبحانه وتعالى في عبادته وفى أوامره ونواهيه .

ويعيننا توضيح معنى العبادة - بصفة خاصة - لما لها من صلة بالفطرة الإنسانية
التي خلق بها بنو آدم ، ثم معرفة وظيفتها وحاجتنا إليها :

إن العبادة هي (فعل اختياري مناف للشهوات البدنية تصدر عن نية يُراد بها
التقرب إلى الله تعالى طاعة للشرعية) أما دورها فهو المحافظة على الفطرة التي
خلق بها الإنسان المشار إليه بقوله تعالى : ﴿فَطَرَتِ اللَّهُ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا
تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ .

وهذا التعريف العام للعبادة يحتاج تفصيل لبيان حاجة الإنسان الماسة إليها، إذ
إنه في الحقيقة (كائن عبد) لا يستطيع الانفكاك من عبودته فلما أن يعبد ربه
عز وجل فتتحقق كرامته وحريته الحقيقية لأنه حينئذ لا يخضع أو يذل إلا لخالقه

عز وجل وإما إنه يتخذ إلهه هواه ويصير عبداً لشهواته وأسيراً لها ولغيره من البشر فيظل يتجرع كؤوس الهوان وتلقفه شياطين الجن والانس من كل جانب فتضطرب حياته بل تُسدّ في وجهه مسالكها ويأخذ في التخبط لا يدرى كيف يسير وإلى أين يتجه .

فإذا قدمنا شرحاً مختصراً عن وظائف الصلاة مثلاً في الدنيا ، فبغرض إثبات أنها - وغيرها من العبادات في الإسلام - ، لها معانيها ومقاصدها وضرورتها اللازمة للمسلم على مدى العصور (فهي ليست من قبيل التقاليد والعادات على ما يظهر لمن لم يطلع على التراث الإسلامى) .

كذلك فإن علماءنا بحثوها بعقول متفتحة وقلوب واعية ، وخلاصة ما ذهبوا إليه أنها تذكر الانسان أولاً بعبوديته لله تعالى - لا لغيره - ، ثم توقظ في وعيه ثانياً أن الحياة الحقيقية الخالدة هي حياة الآخرة في الجنة حيث يجد هناك - بفضل الله وكرمه ورحمته - حصاد ما زرعه هنا ، وهي ثالثاً سلاحه القوي في معركته مع الشيطان عدوّه اللدود ، أى لها فوائد أخروية وفوائد دنيوية .

وستختار نموذجين من آراء العلماء ، أحدهما لوحيد الدين خان - أحد العلماء التجريبيين المعاصرين بالهند - وهو يصور لنا طرفاً من هذه الغايات بقوله (فالسعى فوراً إلى الصلاة - أى عندما يرتفع صوت حى على الصلاة إنما هو إعلان وإظهار على أن الانسان يعطى المقام الأول في حياته لله فقط ، ومن لم يفعل هكذا فهو كمن يعلن أنه يشرك مع الله أشياء أخرى ، فهو إما أن يكون ضحية للبلادة وعدم الإحساس ، وإما أنه ضحية لمشاغل أخرى احتلت في حياته المقام الذى يجب ان يعطيه الله - تعالى - أساساً)^(١) .

(١) (الإنسان القرآنى ص ٣٧ ترجمة د/ سمير عبد الحميد إبراهيم - دار الصحوة بمصر ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٥) . ص ٧٥

وفى شرح الحديث الذى رواه مسلم (من صلى صلاة الصبح فهو فى ذمة الله فلا يطلبنكم الله من ذمته بشئ، فإنه من يطلبه من ذمته بشئ يدركه ثم يكبه على وجهه فى نار جهنم)، يرى وحيد الدين خان أن المسلم حين يلبى نداء صلاة الفجر فيذهب ليؤديها فى بيت من بيوت الله، فإنه بهذا السلوك (يعلم عن نيته فى أنه سيبذل كل جهوده وسيقضى أوقاته فى سبيل تحقيق النجاح والفلاح فى الآخرة، وأنه سوف يقضى يومه فى عبادة الله ومن لم يجب النداء الإلهى فإنما يسلم نفسه للشيطان عدو الإنسان) ^(١) ويصور المسلم الذى لا يصلى صلاة الصبح فى جماعة بأنه وضع نفسه فى الخطر الذى توعدّه الله به وهو أن يخلع الله عنه رداء عونه ومساعدته ولن يبقى له أى ملاذ أو ملجأ إلا أن يجد نفسه يواجه الشيطان بمفرده .

ثم نورد ثانياً بيان أحد علمائنا المعرفين فى علم (أصول الفقه) :

يقول الشاطبى (فالصلاة مثلاً أصل مشروعيتها الخضوع لله سبحانه بإخلاص التوجه إليه ، والانتصاب على قدم الذلة والصغار بين يديه ، وتذكير النفس بالذكر له . قال تعالى ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴾ وقال ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ وفى الحديث (إن المصلّى يناجى ربه) ثم إن لها مقاصد تابعة، كالنهى عن الفحشاء والمنكر، والاستراحة اليها من انكاد الدنيا، فى الخير (أرحنا بها يا بلال)، وفى الصحيح (وجعلت قرّة عيني فى الصلاة) وطلب الرزق بها، قال الله تعالى ﴿ وَأَمْرٌ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقاً ﴾ وفى الحديث تفسير هذا المعنى .

وروى عن النبى ﷺ (أنه كان إذا اضطّر أهله إلى فضل الله ورزقه أمرهم

(١) السابق ص ٣٨ .

بالصلاة) لأجل هذه الآية، فهذه صلاة يستمنح بها من عند الله .

وإنجاح الحاجات كصلاة الاستخارة وصلاة الحاجة وطلب الفوز بالجنة والنجاة من النار، وهي الفائدة العامة الخالصة.

وكون المصلي في خفارة الله، ففي الحديث (من صلى الصبح لم يزل في ذمة الله) ونيل شرف المنازل، قال تعالى ﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴾ فأعطى بقيام الليل المقام المحمود.

وفي الصيام سد مسالك الشيطان والدخول من باب الريان، والاستعانة على التحصن في العزبة، وفي الحديث (من استطاع منكم الباءة فليتزوج) ثم قال (ومن لم يستطع عليه بالصوم فإنه له وجاء) وقال (الصيام جنة) وقال (ومن كان من أهل الصيام دعى من باب الريان).

وكذلك سائر العبادات فيها فوائد أخروية وهي العامة، وفوائد دنيوية وهي كلها تابعة للفائدة الأصلية، وهي الانقياد والخضوع لله كما تقدم (١، ٢).

أما عن مصير الإنسان فإن الراغب يرى أن الإنسان في دنياه مسافر، ويتخذ الدليل على ذلك من قصة الخلق إذ قال الله تعالى ﴿ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ البقرة : ٣٦، مستشهداً بتفسير على بن أبي طالب - عليه السلام - (الناس على سفر والدنيا دار عمر لا دار مقر، وبطن أمه

(١) (الموافقات في أصول الشريعة لأبي إسحق الشاطبي المجلد ٢ ص ٧٩٠ دار المعرفة للطباعة والنشر - بيروت) .

(٢) وينظر كتاب (الأركان الأربعة) للعلامة أبي الحسن الندوي حيث شرح المعاني الدينية والمقاصد الشرعية للعبادات (ط دار القلم - الكويت) في غير خضوع للفلسفات السياسية والمذاهب الاقتصادية والوجاهية السائدة هادفاً إلى تكوين المزاج الاسلامي النبوي، والحصر على استمساك الأمة بذاتيتها .

مبدأ سفره والآخره مقصده وزمان حياته مقدار مسافته وسنوه منازل، وشهوده فراسخه، وأيامه أمياله، وأنفاسه خطاياه، يُسَاد به سير السفينة براكبها) .

فالعناية للإنسان ينبغي أن تكون دار السلام، ويحتاج في حياته إلى التزود للسفر، وهو في كدح وكبد ما لم يستت إلى دار القرار كما قال تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ ﴾ .

إن الحكيم الأصفهاني يصور الإنسان في حركة دائمة ساعياً نحو غايته، فهو على سفر، ومقصده الآخره حيث تتحقق له السعادة الدائمة، فالحديث (سافروا تغنموا) يحث على التحريك الذي يثمر جنة المأوى ومصاحبة الملائكة إلى ومجاورة الله تعالى وكلها أسمى الغايات ولكن الإنسان في سعيه هذا يحتاج إلى خمسة أشياء: معرفة المعبود المشار إليه بقوله (ففروا إلى الله) ومعرفة الطريق المشار إليه ﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ ﴾ وتحصيل الزاد المتبلغ به المشار إليه بقوله ﴿ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى ﴾، والمجاهدة في الوصول كما قال تعالى ﴿ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ ﴾ وبهذه الأشياء يأمن الإنسان الغرور الذي خوفه الله تعالى منه في قوله ﴿ وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴾^(١).

وهكذا عكف علماؤنا على نصوص الوحي تفسيراً وتحليلاً، فنجحوا في اجتياز حواجز العقل الوضعي وحدوده - وهي من أكبر آفات الثقافة الغربية المعاصرة - لكي يستمدوا من عالم الغيب حقائق الحياة بشطريها: الدنيوية والأخروية.

فهل آن لنا الاسترشاد بتفسيراتهم لتتقننا من الخضوع لآثار الغزو الثقافي؛ وآفة الفلسفة الوضعية التجريبية، وسجن الفكر المادي ؟

(١) (الراغب الأصفهاني: الذريعة إلى مكارم الشريعة) .

تقتضى الإجابة على هذا السؤال تحليلاً أوسع لطبيعة كل من العقلية الغيبية والعقلية العلمية:

ز - العقلية العلمية والعقلية الغيبية:

عرض الإمام حسن البنا لهذه القضية من منظور إسلامي يجمع بين التمكن من الفكر الإسلامي وبين معرفة اتجاهات الفلسفة الغربية الحديثة وتصوراتها للحياة والعالم والإنسان.

لقد عرضها بمنهج مقارن شارحاً العلاقة بين العقلية الغيبية والعقلية العلمية، مستعرضاً الأطوار الثلاثة من ألوان التفكير للعقل البشري، داعياً إلى لون من التفكير الجامع بين العقليتين الغيبية والعلمية حيث تجمعهما معاً العقائد الإسلامية. ونحن نقتبس تحليله الدقيق بنصه خشية فقد بعض معانيه أو أفكاره. إنه كتب يقول:

لقد تذبذب العقل البشري منذ وجد الإنسان على ظهر الأرض إلى يومه هذا وأغلب الظن كذلك حتى تتداركه هداية من الله - بين أطوار ثلاثة ، وإن شئت قلت بين ألوان ثلاثة من ألوان التفكير والتصوير.

١- طور الخرافة والبساطة والتسليم المطلق للغيب المجهول والقوى الخفية البعيدة عنه. فهو ينسب إليها كل شيء ويفسر بها كل شيء. ولا يرى لنفسه معها عملاً ولا فكراً ما استبد هذا الطور بالإنسان، وأكثرهم لا يزالون يعيشون على هذا النحو إلى الآن.

٢- وطور الجمود والمادية والتكرار لهذا الغيب المجهول، والخروج على هذه القوى البعيدة عن حس الإنسان والتمرد على كل ما يتصل إليها بسبب، ومحاولة تفسير مظاهر الكون جميعاً محاولة مادية صرفه وفق قوانين تجريبية اهتدى إليها الإنسان بطول تجاربه ودوام بحثه وتفكيره .

وكثيراً ما طغى هذا التفكير على العقل الإنسانى فى هذه العصور الحديثة، التى وصل فيها الإنسان إلى الكشف عن كثير من مجهولات الطبيعة، وعرف فيها الكثير من خواص الكائنات، فظن أنه واصل لا محالة بهذا الأسلوب إلى معرفة ما هناك، وإن كان الذى يعرفه بالنسبة إلى ما يجهله كالذرة من الرمال فى الحياة الواسعة الفسيحة.

وفى هذا الدور أنكر الإنسان المادى الألوهية وما يتصل بها والنبوات وما يمت إليها والآخرة والجزاء والعالم الروحى بكل ما فيه، ولم ير شيئاً إلا هذا العالم الأدنى المحدود يفسر ظواهره بحسب قوانينه المادية الصرفة.

كلا هذين اللونين من ألوان التفكير خطأ صريح وغلو فاحش وجهالة من الإنسان بما يحيط به، ولقد جاء الإسلام الحنيف يفصل القضية فصلاً حقاً، فيقرر حق العالم الروحى ويوضح صلة الإنسان بالله رب الكائنات جميعاً وبالحياة الآخرة بعد هذه الحياة الدنيا، ويجعل الإيمان بالله أساس صلاح النفس التى هى من عالم الروح فعلاً والتى لا سبيل إلى صلاحها إلا بهذا الإيمان، ويصف ذلك العالم الغيبى المجهول وصفاً يقربه إلى الأذهان ولا يتنافى مع بديهات العقول، وهو مع هذا يقرر فضل هذا العالم المادى وما فيه من خير للناس لو عمروه بالحق وانتفعوا به فى حدود الخير، ويدعو إلى النظر السليم فى ملكوت السموات والأرض، ويعتبر هذا النظر أقرب إلى معرفة الله العلى الكبير. هذا الموقف من الإسلام الحنيف ألزم العقل البشرى لوناً من ألوان التفكير، هو أكملها وأتمها وأكثرها انطباقاً على واقع الحياة ومنطق الكون، وأعظمها نفعاً لبنى الإنسان: ذلك هو الجمع بين الإيمان بالغيب والانتفاع بالعقل. فنحن نعيش فى عالمين فعلاً لا فى عالم واحد، ونحن عاجزون عن تفسير كثير من ظواهر الكون فعلاً، عاجزون عن إدراك كل الحقائق الأولية التى تحيط بنا. ونحن فى إدراكها ننتقل من مجهول إلى

مجهول حتى ينتهى بنا العجز إلى الإقرار بعظمة الله، ونحن نشعر من أعماق قلوبنا بعاطفة الإيمان قوية مشبوبة، لأن الإيمان من فطرة نفوسنا وهو لها ضرورة من ضرورات حياتها كالغذاء والهواء والماء للأجسام سواء بسواء. ونحن بعد ذلك نلمس أن هذا المجتمع الإنسانى لن يصلحه إلا اعتقاد روحى يبعث فى النفوس ومراقبة الله والتعزى بمعرفته، ومن هنا كان لازماً على الناس أن يعودوا إلى الإيمان بالله وبالنبوات وبالروح وبالحياة الآخرة، وبالجزاء فيها على الأعمال ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ الزلزلة.

كل هذا فى الوقت الذى يجب عليهم فيه أن يطلقوا لعقولهم العنان لتعلم وتعرف وتخترع وتكتشف وتسخر هذه المادة الصماء وتتفع بما فى الوجود من خيرات وميزات ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ وإلى هذا اللون من التفكير الذى يجمع بين العقليتين الغيبية والعلمية ندعو الناس. لقد عاش الغرب أخريات أيامه مادية النزعة لا يشعر بغير المادة ولا يعترف بغير المادة ولا يحس بوجود غيرها حتى ماتت فى نفوس أبنائه عواطف الرحمة الإنسانية، وخبت أنواع الروحانية الربانية. وهيمن الغرب على الدنيا بأسرها بعلومه ومعارفه ومباهجه وزخارفه وكشوفه ومخترعاته وجنوده وأمواله، وصبغ الفكر البشرى فى كل مكان بصبغته هذه. والآن والدنيا كلها تكتوى بهذه النيران تنبثق الدعوة من جانب جديد لتهيب بالناس فى الشرق والغرب معاً أن يمزجوا المادة بالروح، وأن يؤمنوا بالغيب والشهادة، وأن يتعرفوا من جديد إلى الله ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ {الذاريات} (١).

(١) (مجموعة رسائل الإمام الشهيد حسن البنا ص ١١٠/١١١ ط المؤسسة الإسلامية - بيروت بدون تاريخ).

ج - الإيمان بالغيب وضرورته فى العصر الحديث :

ولكى نضع الأمور فى نصابها فى قضية الإيمان بالغيبيات التى يجحدھا الماركسيون والوضعيون المعاصرون ، فينبغى توضيح أن المسلم الذى يؤمن بالغيب أكثر علماً أولاً وأوسع آفاقاً وأرحب تصوراً للوجود وهو ثانياً أسعد حالاً من الماركسى أو الفيلسوف الوضعى حيث حبس كل منهما نطاق معرفته داخل التصورات المحسوسة المادية لأنه فى حقيقة الأمر (رجعى) بالمقياس الإسلامى لأنه حدّد معارفه بنطاق قوانين مداركه المحدودة ومجالات الحس الضيقة لا يتعداها، بينما المخلوقات أكبر وأعظم من أن تحيط بها العقول، وثبتت الاكتشافات العلمية كل ما يبهل ويذهل يوماً بعد يوم .

أما المسلم، فقد انفتحت أمامه المعارف عن كل ما غاب عن حسه من عالم الغيب واستمدّها من مصادر موثقة بمنهج علمى دقيق، سواء كان مصدره كتاب الله عز وجل أو سنة الرسول ﷺ ، ومن ثم تصاغ حياته وفق عقائده ومعارفه عن هذا العالم الغيبى، لأنه علم بتفاصيله منذ لحظات موته إلى مصيره النهائى الذى تحدّد وفق أعماله ويحاسب عليها بدقة متناهية ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿.

كذلك تتحقق له الحياة الطيبة عملياً فى ضوء إيمانه بالقدر على الوجه الصحيح فلا يهتز أمام الفواجع ، ولا تحطمه الكوارث ، بل يصير أمامها ويحتسب ويصمد كما تصمد الشجرة الثابتة الجذور أمام العواصف وربما تهتز وتتمايل لقوة الرياح وسرعتها، ولكنها سرعان ما تعود إلى وضعها الثابت لأن الجذع ظل ثابتاً شامخاً. ومن هنا يعرف المسلم أنه مبتلى فى حياته الدنيوية المؤقتة، فإذا صبر عليها وأحتسب، فسرعان ما تمضى وتبذل إلى حسنات فى ميزانه بالحياة الآخرة الخالدة، وهو يعلم أن الله تعالى سيبدل عسره يسراً، لذلك فإنه يتطلع دائماً إلى

المستقبل الأفضل، فتهون عليه مصائب الدنيا، لأن جنة الله عز وجل غالية عالية.

ط - آثار الإيمان بالغيب على حياة الإنسان .

ونحن نأمل أيضاً في إقناع الذين يربطون العقائد بآثارها ونتائجها ، فإن الإيمان بالغيب أيضاً له دوره وفاعليته وهو يدفع بالمؤمنين إلى تخطي عقبات وحواجز يظن (الوضعيون الحسيون) إنها أشبه بالمستحيلات !

لقد ظهر دور الإيمان بالغيبيات كأظهر ما يكون في حياة الصحابة والمسلمين الأوائل، وتكرر بصورة متطابقة مع المسلمين الذى خاضوا المعارك تلو المعارك لهداية البشر وجعل كلمة الله هى العليا ، ولم يهزموا - كما يحكى لنا التاريخ - إلا بسبب المعاصى كما حدث فى موقعة أحد وهناك أمثلة فى واقعنا المعاصر أو بسبب القصور - وهما من صميم الطبيعة البشرية . يقول د/ فيليب حتى (إن الفاتحين الذين كانوا قد أصبحوا على بعد ألفوف من الأميال عن مراكز إمدادهم، ثم لم يكونوا ذوى خبرة بالأرض التى يحاربون عليها، ولا كان فيهم الاستعداد لاحتمال هجمة الشتاء القارس وقف زحفهم وقوفاً طبيعياً، ثم قرروا الانسحاب ذلك كان نطاق الانتصار الذى هلك له المؤرخون الغربيون على انه إحدى المعارك الحاسمة فى التاريخ (موقعه شارل مارتل - وكان المسلمون بقيادة عبد الرحمن الغافقى) (١) .

ولا ننسى انتصار المجاهدين الأفغان فى السنوات الأخيرة على الظلم الروسى الرهيب حيث قاوموا ببسالة منقطعة النظير ما أراده الروس بالأفغان، حيث سعوا لإبادة شعب (ليزرعوا على أنقاضه مذهبهم الكافر غير الإنسانى، ويزعمون مع ذلك أنهم دعاة عدل وحضارة وسلام) .

(١) (ص ١٧٢ من كتابه (الإسلام منهج حياة) ترجمة د/ عمر فروخ ط دار العلم للملايين بيروت سنة ١٩٨٣) .

وهذا يتدرج بنا أيضاً إلى العامل الرئيسى والأول فى تحليل الصحة الإسلامية المعاصرة، وهو ما لا يقدره المراقبون والمحللون من غير المسلمين، وهو الإيمان بالله تعالى ومدى قوته ونفوذه وسلطانه على قلوب المسلمين ونفوسهم، وشوقهم إلى الرجوع إلى ربهم عز وجل لأنه ناصرهم ومؤيدهم ورازقهم فضلاً عن أنه خالقهم ، لعله ينصرهم إذا استمسكوا بميثاقه وأطاعوه فيما أمرهم به، وانتهوا عما نهاهم عنه !

ب - رسول الله ﷺ و الأسوة الحسنة فى كل العصور:

ويأتى مسك الختام بالحديث عن صلة اتباع الرسول صلى الله عليه وسلم بالعصر الحديث، فنقول:

إن المسلمين كافة مطالبون بالتأسى بالرسول ﷺ ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ على مدى العصور كلها حتى قيام الساعة، وهو وحده الأسوة الحسنة حياً وميتاً، فلم تنقض سنته بموته، لأنهم مأمورون بطاعته طاعة مطلقة غير مقيدة بمكان أو زمان ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾، ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾.

ولا يتعارض ذلك مطلقاً مع العصرية، لأن الاقتداء به يتصل بعقائد الإنسان المسلم وعباداته وسلوكياته كإنسان يحتاج إلى الأسوة فى طريق اجتيازه لحياته الدنيوية (فالخوافز الإنسانية لم تزل نفسها اليوم كما كانت منذ فجر الحضارة الإنسانية فالغرائز التى هى محور عمل الإنسان لم تزل باقية كما كانت بالرغم من أن مجال النشاط الإنسانى قد اتسع، وصفات الإيثار والشرف والصدق والشجاعة المستحبة تنال من الاحترام اليوم ما كانت تناله منذ القدم) (١).

وحسماً للمناقشة والجدل فى هذا الصدد، فإننا سنتحدث عن التجربة الشخصية

(١) (تفسير التاريخ - عبد الحميد صديقى).

وأصدائها فى النفس فنقول وبالله التوفيق:

إننى عندما أتبعه - بأبى هو وأمى - فلا أظن ولا يخطر ببالى، ولا أشعر أننى أعود إلى ماضٍ بعيد أختار منه إنساناً أحاكىه ! فإن الذى يحدث بالضبط، هو أننى أتمثل سيرته بذاكرتى، وأجمع محبته فى قلبى وبين جوانحي، فأصلى عليه وأسلم، فيسهل على متابعتة منقاداً طائعاً بغبطة وسعادة لأنه الهادى إلى الطريق المستقيم .

إن سيرته - ﷺ - كاملة شاملة، فلا أحتاج إلى غيره للاقتداء به ، لأنه أوضح كل ما يعن لى من حاجات حيث يدلنى فيما أريد معرفته والعمل به ، ابتداءً من العقيدة إلى العبادات والمعاملات والأخلاق (يقول القاضى عياض) ومن معجزاته الباهرة ما جمعه الله له من المعارف والعلوم، وخصه به من الأطلاع على جميع مصالح الدنيا والدين ومعرفته بأمر شرائعه وقوانين دينه وسياسة عباده ومصالح أمته وما كان فى الأمم قبله، وقصص الأنبياء والرسل والجبارة والقرون الماضية من لادن آدم إلى زمنه وحفظ شرائعهم وكتبهم . . ومحاكاة كل أمة من الكفرة ومعارضته كل فرقة من الكتائبين بما فى كتبهم وإعلامهم بأسرارها . . إلى تمهيد قواعد الشرع الذى لا تناقض فيه ولا تخاذل مع اشتغال شريعته على محاسن الأخلاق ومحامد الآداب وكل شئ مستحسن مفصل لم ينكر منه ملحد ذو عقل سليم شيئاً إلا من جهة الخذلان . . الخ) (١)

إنه ﷺ يعلمنى كيف أعبد ربى عز وجل: أذكره فى كل الأحوال قائماً وقاعداً ، أصلى وأصوم وأزكى وأحج وأفعل الخيرات وأترك المنكرات. كيف أبيع وأشتري وأعامل الأهل والأولاد والأصدقاء، كيف أسعى لتحصيل الرزق، كيف

(١) (الشفا بتعريف حقوق المصطفى - ﷺ المجلد ٩٧ ص ٢٩٦١ مكتبة دار التراث بالقاهرة نسخة مصورة من المطبعة العثمانية سنة ١٣١٢هـ) .

أقبل صنوف الآلام بالصبر والرضا .

أما عن طلاب البحث عن ثمرة اتباع السنة فإنه من اليسير إقناعهم بالحكمة أيضاً.

فقد تفردت شخصية الرسول ﷺ باعتباره خاتم النبيين والقدوة الكاملة في جوانب النشاط الإنساني حيث عاش معه الصحابة حياة حقيقية واقعية قائمة على الاقتداء به والطاعة له ﷺ ، وللمسلمين بعدهم باتباع سنته القولية والعملية .

وكلما كان المسلم أقرب إلى اتباع سنته ﷺ كان إلى السعادة أقرب لأنه صلوات الله عليه يسلك طريقه في الحياة وفقاً للوحي، ويعلم تام وحكمة شاملة للإنسان في أحواله كلها ورسم الطريق السليم لاجتياز الحياة الدنيا بأفضل طريقة ممكنة على المستوى البشري للناس .

ولتقريب معنى القدوة، وفهم دورها في ضوء علم النفس ، نضع أمام القارئ رأياً لأحد علماء النفس المعاصرين حيث يرى أنه (المثل الأعلى الصائب) هو من الناحية السيكلوجية، ذلك الذي يستطيع جلب التوافق للنفس، باجتماع الانفعالات الغريزية جميعاً، وهو الذي باستثارة الإرادة إلى غرض مشترك أن يصيب الفرد باعتباره وحدة سيكلوجية في قالب كائن حي وهو الذي يضمن تحقق الذات والسعادة، وذلك باشباع السعى إلى الاكتمال، إن حيازة مثل أعلى أو غرض في الحياة لهي إذن أهم الأمور الضرورية للإرادة القوية والخلق المتزن ^(١) .

وكان الأستاذ محمد أسد (ليوبولد فايس قبل الإسلام) سباقاً ونفاذاً إلى قلب الحقيقة في فهم وتقريب الحكمة من اتباع السنة للأذهان، ولشرح فكرته يرى أنه

(١) هافليد - علم النفس والأخلاق ص ١١٥ - ١١٦ ، ترجمة محمد عبد الحميد أبو العزوم ومراجعة د. عبد العزيز القوصي مكتبة مصر ، سنة ١٩٥٣ م .

ليس من المقبول أن يتساءل الجند عن أسباب وعلل الأوامر العسكرية بل عليهم تنفيذها فوراً بلا تردد وإلا أصبح أمر المعمارك فوضى، فكذلك رسول ﷺ باعتباره أحسن قائد عرفته البشرية فى نواحي الحياة جميعاً الفردية والاجتماعية، النفسية والروحية بحيث يجب على المسلمين اتباعه والاقتداء به لأنهم أقروا بنبوته ﷺ فمن ضياع الجهد والوقت التساؤل فى كل موقف عن السر والحكمة .

ولكن قد تصبح سعادتنا غامرة إذا ما وقفنا على بعض أو كل الحكم من سنته عليه الصلاة والسلام، وما أدق تعبيره عندما يصف السنة بأنها (الهيكل الحديدى) للإسلام .

وهنا يرى أن هناك أسباباً ثلاثة تؤكد ضرورة إقامة السنة وتبين أطرافاً من حكمة اتباعها :

١- تمرين الإنسان بطريقة منظمة على أن يحيا دائماً فى حال من الوعى الداخلى واليقظة الشديدة وضبط النفس . وهذه منزلة الاقتداء برسول ﷺ فى حركاته وسكناته . إن هذا الانضباط السلوكى وفقاً لسنته يؤدى إلى التخلص من الأعمال والعادات العفوية التى تعرقل النشاط الإنسانى عن التقدم، يقول محمد أسد (إن الأعمال والعادات التى تقوم عفو الساعة، تقوم فى طريق التقدم الروحى للإنسان كأنها حجارة عثرة فى طريق الجياد المتسابقة .

٢- تحقيق النفع الاجتماعى للمسلمين، لأنهم باتباع السنة (أى المنهج النبوى فى الحياة) تصبح عاداتهم وطباعهم متماثلة مهما كانت أحوالهم الاجتماعية والاقتصادية متنافرة .

٣- ضمان الهداية إلى الحياة الإنسانية الكاملة الكفيلة بتحقيق السعادة والحياة الطيبة لأنه ﷺ يعمل بوحي إلهى، وقد أرسل رحمة للعالمين وليس هادياً

من الهداة فحسب، ولكنه الهادى إلى طريق مستقيم .

وعلى هذا تصبح شخصيته - ﷺ - متغلغلة إلى حد بعيد فى منهاج حياتنا اليومية نفسه، ويكون نفوذه الروحى قد أصبح العامل الحقيقى الذى يقودنا طول الحياة (١).

وما أخرجنا إلى اتباع سنة الرسول ﷺ لمقاومة الحملات المعادية المدروسة وفن أساليب علم النفس لصياغة الإنسان المسلم صياغة خاصة لتطويعه وإخضاعه لثقافة الغرب وطرق حياته (٢).

يقول كارليل (إن كل فرد يملك القوة على تعديل طريقته فى فن الحياة ، وأن يفرض على نفسه أنظمة فسيولوجية وعقلية معينة . وعمل معين، وعادات معينة، كذا اكتساب السيطرة على بدنه وعقله، ولكنه إذا وقف وحيداً فلن يستطيع أن يقاوم بيئته المادية والعقلية والاقتصادية إلى مالا نهاية (٣).

ولنا أن نفخر معشر المسلمين بسنة الرسول ﷺ التى تحقق لنا عند اتباعها - المحافظة على مقوماتنا الذاتية وأصالتنا لمقاومة حملات الغزو الثقافى، بل من عوامل سعادتنا أيضاً أن (نتدين) ونتقرب إلى الله تعالى عندما نفتدى بنبينا عليه الصلاة والسلام ، ذلك لأن سنته من قبل الوحي الإلهى، وهو الأسوة الكاملة فى

(١) ينظر محمد أسد : (الإسلام على مفترق الطرق ص ١١ ط دار العلم للملايين بيروت).

(٢) هذا الأسلوب الذى كان يتبع بواسطة إنشاء معاهد يمكن أن يشكل فيها الجسم والعقل طبقاً للقوانين الطبيعية حينما رأى الديكتاتورون أن من المفيد تكييف الأطفال تبعاً لنظام معين (الكسيس كاريل : الإنسان ذلك المجهول ص ٣٢٤ . ترجمة شفيق أسعد فريد - مؤسسة المعارف بيروت .
(٣) نفسه ص ٣٣١ - ٣٣ .

تحقيق السعادة للإنسان بناء على معرفته له حق المعرفة ، بينما عجزت البشرية حتى القرن العشرين ، وسيكون ذلك حالها لأن المعرفة الصحيحة بالإنسان ينبغي أن تستمد من خارج نطاق العقل الإنسانى وتجاربه أى الوحي



الفقه الإسلامي وأصوله

طرح البدائل

علي عزت ييجوتش :

الإسلام بين الشرق والغرب

طرح البدائل

(علي بيجوفيتش : الإسلام بين الشرق والغرب)^(١)

سنعرض في هذا الفصل لبعض قضايا كتاب (الإسلام بين الشرق والغرب) للرئيس على بيغوفيتش، وهذا أفضل ما يقع عليه الاختيار لدراسته كنموذج للفكر الإسلامى بمستواه الرفيع المتفوق على الفلسفات والأيدولوجيات البشرية، والقادر على مواجهتها إذ كان مؤلفه حريصاً على حل مشكلة العالم الموزع بين الكتلتين الشرقية والغربية حينذاك وحتى بعد انهيار الاتحاد السوفيتى تبقى قيمة الكتاب فى الموازنة بين التعارض الحاد بين النظريتين الدينية (المسيحية) والمادية فى العالم الغربى، وهو يتقدم بالفكر الإسلامى إسهاماً فى إيجاد الحل، كما لم ينس أيضاً الحالة المتدهورة للعالم الإسلامى واقترح ما يراه للنهوض به مرة أخرى.

ولابد لآراء بيغوفيتش واقتراحاته البناء أن تأخذ مكانتها فى دائرة الفكر الإسلامى الحديث للدراسين والدعاة وحملة الأقلام والساسة، لأنها وليدة ذخيرة علمية وفيرة حصلها من دراسته الجامعية واستمدتها من خبرته بالعمل فى المحاماة مع قراءات مكثفة فى علوم ومعارف مختلفة. وأيضاً خبرته السياسية التى اكتسبها من نظرات نقدية للفلسفة المادية والنظام الشيوعى الذى أخضع بلاده قهراً لعشرات السنين، وكان يتوقع انهيار الاتحاد السوفيتى وفشل النظرية الماركسية وتهافت النظام بأكمله لأنه (يوتوبى) - أى قائم على الخيال ومستقى من الأحلام - وليس متوافقاً مع الكيان الإنسانى الواقعى الحى.

(١) أُلقيتُ هذا البحث فى ندوة بعنوان (قراءة فى كتاب الإسلام بين الشرق والغرب لعللى عزت بيغوفيتش) بمركز الدراسات والبحوث الإسلامية - كلية دار العلوم . جامعة القاهرة يوم

٣٠ / ٤ / ١٩٩٥ م .

ومما يرفع من قدر آراء بيجوفيتش أنه عقب تهاافت الماركسية كفلسفة ونظام سياسى واقتصادى، انبثقت فلسفة أخرى مضادة تتبنى فكرة سيادة النظام الليبرالى وتتوقع اكتساحه العالم، لأنه انتصر فى معركة الحرب الباردة وقضى على خصمه فأثبت صلاحيته للبشرية. وقد حمل لواء هذه الدعوة الكاتب الأمريكى الجنسية اليابانى الأصل فرانسيس فوكوياما بكتابه (نهاية التاريخ وخاتم البشر)^(١).

ومع أن كتاب (الإسلام بين الشرق والغرب) قد كتبه مؤلفه قبل هذه الأحداث، إلا أنه عندما صاغ مقترحاته فيما سماه (بالطريق الثالث) فكأنما كان يتضمن الرد مسبقاً على فوكوياما لأنه لم يغفل فى دراسته النظام الديمقراطى الغربى أيضاً عندما قدّم الحل الإسلامى بمنظور واسع مزج فيه خبرته المعاشة لعلوم مقارنة الأديان والتاريخ والسياسة والاجتماع كما أسلفنا، بل يتضح للدراسين لفحوى الكتاب أن موضوعه الرئيسى هو إثبات أن الإسلام هو الطريق الثالث الذى يراه منقذاً للحضارة المعاصرة بدلاً من الشيوعية والليبرالية .

ويصف بيجوفيتش كتابه بأنه محاولة ترجمة الإسلام إلى اللغة التى يتحدث بها الجيل الجديد ويفهمها فتراه يقدم الإسلام فى دائرته الشاملة الجامعة فى تناسق بديع بين عقيدة التوحيد وبيان حقيقة الإنسان والتفسير الصحيح للحياة والنظم، يتفوق على العقائد والنظريات الفلسفية والبيوتوية ، وحتى النظريات التى تلبس ثوب العلم - كالدارونية - وما هى بعلمية ! .

كما يعلن أنه مجرد داعية إلى الله عز وجل فيقول (طريقنا كسب الإنسان لا الاستيلاء على السلطة)^(٢).

(١) ترجمه إلى العربية الدكتور حسين أحمد حسين، ونشره مركز الأهرام للترجمة والنشر ١٤١٣ هـ - ١٩٨٣ م .

(٢) (الإسلام بين الشرق والغرب ص ٩٣ ، ٩٤) .

وينظر المؤلف للحضارة المعاصرة نظرة نقدية وبقلب مشفق عليها، فإنه لا يرفضها، بل يقترح عليها اجتياز (الطريق الثالث) - طريق الإسلام - لأنه ليس ديناً بالمفهوم الغربى، وإنما هو بصفة أساسية مبدأ تنظيم الكون (لقد وجد الإسلام قبل الإنسان)^(١)، كما أنه بحسب تعريفه (أخذ رسمه من قوانينه ونظامه ومحرماته وجهود النفس والبدن التى يطالب الإنسان بها، وأيضاً من قوة النفس فى مواجهة محن الزمان)^(٢) .

كذلك يصرح بتواضع تام أن كتابه ليس مصدراً للتعليم، بل كنزيرة على العالم، ويلفتنا إلى ضرورة تعلم الدين أصولاً وفروعاً من علمائنا المتخصصين فى العقائد والتفسير والحديث والسيرة والفقه والأصول واللغة والتاريخ .

ويلمس القارئ من سطور الكتاب عزة المؤمن بالرغم من دواعى الإحباط حوله بسبب عوامل الكبت والقهر، إذ يرتفع بهامته شامخاً ساخراً من الإلحاد الذى يدعى العلم، وهو فى حقيقته جهل وهروب من مواجهة الحقائق والواقع .

ولتقييم دوره الثقافى فى مواجهة الأيدولوجيات والفلسفات الغربية، سنبدأ بعد التعريف بالمؤلف بعرض اقتراحات بعض فلاسفة التاريخ والحضارة فى الغرب كى يتضح لنا مدى توافقه مع آرائهم، وأنه كان يعانى من الأزمات الثقافية والأخلاقية نفسها، وعندما قدّم الحل الدينى لم يكن شاذاً فى موقفه، بل كان أكثر إقناعاً مزوداً بدروس مستفادة من التجارب البشرية، ومتسلحاً بأدلة دينية وأخلاقية وتاريخية وواضحاً فى عرضه للفكر الإسلامى الجامع بين جناحيه لثنائية الروح والمادة .

وسنلخص مادة البحث عبر النقاط الآتية : -

● كلمات عن المؤلف

● حضارة الغرب فى ضوء التفسير التاريخى .

(١) - (٢) الإسلام بين الشرق والغرب ٩٣، ٩٤ .

- واقع العالم الإسلامى وانتشاله من التردى الحالى .
- انحدار المستوى الإنسانى (الإنسان المبرمج) .
- أصل الإنسان .
- نحو الطريق الثالث فى ضوء التجارب البشرية .

١ - كلمات عن المؤلف :

اسم المؤلف : على عزت بيجوفيتش، ولد سنة ١٩٢٥م، درس القانون والآداب والعلوم ، وكان من أعضاء حركة الشبان المسلمين، حكم عليه بخمس سنوات ، أول كتاب له صدر بعنوان (الإعلان - أو البيان الإسلامى) ، بدأ فى نشره على حلقات ١٩٧٠ ثم عكف على الكتاب الذى بين أيدينا .

حوكم فى أغسطس ١٩٨٣م محاكمة سريعة شبه سرية بسبب كتابه الأول بتهمة الدعوة الى الجهاد المقدس وإقامة دولة إسلامية فى قلب أوروبا، حكم عليه بالسجن مع أحد عشر من زملائه أربعة عشر عاماً، وعندئذ لم يستطع إنهاء كتابه (الإسلام بين الشرق والغرب) وكان قد أوشك على ذلك، ولكن استطاع صديقه حسن قرش تهريب أصول الكتاب إلى كندا سنة ١٩٨٣م ونشر بأمريكا عام ١٩٨٤، ثم أعيد طبعه ١٩٨٩، وهو أشهر من أن نعرفه ولكن مما يتصل بموضوع بحثنا إبراز بعض الوقائع التى تفسر لنا الكثير من النصوص، تساعد على فهم ما بين السطور، أو - حسب مصطلحه - الحياة الجوانية :

لقد استمد ثقافته العلمية والقانونية من الجامعة. أما العلوم الدينية فقد تلقاها على يد شيخه العالم المحدث محمد خانجى (والذى تخرج فى جامع الأزهر قبل الحرب العالمية الثانية وهو مؤسس جمعية العلماء « الهداية » ، والتى كان لها الأثر الأكبر فى توعية المسلمين .. قتله الشيوعيون عام ١٩٤٦م أثناء عملية توفى على

أثرها في ظروف غامضة (١) .

أما البيان الإسلامي الذي كان سبب محاكمته وهو الذي يتضمن نهجه في إقامة الدولة الإسلامية، فإنه يحتوى على مقدمة وثلاثة أبواب ؛ محدداً المنهج بأنه واحد للإمام المسلم والشعب المسلم ومبيناً الهدف بأنه عودة المسلمين إلى إسلامهم تحت شعار الإيمان والجهاد .

ولا ينحصر الهدف في بلده وحدها - ولو فعل ذلك لكان معذوراً - بل يذهب إلى إقامة مجتمع إسلامي موحد من المغرب إلى أندونيسيا، ويوجه نداءه إلى المسلمين قاطبة بقوله (قد يبدو الهدف الذي نصبو إليه بعيد المنال لكنه واقعي وحقيقة، لأنه بحد ذاته يقع ضمن البعد الممكن التحقق على النقيض من الأفكار المماثلة غير الإسلامية التي هي طوباوية وخيالية، ورغم ذلك يجرى العمل لتحقيقها)، وهو يقترح بذلك النظام الشيوعي الذي اعتبره طوباويا وألحقه بجمهورية أفلاطون الخيالية كما نص على ذلك بكتابه (الإسلام بين الشرق والغرب) (٢) .

(١) من مقال بعنوان بدء وتشكيل إدارة المسلمين الدينية المعاصرة في الدول اليوغسلافية - بقلم كارتيتش - منشورة بكتاب (البوسنة والهرسك - قصة شعب مسلم يواجه العدوان) وكالة الأنباء الإسلامية - ابنا - ط دار الاعتصام ١٤١٤ هـ - ١٩٩٤ م - ص ٧٢ .

(٢) نشر الدكتور محمد حرب مقتطفات من البيان نقلاً عن جريدة الحياة الدولية (العربية) التي تصدر في لندن في عددها ١٠٨١٢ - ١٦ سبتمبر ١٩٩٢ ربيع الأول ١٤١٣ هـ .

ينظر كتاب (البوسنة والهرسك من الفتح إلى الكارثة ص ٨٦ - ١٠٠) ط المركز المصري للدراسات العثمانية وبحوث العالم التركي بالقاهرة ١٤١٣ هـ - ١٩٩٣ م

جاء في تعليق مجلة (منبر الشرق) - رجب ١٤١٤ هـ يناير سنة ١٩٩٤ م على البيان ما يلي:

{ ويلاحظ أن البيان الإسلامي الذي كتبه على عزت سنة ١٩٧٠ قد حلل أوضاع المسلمين في العالم عموماً، ووضع التصور لأسباب تخلفهم وطرق الخروج إلى الوحدة والنهضة .

وأن هذا البيان لم يكن خاصاً بيوغوسلافيا أو البلقان أو البوسنة والهرسك فقط . وهكذا فإن على عزت ييجوفيتش ليس مفكراً قومياً أو محلياً . بل مفكراً أعمياً إسلامياً من الطراز الأول .

٢ - حضارة الغرب فى ضوء التفسير التاريخى :

إن قضية القلق على الحضارة الغربية والإشفاق من تدهورها ومحاولات وضع خطط لإنقاذها، هذه القضية ليست بنت الساعة ولكنها تفجرت منذ ظهور كتاب إدوارد جيبون (قيام الدولة الرومانية وسقوطها) إذ رأى أن الفترات السعيدة - أو الذهبية - فى تاريخ الإنسانية قليلة بل نادرة والسبب الأكبر فى الفساد يكمن فى ضعف الإنسان وما ركّب فى طبعه من الرذائل . وقال إن الدول - كبيرها وصغيرها - إذا قامت وبلغت أوجها عادت فسقطت فى وقت محسوب . وأعتبر جيبون بذلك متشائماً، وقد ترك كتابه أثراً فى قرائه لما يثيره فى النفوس من غرور الأباطرة وما أنزلوه بأهل البلاد المفتوحة من أذى وظلم، ويجعل الإنسان يشعر شعوراً عميقاً بأن الإنسانية مريضة حقاً أو أنها فى حاجة إلى علاج، وأن هذا العلاج إنما هو فى الصدق والعقل والإيمان فهل نعد جيبون ممن يرون أن العلاج فى الدين ؟

ربما يميل الدكتور حسين مؤنس لهذا رأى إذ يحكم على جيبون بأنه رغم حرية فكره وما أبداه من آراء فى الكنيسة ورجالها، فقد كان كاثوليكياً عميق الإيمان^(١).

وجاء كتاب (انحدار الغرب) لشبنجلر بمشابة إنذار ألقى فى القلوب الرعب لأنه تنبأ بنهاية الحضارة الوشيك، وبنى رأيه على فكرة العمر الزمنى لكل حضارة، محدداً إياه بألف سنة، كما يقدر عمر الإنسان بسبعين سنة، ولذلك فالقرنان التاسع عشر والعشرون اللذان يعتبران إلى وقت تأليف كتابه أعلى نقطة فى خط صاعد مستقيم فى تاريخ العالم إنما هو فى الحقيقة مرحلة من مراحل الحياة يمكن ملاحظتها فى تاريخ أى حضارة بلغت نضجها ثم لا مفر من النهاية. فإذا كانت حضارة الغرب حسب تحديده قد بدأت فى القرن العاشر الميلادى، فقد

(١) للدكتور حسين مؤنس - عالم المعرفة / الكويت محرم ١٣٩٨هـ - يناير ١٩٧٨م

انقضى معظم عمرها فى القرن التاسع عشر، مؤكداً حتمية تدهورها وهلاكها المرتقب فى المستقبل المنظور. ويبدو ان بعض معاصريه حاولوا التخفيف من توقعاته بالتشبث بالعقل لأنه أساس كل تقدم وإنشاء وإبتكار، ولكنه لم يشاركهم هذا رأى، بل كان يرى أن هذا العقل نفسه هو الذى يقود حضارة الغرب كلها إلى الدمار^(١) وشاركه آخرون بل ذهبوا إلى أن الإنسان لا يقنع بالعقل فى كل حالة، وإنما لا بد من التخويف واستعمال العنف لاجداث أى تحول اجتماعى واسع المدى، وكان لينين ممن تأثروا بهذا رأى .

أما توينبى - صاحب أشمل دراسة تاريخية للحضارات صاغها فى قالب نظريات أو قوانين - فقد أزعجته أيضاً آراء شبنجلر وأخذ فى الدراسة واقترح الحلول، وفى مقدمتها الحل الدينى .

ومن رأيه أنه ربما يقع طريق النجاة فى السياسة بتحقيق حكومة عالمية مركزية أو تحقيق المشروعات الفردية فى الاقتصاد، ولكن ينبغى فى الحياة الروحانية أن نقيم البناء الدنيوى الخارجى على أسس من الدين، وليس من شك فى أن الهدف الدينى من بين الأهداف الثلاثة أهمها جميعاً فى النهاية^(٢) .

ويشرح الدكتور حسين مؤنس موقف توينبى من الدين فيبين أن إيمانه قليل بقدرة العقل وشكّه أنه كفيل بتوجيه الإنسان فى الطريق السليم، ويميل فى تفسيره للتاريخ إلى الإيمان بالله القادر المصّرّ للأمور، أى أنه يرى أن الإيمان بأن أمور هذه الدنيا بين يدي خالق مدبر، يضع الإنسانية فى الطريق السليم^(٣) .

(١) نفسه ٣٤٦ / ٣٤٧ .

(٢) أدريين كوخ : آراء فى أزمة العصر ص ٩٠ / ٩١ - مكتبة الانجلو المصرية بالاشتراك مع مؤسسة فرانكلين - نيويورك ترجمة محمود محمد - القاهرة ١٩٦٣ م .

(٣) الحضارة ص ٣٥٥ ،

وبين هذه النظريات التي ترى الإنقاذ فى الحل الدينى، أين نضع نظرية
بيجوفيتش ؟

أثبت أولاً اضطراب التفسيرات المادية للتاريخ إذ من السخرية ظهور الحركات
الشيوعية نفسها بطريقة ضد النظرية المادية إذ لم تحدث الانقلابات الشيوعية حيث
ينبغى أن تحدث - أى فى المجتمعات الصناعية - ولم تنجح الحركات الشيوعية
بسبب ظروف موضوعية، بل بسبب عناصر شخصية - أى ظهور حزب شوعى
قوى أو بتدخل من قوة أجنبية ^(١) ! .

ويرى أيضاً أن التأثير الإنسانى على مجرى التاريخ يتوقف على قوة الإرادة
والوعى، وكلما عظمت القوة الروحية للمشاركة فى الأحداث التاريخية، كلما
عظم الاستقلال عن القوانين الخارجية والعكس صحيح .

إن هذه النظرة الإسلامية ترفض الحتمية التاريخية كما ترفض أى مثالية فارغة
لا جذور لها فى الواقع ^(٢) .

٣ - واقع العالم الإسلامى وانتشاله من التردى :

وتتضح نظرتة المتفائلة بالرغم من الصعوبات التى تواجهها الأمة الإسلامية حتى
لا تستسلم للواقع، لأن الإسلام يجتهد فى تنظيم العالم عن طريق التنشئة والتعليم
والقوانين التى شرعها، ومع مراعاة الأوضاع التى نغمس فيها مهما كانت؛ فعلىنا

(١) ص ٣٥٦ من كتابه « الإسلام بين الشرق والغرب »، الناشران مجلة النور الكويتية الكويت
توزيع : دار الشروق بالقاهرة ، مؤسسة بافاريا للنشر والإعلام والخدمات بألمانيا ترجمة
محمد يوسف عدس للنسخة الإنجليزية رجب ١٤١٤ هـ / يناير ١٩٩٤ م .

(٢) ينظر البيان الإسلامى بكتاب البوسنة والهرسك من الفتح إلى الكارثة للدكتور محمد
حرب، وهو يتضمن خطة عمل ورؤية سياسية شاملة للعالم الإسلامى بواقعه الحالى -
أخذاً بيده إلى المستقبل الأفضل .

تغييرها وبذل الجهد لتحسين كل شيء فى هذا العالم بقدر استطاعتنا ، وفى الوقت نفسه الاعتراف بالقدر لأنه اعتراف بالحياة على ما هى عليه .

وتتضح نظرتة الإسلامية المرتبطة بالواقع عندما يعلل هزائم الأمة فى العصر الحاضر، فيرجعها الى تفتيت وحدة الأمة بفكرة القومية وهى فكرة دخيلة أجنبية، ويُبعد المسلمين عن الإسلام وعدم الاستغلال الإسلامى الصحيح للقدرات الإسلامية فى البلدان الإسلامية؛ ثم يوضح الطريق الصحيح للانبعاث الإسلامى الذى يشترط له أمرين :

الأول : تنفيذ قوله تعالى ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾ .
الثانى : اتباع النموذج القانونى الاجتماعى الإسلامى فى تجربة الإسلام الأولى، وكفاح الرسول ﷺ .

أجل لقد كانت الحياة الإسلامية مجسدة فى حياة النبى ﷺ ، فبرهن على أن الإسلام وحدة طبيعية: من الحب والقوة، المتسامى والواقعى، الروحى والبشرى .
هذا المركب المتفجر حيوية من الدين والسياسة يثبث قوة هائلة فى حياة الشعوب التى احتضنت الإسلام فى لحظة واحدة يتطابق بعد الإسلام مع جوهر الحياة^(١) .

ويرى أن الصحة الدينية أساس التقدم فى العالم الإسلامى (٢) .

٤ - انحدار المستوى الإنسانى (الإنسان المبرمج) :

وضع المؤلف الفاضل أماناً صورياً تدعو إلى التفاؤل بمستقبل الإنسان مسجلاً الخطوات التى خطاها العلماء التى تبشر بمستقبل زاهر، منها ما ذهب إليه (جان روستاند) من إمكان استخدام مواد وراثية من أناس بالغى الذكاء، وإذا نجح العلماء فى إنتاج أناس بطريقة صناعية ، فلإن احتمالات جديدة لا حدود لها

(١) الإسلام بين الشرق والغرب ص ٣٤ . (٢) نفس المصدر ص ٣٧٣ ،

ستظهر في حياتنا بحيث يستطيع كل إنسان أن يحصل على طفل مصمم وفق رغبته !

وبتحليل الإحصائيات عن إمكان تقليل ساعات النوم وتقصير أسبوع العمل الى ٣٠ ساعة، وتخفيض العمل السنوى إلى تسعة أشهر فقط، والزيادة المستمرة في سلع الرفاهية ومواد الزينة . . . الخ .

بعد هذه الرؤية المتفائلة يصح التساؤل : هل يعنى أن الحياة ستكون أسعد وأكثر إنسانية ؟

وتأتى الاجابة بالنفى، بل ب نتائج مزرعة ومثيرة للخوف والقلق، إذ تبين أن عدد الجرائم أخذ في الازدياد في القارة الأمريكية والبلاد الاوربية مما جعل علماء الجريمة في المؤتمر الدولي السابع يعترفون بأن (كوكبنا هذا هو محيط من الجانحين، فالناس جميعاً بشكل أو بآخر، لديهم نزعة الجنوح وأنه لا يوجد امامنا مخرج من هذه الكارثة) (١) .

أضف إلى ذلك مشكلة إدمان الكحول والهروين والغزو البشع للأدب الإباحى الذى فسّره طبيب النفس الفرنسى الشهير « بلانشاور » بأنه سبب الايدولوجية المسيطرة التى تكبت الشخصية وفق حياة آلية (نوم - قطار - عمل)، فتحرّم الإنسان من الخبرة والاثارة الحقيقين فيحتاج الناس غريزياً الى الهرب من أنفسهم ليجربوا أنواعاً من الإثارة الرخيصة (٢) .

وفى أعقاب الحرب العالمية الثانية ظهر جيل بائس من الشباب يملك كل شىء ولكن يعوزه كل شىء، الوجوديون الجيل المهزوم ، وقام الكاتب الأمريكى (آرثر ميللر) بتحليل هذه المشكلة بأنها نتائج التكنولوجيا التى دمرت الإنسان كقيمة فى ذاته إذا اندثرت الروح وتلاشت (٣) .

(١) الإسلام بين الشرق والغرب .

(٢) نفسه ص ١١٩ / ١٢٠ .

(٣) الإسلام بين الشرق والغرب . ص ١٢١ .

وهناك ظاهرة أخرى مدمرة إذ نرى فى جميع الدول المتحضرة ركوداً وانخفاضاً فى نسبة المواليد، راجعاً إلى وضع الأمهات أو الرغبة فى الانطلاق فى حياة إنسانية بدون التزامات، وهى نتيجة مباشرة لغياب التوجيهات الدينية والثقافية^(١).

٥ - أصل الإنسان :

يقرر مؤلف الكتاب أن قضية أصل الإنسان هى حجر الزاوية لكل أفكار العالم، والاختلاف الجذرى بين الماديين وغيرهم، ووجه النقص فى تعريف الماديين للإنسان هو اقتصرهم على النمو البيولوجى دون النمو الروحى، بينما الحقيقة الكامنة أن الإنسان ليس مجرد مجموع الوظائف البيولوجية المختلفة ويضرب الأمثلة التى تقرب المفاهيم الصحيحة عن الإنسان بإعتباره جامعاً بين البدن والروح :

إن اللوحة الفنية لا يمكن تحليلها إلى كمية الألوان المستخدمة فيها ، وإذا قارنا بين المسجد والمعسكر الحربى، فكلاهما مبنى من أحجار وأملاط وأعمدة خشبية ولكن يبقى لكل منهما حقيقته الخاصة المخالفة للآخرى . كذلك القصيدة فى الشعر فإنها تحتوى على كلمات قليلة من كلمات القاموس ولكن القاموس يفتقر إلى حبكة القصيدة .

وإذا انتقلنا لعالم الإنسان والعلوم التى تحاول معرفة حقيقته كعلم الحفريات وعلم هيئة الإنسان وعلم النفس، فهى كلها تصف الجانب الخارجى الآلى من الإنسان الذى لا معنى له، ولكن الإنسان مثله كمثل اللوحة والمسجد والقصيدة أكثر من مجرد كمية ونوعية المادة التى تكونه .

إن التصور يصدق فقط بالنسبة لتاريخ الإنسان البشرى الخارجى، ولا يصدق فى معرفة حقيقة الإنسان :

(١) نفسه ص ٢٦٣

وعندئذ يستند المؤلف الفاضل إلى الصور المتعددة للتضحيات البشرية فى التاريخ كما سجلها ويلزم فى كتابه (مختصر تاريخ العالم) فإن التضحيات البشرية من سمات الإنسان ، فالمصلحة حيوانية أما التضحية فهى إنسانية : المصلحة إحدى الأفكار الأساسية فى السياسة والاقتصاد السياسى ، أما التضحية فهى أحد المبادئ الرئيسية فى الدين والأخلاق .

ومن الخطأ أيضاً الزعم بأن الإنسان ينفرد بالذكاء ، فقد جمعت مادة علمية غزيرة عن كيف أن النحل والأوز والقرود تستقبل وترسل معلومات مختلفة من خلال الحوار أو التمثيل الحركى .

ويرى بيجوفيتش أن الفرق الحاسم بين الإنسان والحيوان ليس شيئاً جسيماً ولا عقلياً، إنه فوق كل شىء أنه أمر روحى يكشف عن نفسه، عن وجود ضمير دينى أو أخلاقى أو فنى، والإنسان وحده دائم التعبير عن مخاوفه وإحباطاته من خلال الدين - لماذا ؟ ومن أى شىء يبحث الإنسان عن الخلاص ؟

هذا بينما فى أكثر الحيوانات تصوراً لا نستطيع أن نجد أدنى أثر لعبادات أو محرمات بينما نجد أن الإنسان حيثما ظهر يظهر معه الدين والفن .

كذلك فلإن ظاهرة الحياة الجوانية أو التطلع إلى السماء - وهى ظاهرة ملازمة للإنسان غريبة عن الحيوان - هذه الظاهرة تظل مستعصية على أى تفسير منطقى، ويبدو أنها نزلت من السماء (نزولاً حرفياً) ولأنها ليست نتاجاً للتطور، فإنما تقف متعالية عنه، مفارقة له. إن نظرية التطور لم تستطع أن تفسر بطريقة مقنعة ظهور التدين فى الحياة البشرية. كما أن الحيوانات ليست لديها فكرة عن المقدس أو الشر فإنها لا تعلم شيئاً عن الجمال .

كذلك فإن اختلاف الإنسان عن الحيوان يشاهد أيضاً فى تمرد الإنسان، فالحيوان لا يتمرد على مصيره الحيوانى، الإنسان وحده هو الذى يتمرد وهذا التمرد فى جوهره إنسانى .

لذلك كله فإن يمكن تشبيهه إنسان (دارون) ذو البعد الواحد الذى يكافح من أجل البقاء، إشباع حاجاته من أجل عالم وظيفى، يمكن تشبيهه بعالم (نيوتن) فى الكون^(١)، لكن أينشتين هدم (وهم) نيوتن، كما أن الفلسفة التشاؤمية وإخفاق الحضارة يفعل نفسه بصورة الإنسان الدارونى، لقد انحدرت الإنسانية نتيجة التصور المادى للإنسان ولم ترق .

وبتواضع جم، يصرّح المؤلف أنه ليس من علماء البيولوجيا، ولهذا فانه يتحفظا باقتباسات من كتبهم التى تصرّح بالحيرة البالغة أمام ظواهر الحياة، إذ يقول أحدهم حتى الآن، لانعرف على وجه التحديد ماهية الحياة. نحن لا نستطيع حتى أن نقدّم تعريفاً كاملاً دقيقاً لظاهرة الحياة^(٢) .

ويقول عالم آخر (إننا لا نستطيع أن نفسّر الحياة من خلال معرفتنا الراهنة لعلمى الكيمياء والطبيعة) وبعد اقتباسات أخرى تدل على العجز عن اكتشاف القانون المنظم لحياة الانسان النفسية، والعجز عن الوصول إلى أسرار تنظيم أجسامنا من حيث تغذيتها وطاقاتها العصبية والروحية، ويقرر المؤلف أن الحياة معجزة أكثر منها ظاهرة ثم يفصل الحديث عن أعضاء الإنسان وأدائها لوظائفها

(١) سيطرت الميكانيكا التقليدية وناموس الجاذبية من وضع نيوتن فى كتابة (المبادئ) زهاء قرنين من الزمن . . ثم تبين أن الفروض الأساسية فيها ليست صحيحة . ونتائجها رغم ما يبدو عليها من الدقة تظل تقريبية . ثم حلت محلها نظرية النسبية وانطلقت من فروق جديدة كل الجدة، قد تلتقى نتائجها العامة مع الميكانيكا التقليدية فى نطاق السرعات الضعيفة كسرعات السيارات والعربات، ولكنها ما إن تتجاوز هذه النطاق حتى تتفوق عليها تفوقاً لا مثيل له عندما يتطلب الأمر أرقاماً كثيرة وذيولاً رياضية طويلة . . مثال ذلك كالأرض . فهي مسطحة إذا اقتصرنا على بقعة محددة منه، ولكننا إذا نظرنا إليها ككل فهي كروية، فالصورة الثانية أدق من الأولى، والأولى تلتقى مع الثانية فى نطاق المساحات المحددة .

(٢) الإسلام بين الشرق والغرب ص ٧١ وما بعدها .

ولم يخرج المؤلف عن طرق علمائنا السابقين في هذا السبيل الذي سلكه قبله أمثال الإمامين الغزالي وابن القيم في نظراتهم التشرحية للإنسان كآيات الله عز وجل ثم يطرح السؤال المناسب بعد العرض التفصيلي لهذه الآيات الباهرة التي يفسرها الدين بأنها من خلق الله عز وجل لم أليست هذه أكبر خرافة غدت عقل الانسان، أن تطلب من شخص ما أن يتقبل عقله أن شيئاً على درجة من الكمال والتعقيد كعين الإنسان أو عقله قد وجد بمحض الصدفة ؟

يشبه أن تطلب من شخص أن نقبل بأن الأساطير الإغريقية حقائق واقعة^(١) .

وما يدحض زعم الصدفة أو الاحتمال قول العالم الروسي (بلاندين) : لو أن مليون معمل في الأرض عملت لبضعة ملايين من السنين في تركيب العناصر الكيماوية ، فإن احتمال خلق حياة في أنبوبة اختبار ستكون شيئاً نادراً
فالفرضية هي (١ الى ١٣١٠) طبقاً لحساب هولدن^(٢) .

ثم يعلق المؤلف بقوله (هذا هو الأمر بالنسبة للتنظيم الذاتي لجزء واحد من البروتين إذا قورن بكائن حي ، فإنه يشبه طوبة إذا قورنت بمبنى كامل)^(٣) .

وبعد ذلك ينتقل إلى مواجهة ازدواجية العالم الحي في التسلسل . إنه هنا يواجه مرة أخرى التعارض نفسه الذي وجدته بين الحيوان والإنسان ، ولكن على مستوى أقل درجة ، أى على مستوى المادة في مقابل الحياة ، ولأول وهلة يظن القارئ أنه موضوع جديد ، ولكن لا يلبث أن يكتشف اتصاله بما سبق ، لأنه يهدف للوصول إلى تأكيد فكرة الخلق^(٤) ، ويقدم الدليل على أن التطور لا يتقدم بطريقة عمياء أو آلية كما ظن دارون .

ولهذا أسس بيجوفيتش اقتراحاته على إحلال حقيقة الإنسان بلحمه ودمه

(١ ، ٢) الإسلام بين الشرق والغرب . (٣) الإسلام بين الشرق والغرب .

(٤) الإسلام بين الشرق والغرب ص ٧٤ ،

وروحه بدلاً من إنسان دارون، والعناية بالتنشئة والتربية قبل التمرين والإعداد ، وتعديل نظم التعليم وفق أوليات حاجات الإنسان، وإعلاء القيم الأخلاقية العالمية بدل المصلحية والتفعية .

وهذه الاقتراحات من شأنها - لو نفذت - منع الحضارة من التدهور .

٤ - نحو الطريق الثالث فى ضوء التجارب البشرية :

يرى بيجوفيتش أن أوروبا بنت أفكارها منذ العصور الوسطى فى إطار الاختيارات المسيحية :

إما مملكة الرب وإما مملكة الأرض، الدين أو العلم، الكنيسة أو الدولة .

أما التوفيق بينهما فقد وجد حلاً عند فلاسفة الإنجليز فيما سماه (الطريق الثالث) بين طرفين متعارضين .

أنه يرى أن نجاح الفلسفة التجريبية فى ذاته يحقق انتصار الفكرة الإسلامية القائمة على التوفيق بين الروح والمادة أو بعبارة أخرى فإن التجارب البشرية فى مجالى الفكر والواقع تعطى للإسلام دفعة تفوق ظاهرة .

ويعلل منهج بيجوفيتش هذا بأنه كان تلميذاً مخلصاً للشقافة العربية الإسلامية إذ تأثر تأثراً قوياً بالمفكرين المسلمين وعلى الأخص (ابن سينا) الذى اعتبره بيجوفيتش أعظم فيلسوف ظهر بعد أرسطو .

وما زالت انجلترا مخلصه لهذا الوضع الفكرى بدليل ما تميزت به شخصية (برنارد شو)^(١) الذى كان يدعو إلى الاشتراكية وإلى الحرية الفردية فى آن واحد .

(١) يضيف برنارد شو حضارة الإسلام بترابط أجزائها وتماسك أطرافها تحمل فى طياتها عقيدة ومع أن الإسلام (يقصد المسلمين) فقد سيطرته على بعض الأشياء المادية، لا سيما ما يتصل بالحرب، ولم يلحق بالتقدم التكنولوجى الحديث، إلا أنه بإمكانه تعويض ما فاتته بتوجيه الخبرات إلى تحصيل العلوم الهندسية الجديدة. وفى المقابل، فإن الحضارة الغربية ذات منزلة رفيعة فى التقدم التكنولوجى، ولكن فقدت التعاليم الروحية، بينما لم يزل الإسلام يحافظ عليها .
(الاسلام قوة الغد العالمية ص ٢٢٣ نقلا عن مقال د/ محمد شامه بمجلة الأزهر - جمادى الأول ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م) .

وامتد أثر بيكون بمنهجه التوفيقى إلى عدد من المفكرين الانجليز ، أمثال شافتسبرى الذى وصف الأخلاق فى حالة من التوازن بين الأنانية والغريزية وأمل فى التوفيق بين الفرد والمجتمع ، كما أصبحت العلاقة الوثيقة بين الفلسفة والدين خصوصية من خصوصيات (مدينة كامبريدج) .

ومن أشهر أصحاب الطريق الوسط أيضاً آدم سميث الذى ألف كتابين بينهما تناقض ظاهر ولكنهما متكاملان من حيث المضمون :

أحدهما: نظرية المشاعر الأخلاقية والثانى: وأسباب ثروة الأمم الذى تناول الاقتصاد ويتخذ لفكرته الرئيسية مبدأ الأنانية .

ومما يزيل شبهة التناقض أيضاً أن (سميث) كان أستاذاً فى جامعة (جلاسجو) يدرس الأخلاق والاقتصاد والسياسة كأجزاء من برنامج دراسى متكامل فى الفلسفة .

ولم يخل أيضاً التطبيق للنظام الاشتراكى الانجليزى من ظاهرة (الطريق الثالث) إذ ارتبطت الاشتراكية فى أوروبا ارتباطاً وثيقاً بالفلسفة المادية والإلحادية بينما نسمع من منصة حزب العمال البريطانى مقتبسات من الكتاب المقدس مثلما نسمعها من منبر الكنيسة هناك .

جهاد المسلمين في مواجهة الماركسية :

ولم يكن الرئيس علي عزت بيغوفيتش الذي قام وحده بدرء الماركسية، ثقافياً وفلسفياً وسياسياً - وإن احتلَّ المكانة الأولى - فلن هناك أيضاً أدباء وشعراء قاموا بالجهاد الثقافي لدرء فتنة الإلحاد الماركسي في بلاد آسيا الوسطى الإسلامية ودول البلقان معبرين بأعمالهم على عمق التدبُّن في القلوب فاستحال انتزاعه بالرغم من كل ما لاقوه ! ، وقد جمع الدكتور محمد حرب بعض أعمالهم في كتابه (المسلمون في آسيا الوسطى والبلقان) .

ومن أروع النماذج الدالة على روح الإسلام الخالدة ، قصة الكاتبة اليوغوسلافية الدكتورة / ملكية صالح بيكوفيتش الحاصلة على درجة الدكتوراه في الفلسفة من جامعة السوربون في فرنسا ، والتي انفردت عام ١٩٨٧م بلبس الحجاب من بين ثلاثة ملايين امرأة مسلمة في يوغوسلافيا ، وتعرَّضت للسجن ولأشد ألوان الاضطهاد حتى اضطرت الحكومة اليوغوسلافية أمام إصرارها على موقفها وثباتها على الإيمان إلى إعطائها وابنها جواز سفر، ووضعتهما على أقرب طائرة لتهاجر بدينها ^(١) .

كذلك أدت الشعوب الإسلامية المقهورة دورها في المحافظة على عقائدها في أقسى ظروف عرفتها تاريخ البشرية، بل لم يعرف لها مثيل من قبل ! وقامت الآن تبحث عن هويتها ، ففي مناطق الجمهوريات الخمس عارضت السلطات المعنية من قبل موسكو منادية بالإسلام .

وبقيت على الأمة الإسلامية - حكومات وشعوباً - واجبات نحو إخوانهم الذين وقعوا فريسة الدُّب الروسي أكثر من سبعين عاماً ، لإنقاذهم من صنوف

(١) المسلمون في آسيا الوسطى والبلقان ٢١٨ / ٢٢٠ د / محمد حرب ط المركز المصري للدراسات
العثمانية وبحوث العالم التركي - مدينة نصر القاهرة ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م .

جديدة من المحن الشديدة والمخاطر المتوقعة وتتمثل في :

(١) المذهبية الإيرانية والعلمانية التركية^(١) .

(٢) التنصير الذي انتهز دعاته فرصة تشتت شعب الأخسقا المطالبين بعودتهم إلى ديارهم في جورجيا^(٢)، أو الشعب الألباني الذي يعاني من الفقر والفاقة، ولكن قام المفتي هناك ليصرِّح أمام أربع قوافل متطوعين من الفاتيكان ليصرح بقوله: (إننا نموت جوعاً ولا نقبل أن يحدثنا الكفار عن دينهم)^(٣) .

ولا يفوتنا في رحمة هذه المآسي أن نذكر بشعب التركستان الذي سطر صفحات خالدة من الجهاد بدماء شهدائه - ولا يزال - للمحافظة على إسلامه ومقاومة جور حكومات الصين الشيوعية التي تقتل المسلمين وتجرم الإسلام^(٤) .

إن على العالم الإسلامي واجبات ضرورية وملحة نحو هذه الشعوب ، ومن اليسير تقديم العون لها ومساعدتها للعودة إلى هويتها الإسلامية والوقوف على قدميها ثقافياً واقتصادياً وسياسياً وعالمياً ، وسيكون العائد مجزياً ، مادياً وأدبياً لما تذخر به هذه البلاد من ثروات ضخمة ، وما يُعرف عن أهلها من البأس الشديد ، ولعل من منح الله تعالى للأمة الإسلامية - وهي في محنها المعاصرة - أن يمدّها بمدد جديد ليقوي شوكتها ، ويسرع بخطاها نحو النصر .

إن هذه المساعدات - كما يحددها الدكتور محمد حرب - تتمثل في (الدعاة، مُحفِّظي القرآن الكريم، مدرّسي اللغة العربية، افتتاح المدارس العربية، افتتاح المدارس الإسلامية، الكتب، أساتذة متطوعين من مختلف التخصصات الإسلامية، مشروعات تجارية، استثمارات، هبات، أوقاف،

(١) نفسه ص ٣٢ (٢) نفسه ص ١١٢

(٣) نفسه ص ٢٢ (٤) نفسه ص ١٣٥ ، ص ١٧٤ .

إذاعات موجّهة، أشرطة كاسيت وفيديو، دعوات للزيارات المتبادلة، إنشاءات، منح طلابية واسعة، منح في الجامعات العربية الإسلامية، منح في الكليات العسكرية الإسلامية، مطابع عربية، ترجمات من العربية تشرح معاني الإسلام في مختلف الميادين، إنشاء أقسام لدراسة هذه البلاد الجديدة دولياً في مختلف الجامعات الإسلامية، اهتمام الصحف العربية بنواحي الحياة في هذه البلدان، تكوين رأي عام عربي فيه من الوعي ما يدفع الشباب الصغار السن إلى تبني قضايا الإسلام في التكوين الإسلامي الدعوى في هذه المناطق (١) .

وسنعرض في الباب القادم عن أثر تهافت الماركسية على ثقافة العصر وصداها على الفكر الإسلامي .

(١) نفسه ص ٣٠ / ٣١ .

الباب الثاني

ما بعد انهيار الاتحاد السوفيتي

وتماقت الماركسية

[أثر الواقعة على ثقافة العصر]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قال تعالى : ﴿وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ

لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا﴾

(الكهف : آية ٥٩)

يرى العلماء أنه كما يحدث للزلازل الأرضية توابع، فكذلك حدثت توابع ثقافية على أثر انهيار الاتحاد السوفيتي وتهافت الماركسية، فهناك نظريتان جذبتا انتباه الباحثين والمعلقين السياسيين والكتاب، وعقدت لهما الندوات، ودارت حولهما المناقشات، وهما :

أحدهما: نهاية التاريخ، وخاتم البشر لفوكوياما^(١) .

والثانية : صدام الحضارات لهانتجتون^(٢) .

وسنكتفي ببعض شوايخ الفكر الإسلامي الذي لم تفته متابعة هاتين النظريتين، ومناقشتهما ونقدهما، ومنها تتجمع لدينا حصيلة جديدة تُضاف إلى نهر الفكر الإسلامي الذي لا ينضب، ويتجدد مع توالى القرون ، ويقوى ويشدد عوده بسنن الله عز وجل فى التدافع ، قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفُتَّتْ صُلُوحُكُمْ وَبِيعَ صَلَوَاتُكُمْ وَمَسَاجِدُكُمْ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ (سورة الحج الآية ٤٠) .

(١) فرانسيس فوكوياما ، كان نائباً سابقاً لمدير مجموعة تخطيط السياسية بوزارة الخارجية الأمريكية ، وهو حالياً مستشار لمؤسسة راندكور بقرلشن فى واشنطن .
(٢) هو أستاذ كرسي إيتون لعلم السياسة ومدير معهد جون م . أولين للدراسات الاستراتيجية فى جامعة هارفرد .

أولاً : نظرية نهاية التاريخ وخاتم البشر

يبشر فوكوياما، كما سجل في مقدمة كتابه، بأن الديمقراطية الليبرالية قد تشكل نقطة النهاية في التطور الأيدلوجي للإنسانية، والصورة النهائية لنظام الحكم البشري، وبالتالي فهي تمثل «نهاية التاريخ»^(١).

وفيما يتصل بموضوعنا - أي الفكر الإسلامي - فقد مر فوكوياما مرور الكرام على الإسلام معترفاً بميزته^(٢)، ولكنه قرر بلا تحليل أو دراسة كافية أن الإسلام ليس بوسعه تحدى الليبرالية الديمقراطية على أرضها، وهذا صحيح من زاوية الإصرار على العناد وتلقى الفكرة المشوهة عنه بواسطة المستشرقين والمبشرين لحجب حقائقه عن أهل أوروبا، ولو عُرِض بأمانة لكان سبباً في دخول الكثيرين منهم إلى الإسلام كما هو مشاهد لأنه يتفق مع الفطرة الإنسانية ويخاطب العقل ويلبى الشوق إلى معرفة الرب عز وجل وعبادته وحده، ولكن - مع الأسف - استقبله الغرب بحفاوة بالغة لوصفه للإسلام بأنه العدو القادم^(٣).

(١) نهاية التاريخ وخاتم البشر، فرانيس فوكوياما، ترجمة حسين أحمد أمين - ط - مركز الأهرام للترجمة والنشر، ١٤١٣هـ، ١٩٩٣م. ويصف الناشر الكتاب بأنه (لم يثر كتاب آخر مثلما أثار كتاب فوكوياما من جدل صاحب على النطاق العالمي ..

(٢) نفسه ص ٥٦ .

(٣) وزعم فوكوياما (أن هناك عدواً قادمًا للحضارة الغربية هو الإسلام .. لأنه نظام قائم على عقيدة .. فهذه الأيدلوجية ستصبح هي النقيض للأيدلوجية الغربية .. وبالتالي لابد أن يتصر أحدهما وينهزم الآخر لأن العالم لن يستمر في حالة صراع بين العقيدتين : (الغربية والإسلام) . ويصف الدكتور رجب البنا الضجة التي أثارت حول المؤلف وكتابه بقوله (وأصبح الرجل المجهول فرانيس فوكوياما من أعلام القرن العشرين .. كل جامعة تدعوه لشرح نظريته .. وكل مجلة وصحيفة تذهب إليه ليتحدث إلى ملايين القراء عن هذا الفتح المبين .. وعلماء ومفكرو فرنسا وألمانيا وسويسرا يلتقون مع هذا المبقر المجهول ليناقدوا معه هذه النظرية .. وليذهبوا إلى جامعاتهم ومراكزهم وأبحاثهم لينشروا الفكرة) ص ٢١٢ / ٢١٣ من كتاب (الغرب والإسلام) رجب البنا - ط دار المعارف مصر سنة ١٩٩٧م .

ومع هذا فقد عارض البعض نظريته، وكذبوا تنبؤاته، منهم الدكتور جمال حمدان الذى رأى أن الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة كما قاما معاً فى غفلة من الزمن، ستسقطان معاً فى ساعة الحقيقة. ولقد سقط الاتحاد، والدور على الولايات (والأيام بيننا). ويستند فى رأيه إلى أن كلتا الدولتين (كلتاها عرقياً وجنسياً وقومياً ودينياً . . . إلخ) فسيكون هذا عامل سقوط فعال، رغم البوتقة الأمريكية المزعومة، فهى عجزت عن هضم السود (المشكلة التى لم تعرفها البوتقة السوفيتية الشيوعية، حيث عجزت الشيوعية عن هضم القومية) ^(١)

ويضيف أن الذى حدث بعد اندثار الاتحاد السوفيتى ليس «نهاية التاريخ»، ولكن «تراجع التاريخ» فلقد رجع، أو «نكسة التاريخ» ^(٢).

ويقول فى موضع آخر من كتابه موجّها حديثه إلى صاحب النظرية (كلا يا فوكوياما، وأنصاره: القضية ليس «نهاية التاريخ» بل «نهاية الجغرافيا» لأن الأساس القاعدى الدفين وغير المنظور: القومية (وإن كان منظوراً للعيان هو العنصر أو الجنس أو العرق) ^(٣).

كذلك أكدت الدراسات والبحوث المتصلة بتنبؤات المستقبل أن هناك تحولات سياسية واقتصادية ستزعزع الزعامة من الولايات المتحدة الأمريكية، أو على الأقل تشاركها فى مواصفات الدول الكبرى.

وأهم هذه الدراسات، ما أورده الرئيس الأسبق ريتشارد نيكسون بكتابه (١٩٩٩ نصر بلا حرب)، فكتب قبل تفكك الاتحاد السوفيتى (ولئن ظلت

(١) كتاب (صفحات من أوراقه الخاصة س ١٧٤، إعداد وتقديم د/ عبد الحميد حمدان، دار الغد العربى، بالقاهرة ١٩٩٦م).

(٢) نفسه ص ١٧٥.

(٣) نفسه ص ٨٤.

الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي القوتين الغالبتين في نهاية القرن، فكل ما يحدث بعد ذلك رجم بالغيب، وبناء على معدلات النمو الحالية، فإن اليابان ستفوق في التاريخ القومي الإجمالي على الولايات المتحدة ، وسيكون لها من القوة العسكرية ما تختار سياسياً أن يكون لها. وستصبح الصين دولة عظمى اقتصادياً وعسكرياً. أما أوروبا الغربية، فإن قرنت براعتها الاقتصادية الفائقة بوحدة سياسية ، انضمت إلى صفوف الدول العظمى (^(١)) .

الرأي المضاد : رأي بول كنيدي :

وبخلاف الفكرة الشائعة عن النظام العالمي وتوقع سريانه على العالم فإن هناك نبوءة بول كنيدي في كتابه (صعود وسقوط القوى العظمى) متوقفاً انهيار القوة الأمريكية في العقود القادمة . وذلك تطبيقاً لقانون عام صاغه من صعود وسقوط الامبراطوريات. هذا التعميم صاغه بناء على دراسة تاريخية، خلص منها إلى قانون عام مبناه أن « كلما فاقت التزامات القوى العظمى الاستراتيجية قدرتها الاقتصادية، تسقط هذه القوة وتنهار »، بينما رجم فوكوياما برده المباشر على بول كنيدي أن الليبرالية تمثل النموذج الأمثل الذي سيطبق إلى الأبد ومعنى ذلك أننا قد وصلنا إلى « نهاية التاريخ » (^(٢)) .

ويرى الأستاذ / السيد يسين أننا إذا تأملنا حركة الصعود والهبوط في النظام العالمي سنلاحظ صعود بعض القوى الآسيوية كالصين واليابان (^(٣)) .

-
- (١) كتاب (١٩٩٩ - نصر بلا حرب) ريتشارد نيكسون ص ٢٣٨ إعداد وتقديم المشير محمد عبد الحليم أبو غزالة ، مركز الأهرام للترجمة والنشر ١٠٩ - ١٩٨٨ م .
- (٢) الوعي التاريخي والثورة الكونية، حوار الحضارات في عالم متغير ص ٢٣٧، السيد يسين، مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالقاهرة ١٩٩٥ م .
- (٣) نفسه ص ٢٣٧ ..

ويقول فى موضع آخر (وإذا كان المسرح الدولى يسيطر عليه ثلاث قوى: المدنية الغربية الرأسمالية والنظم الماركسية، والإسلام، وإذا كانت المدنية الغربية الرأسمالية أصبحت علمانية وتخلصت - إلى حد كبير - من الإطار الدينى الذى كان يحكم إدراكها للعالم فلم يبق كمتحد سوى الإسلام الذى يقوم على الوحدانية، والنظم الماركسية التى تقوم فى عقيدتها على الإلحاد، والآن وبعد سقوط النظم الماركسية، لم يبق فى الساحة سوى المدنية الغربية والإسلام، ثم يتساءل هل معنى ذلك ضرورة، وحدث مواجهة بينهما؟^(١) .

قبل البحث عن إجابة للسؤال علينا أن نسجل ما اتفق عليه الباحثون من حدوث « ثورة هادئة » فى القيم فى بنية المجتمعات الصناعية المتقدمة حسب تعبير الباحث الأمريكى البارز انجلهارت .

ويعلل بعض الباحثين هذا التغيير فى الاتجاهات والقيم إلى التحول من إشباع الحاجات الأساسية للجماهير إلى أن تولى بصرها إلى الإشباع الروحى ولا بد أن يودى ذلك إلى حركة إحياء دينية برزت معالهما فى كثير من المجتمعات المتقدمة .

وقد فسرهما عالم الاجتماع الأمريكى دانييل بل بسبب وصول الحداثة إلى منتهاها ولم تتحقق السعادة للبشر بعد شيوع السلع ونحت تأثير ثقافة الفرد أساساً على الاستهلاك الدائم كغاية، مما أدى إلى شيوع الاغتراب فى المجتمعات، مما أدى إلى (عودة المقدس) إلى الحياة مرة أخرى^(٢) .

ومادامت (الثورة الهادئة) قد أحدثت تغييراً فى القيم وعادات المجتمعات الغربية إلى البحث عن الإشباع الروحى، مع تطلع (حضارة الباسفيك): اليابان

(١) نفسه ص ٩٥ .

(٢) نفسه ص ١٥٠ .

والصين، إلى وراثة الحضارة الغربية كلياً أو نسبياً، عندئذ هل يصبح الحوار بديلاً للمجابهة ؟

ويرجح ذلك الدكتور رشدي فكار، وإذا كانت العقبة الآن فى تأزم حال المسلمين، فلا يعنى ذلك تأزم الإسلام، ويقول (فكما نكرر دائماً أزمة جيل ليس بأزمة مصير، وأزمة نخبة ليست بأزمة أمة، فالمسلم المتفهم لإسلامه والمتفاهم معه سهل عليه أن يفهم ويتفاهم مع أخيه المسلم، ويصبح قادراً على أن يتحاور أو يتواجه موضوعياً مع الآخرين .

ولن يتحقق هذا المسلم عن طريق الإشباع الاستهلاكي ولكنه يستعيد مكانته بين موائد الكبار بتحقيق ذاته وبناءه كإنسان فى عصر عزت فيه إنسانية الإنسان (فهو بملياره المتحلى بسلوك القرآن، الإنسان المتوازن المتعادل، روحاً وجسداً ونفساً، المتعادل فى مشيته وإنفاقه بل حتى فى صوته الخاشع لربه ومنه يستلهم الهدى والنور، هذا المسلم السوى بسلوكه المتميز سوف يجسد أداة تصحيح لتطور تكنولوجى وعلمى وصناعى آل فى النهاية بالإنسان إلى ما يشبه الآلة الصماء...) (١)

بداية التحول التدريجي من الغرب إلى الشرق :

وعما يُوجّه من نقد إلى نظرية فوكوياما أيضاً، أنه كان متحيزاً ولم يسلك سبيل المنهج العلمى الموضوعى، متجاهلاً التحول التدريجى تقنياً وصناعياً واقتصادياً الذى بدأ منذ سنوات .

إن النظرة العلمية وفق منهج دراسة قيام الحضارات وسقوطها الذى اتبعه

(١) د . رشدي فكار ، ... ونهاية عمالقة فى حضارة الغرب ، ص ١٣٨ / ١٣٩ ، إعداد وتقديم سيد أبو دومة - مكتبة وهبة بالقاهرة ١٤٠٩ هـ / ١٩٨٩ م .

المؤرخ البريطاني أرنولد توينبي، هذه النظرية ساقته إلى توقع تقلص نفوذ الحضارات الغربية بسبب تحول المنجزات التكنولوجية من بلد إلى آخر، وقيام أمم أخرى بتطوير حياتها العلمية وفقاً لأحدث النظم (واقتباسها - بل ابتكارها - المستحدثات العلمية والتكنولوجية . وبالأحرى، لم تعد المعرفة التكنولوجية والخبرات الفنية حكراً لأمة تتيح لها - بمفردها - السيادة على بقية العالم، أو على مناطق منه)^(١) .

وفى دراسة حديثة صدرت فى اليابان لليابانى شنتارو إيشهارا - كتب يقول : (فالواقع أن قوة العالم اليوم، التقنية والصناعية والاقتصادية آخذة فى التحول التدريجى من الغرب إلى الشرق)^(٢) .

وصاحب هذه الدراسة عضو بارز فى المجلس التشريعى اليابانى، وأحد قيادات الحزب الليبرالى الديمقراطى فى اليابان .

وقد صحّ توقع توينبى المبنيّ على الدراسة المتأنية للحضارات، وبحث العلاقات بينها، وإقامتها وسقوطها على ما سماه بقانون (التحدى والاستجابة)، واستبعاد فكرة سيطرة حضارة واحدة بصفة أبدية، بل اختار فى كتابه بعنوان (العالم والغرب) عمداً، أى قدّم (العالم) على (الغرب) لوعيه التام بنقطتين : الأولى : أن الغرب لم يكن يمثل يوماً من الأيام كل العالم، بل لم يكن الممثل الوحيد الذى يقف بمفرده على خشبة مسرح التاريخ الحديث حتى عندما كان فى قمة قوته وجبروته، بل إن القمة بالنسبة للغرب قد انتهت .

(١) حضارة الإسلام فى دراسة توينبى للتاريخ ص ٩١ ، تأليف فؤاد محمد شبل ، دار الكاتب العربى بالقاهرة ، ديسمبر ١٩٦٨ م .

(٢) ص ٣٤ من كتاب (اليابان لم تقل لا - صراع المستقبل بين الكبار) ، ترجمة هالة العورى ط ، يافا للدراسات والأبحاث بالقاهرة ١٩٩١ م .

أما النقطة الثانية : فهي أن العالم فى الصراع الدائر منذ أربعمئة أو خمسمئة عام بينه وبين الغرب ، هذا العالم هو الذى تلقى الصدمة من جانب الغرب وكانت قاسية ^(١) .

ويبدو أن نتائج هذا الصراع بدأت تتضح فى شكل استقلالية تجارب بعض شعوب قارة آسيا ، وها نحن نعاصر الآن التجربة فى ماليزيا بأطراف العالم الإسلامى ، حيث تبزغ شمس تجربة جديدة تجمع بين الإسلام والتنمية الاقتصادية والتكنولوجية .

· يقول الدكتور محاضير محمد رئيس وزراء ماليزيا : (إنه على مدى مئات السنوات الماضية كان الغرب - فى البداية أوروبا ثم شمال الأطلنطى بعد ذلك هو مركز السيطرة فى العالم ، وكان مصير آسيا معلقاً بقرارات وأفعال هذه السيطرة المركزية ، واليوم فلإن منطقة الشرق الأقصى التى نعيش فيها تقود التجمع الاقتصادى لآسيا والباسفيك ، وتعيش مرحلة تحول جذرية) ^(٢) .

وجاء فى خطابة الذى ألقاه بمناسبة حصوله على جائزة الملك فيصل للخدمة الإسلام عن عام ١٤١٧هـ (١٩٩٧ م) : (إن التقدم الذى حدث فى ماليزيا بعد دخول الإسلام فيها وفى العصر الحديث يُعزى أساساً إلى أن الإسلام قدّم لنا نظام حياة كاملاً) ... فما رأى فوكوياما !؟

وبالرغم من الخلاف فى وجهات النظر فيما يتعلق بفهم التعاليم الإسلامية ،

(١) ص ٩٨/٩٧ من كتاب : (أرنولد توينبي) لمعي المطيعي ، دار الكاتب العربي بالقاهرة ١٩٦٧ م .
(٢) من كتاب (صوت آسيا) تأليف محاضير بالاشتراك مع شينتار وإيهارا نقلاً عن عرض الكتاب لمنصور أبو العزم بجريدة الأهرام فى ٩٧/٨/٢ س ٦ ، وينطق البعض الاسم (مهاتير) ، وهذا خطأ .
(من أقوال مفتي كوالالمبور فى حوار مع مندوب مجلة منار الإسلام بالإمارات ، ربيع الثاني ١٤١٨هـ - أغسطس ٩٧ .

عاد فقال (إلا إننا بالرغم من ذلك ظللنا مؤمنين وملتزمين بالإسلام نستهدى به ونحن فيما نصبو إليه من تقدم مادي لا ننسى ديننا أو نتركه جانبا ، بل نؤمن بكل تأكيد بأن ما يتحقق لنا من تقدم مادي يتوافق مع تعاليم الإسلام ويساعد في تحقيق الأخوة الإسلامية والعزة والمنعة التي نحتاج إليها للدفاع عن أنفسنا وعن عقيدتنا في مواجهة من يحاولون عزلنا عن ديننا وتحطيم عقيدتنا)^(١) .

ولازالت تحتفظ الأمة بطاقت بشرية واقتصادية هائلة ولا ينقصها الاستعداد فهي تستطيع بعلمائها أن تقتحم القرن الواحد والعشرين بالتنسيق والتعاون والمثابرة على العمل المنظم وفق تخطيط محكم وتعاون بين العلماء بكافة فروع العلم .

والمثال الواقعي الثاني على ذلك قد تحقق بنجاح باكستان في صنع برنامج نووي . يقول البروفسور عبد القدير خان - أبو القنبلة الباكستانية - (إن المشروع النووي الباكستاني بكل معانيه هو قصة بطولية لإرادتنا الوطنية وتفوقنا ، إنه رمز للدولة الكريمة التي ترفض الخضوع لأعدائها وتعتمد على نفسها وشعبها) ويصف المشروع أيضاً بأنه (جهد كل الشعب الباكستاني - وهو رمز للدولة الفقيرة والنامية للتحديث وللنضال ضد سيطرة وابتزاز الدول الكبرى)^(٢) .

(١) مجلة (العالم الإسلامي) ، مكة المكرمة ١٥ - ٢١ ذو القعدة ١٤١٧هـ (٢٤ - ٣٠ مارس ١٩٩٧م) وقد رشحته الندوة العالمية للشباب الإسلامي ومُنح الجائزة لجهوده العظيمة التي من أبرزها كونه مثلاً حياً لقيادة إسلامية تجمع بين التأكيد على القيم الجوهرية للإسلام فكراً وعملاً ، وبين استخدام وسائل النهضة المعاصرة استخداماً يجعل بلاده في طليعة الدول التي تشهد تقدماً تقنياً واقتصادياً رائعاً . . . وإنشائه مؤسسات حضارية إسلامية مهمة كالجامة الإسلامية الدولية والبنك الإسلامي ومركز فهم الإسلام ومؤسسة التنمية الاقتصادية الإسلامية ، هذا وقد تعرضت التجربة هناك - كما هو متوقع - لحرب شعواء قادها الملياردير الصهيوني جورج سوروس إذ كان العقل المدبر لهجمات المضارين ضد العملات النقدية لدول جنوب آسيا منذ يوليو سنة ١٩٩٧م .

وعندما شكى رئيس الوزراء هذه الجرائم قامت ضده حملة ضارية تتهمه بمعاداة اليهود ، (فنفى أنه معاد لليهود وقال : (لقد قلت إنه بالمناسبة فهذا الشخص (سوروس) يهودي وبالمناسبة أيضاً فنحن مسلمون

(٢) مجلة المختار الإسلامي - العدد ١٦٩ ، ١٥ رمضان ١٤١٧هـ ، ٢٣ يناير ١٩٩٧م من ص ٥٢ - ٧٢

ولا ينبغي أن تمرّ بنا هذه التجارب الناجحة الدالة على التوافق بين تطبيق تعاليم الإسلام والأخذ بالتكنولوجيا المعاصرة من الكرام في الوقت الذي ثبت فيه فشل النظام الكمالي العلماني الذي أراد أن يقطع الصلة بينه وبين الإسلام واهماً أنه ستحقق التقدم المنشود، بل ينبغي أن نتعلّم منه :

إنه درس كلّ الأمة ضياع أجيال، يقول الأستاذ فهمي هويدي :

(إن المشروع الكمالي العلماني فشل في تركيا، ولم يحقق شيئاً من أهدافه النهائية رغم مضي أكثر من سبعين سنة على تطبيقه، فلا انتزع الإسلام من تركيا ولا هي نجحت في الالتحاق بالغرب، وإنما حدث العكس، حيث تنامت قوة التوجيه الإسلامي في البلاد، حتى أصبح حزب الرفاه، وهو أبرز تعبير سياسي عن ذلك التوجه أهم قوى سياسية في تركيا، وفي الوقت ذاته فإن أوروبا مازالت ترفض قبول تركيا ضمن مجموعتها، مفضلة أن يكون الزواج التركي الغربي عريفاً وليس شرعياً^(١) .

ومالم يقله الأستاذ فهمي هويدي أن أوروبا رفضت تركيا لأن دينها الإسلام، والله غالب على أمره .

دور الدين في حركة التاريخ :

لم يتنبّه فوكوياما إلى دور الدين في حركة التاريخ ولم يعن به العناية الكافية، بينما كان من أوئل متطلبات بحثه الاطلاع على كتابات وبحوث بعض العلماء

(١). الأهرام - الثلاثاء - ٢٠ / ٥ / ١٩٩٧م

قبله الذين أعطوا عنايتهم لدور الدين فى التاريخ وأثبتوا أنه من أكبر المحركات لعجلة التاريخ، وأبرزهم من يُعرفون (بأصحاب المذهب الربوبى) فى القرنين ١٧، ١٨ الذين ركزوا على التأكيد على الدين فى التاريخ .

وهيجل الذى احتل حيزاً كبيراً من كتاب فوكوياما هو الآخر عنى بالدين فى التاريخ لأنه حسب رأيه (ليس مهتماً فقط ولا بصفة رئيسية ببلوغ الغايات الخلقية فى الزمان ، ولكنه فى جوهره علاقة مباشرة بين المحدود المتناهى وغير المحدود اللامتناهى، أعنى الأبدى)، بل اعتبر (التاريخ العام) أحد الآيات الجديرة بإعجاب الناس فكتب (وقد جرت عادة الناس ردها من الزمان بالتعبير عن الإعجاب بحكمة الله ، كما تتجلى فى الحيوان والنبات وفى الأحداث الفريدة، ولكن إذا جاز أن تلك (العناية) تتجلى نفسها فى أشياء وأشكال كهذه من الوجود ، فلماذا لا تتجلى نفسها أيضاً فى « التاريخ العام » ؟

كذلك اعترف (ويلز) بالدين فى التاريخ وجاء أكبر مؤرخى العصر: توينبى، فجعل المتغير النهائى الذى قدمه للتاريخ تفسيراً دينياً فى أساسه^(١).

إن الباحث الذى يغض الطرف إذن عن التفسير الدينى اليهودى والذى يعمل بموجبه الكيان الصهيونى فى إسرائيل - منذ عام ١٩٤٨ حتى الآن - هذا الباحث لا يعيش فى عصره ولا يحق له التنبؤ (بنهاية التاريخ) ، بل يثير الشك حول نواياه وأهدافه !

هذا ، بينما اهتم توينبى بتاريخ اليهود فى موسوعته التاريخية ليفضح نواياهم

(١) (التاريخ وكيف يفسرونه من كنفوشيوس إلى توينبى تأليف : آلبان . ج ويدجري ، صفحات ١٥٢ ، ١٦٩ ، ١٧٠ ، ٢١٠ ، ٢٣٥) ، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ،

وأطماعهم التي لا تقنع بفلسطين وحدها (بل إن هدفهم النهائي تكوين امبراطورية مركزها القدس، وتتحكم في أقدار العالم الاقتصادية والسياسية بفضل سيطرتهم على موارد الشرق الأوسط الغنية وتحكمهم في موقعه الاستراتيجي الحيوي)^(١) .

ويقول توينبي بعد سرده لمحاولات اليهود منذ تدمير بختنصر المتتالية لإقامة دولة التي باءت كلها بالفشل فطرحوا جانباً (التقليد المقدس القديم الذي يحتم على مؤسس الدولة الجديدة أن يكون من ذرية داود . ولما أن رأى اليهود أن الكوارث تحمل بهم كلما رغبوا في تحقيق حلمهم في إقامة دولة يهودية في فلسطين باستخدام القوة المجردة، أقنعوا أنفسهم بأن ربهم (يهوه) هو الذي يهبط من عليائه فيتجسد في شكل بشر ويتولى دور المخلص للشعب اليهودي ، ويتم الخلاص عن طريق تمكين هذا الشعب من إقامة مملكة دينوية قوامها امبراطورية كبرى تكون أورشليم عاصمتها ، ويكون اليهود فيها الجنس السيد)^(٢) .

(١) حضارة الإسلام في دراسة توينبي تأليف فؤاد محمد شبل ص ٧٨ المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر

١٩٦٨/١٢/١ م .

(٢) نفسه ص ٨٠ .

ثانياً : نظرية (صدام الحضارات)

لصامويل ، هانتجتون .

تتلخص نظرية (صدام الحضارات) لصاحبها صامويل ب . هانتجتون فى أن صدام الحضارات سوف يسيطر على اليابسة العالمية ، وسوف يكون الصدام بين الحضارات هو الطور الأخير فى منحنى تطور الصراع فى العصر الحديث .

ويعرّف الحضارة بأنها أعلى تجمع ثقافى للبشر، كما أنها أعرض مستوى للهوية الثقافية يتمتع بها البشر، وتتجدّد الحضارة بكل من عناصر الأهداف المشتركة مثل التاريخ واللغة والثقافة والتقاليد والأكثر أهمية عامل الدين، ويرى أن الحضارات تمازج وتتداخل، وربما تضم حضارات فرعية (فهناك تنوعان أساسيان للحضارة الغربية هما الأوروبية والأمريكية الشمالية كما أن الحضارة الإسلامية تضم ثلاث حضارات فرعية هي : العربية والتركية والملايو) ويعلل أسباب اصطدام الحضارات المتوقع بالأسباب الآتية وهى باختصار :

١ - الاختلاف بين الحضارات اختلافات أساسية لأنها تتمايز عن بعضها البعض باللغة والتاريخ والثقافة، والعادات وأهم من ذلك الدين كما تقدم، ولكنه يتحفظ فيذكر أن الاختلافات، لا تعنى بالضرورة الصراع، والصراع لا يعنى بالضرورة العنف، ومع ذلك وعلى مدار قرون ولدت الاختلافات بين الحضارات وأكثر الصراعات طويلة الأمد وأشدّها عنفاً .

٢ - يتحول العالم إلى مكان أصغر وتزايد التفاسلات بين شعوب بالحضارات المختلفة مثال ذلك هجرة أبناء شمال أفريقيا إلى فرنسا تولد العداء فى أوساط الفرنسيين ولكنها فى الوقت نفسه تزيد من تقبل هجرة البولنديين الكاثوليك الأوروبيين الصالحين .

٣ - تسببت عمليات التحديث الاقتصادي، والتغير الاجتماعي في فصل الهويات المحلية الراسخة بين البشر كما أنها تضعف الدولة القومية كمصدر للهوية، وفي كثير من مناطق العالم تحرك الدين ملء هذه الفجوة . وعلى ذلك فإن الإحياء الديني يوفر مرتكزاً للهوية والتزاماً يتجاوز الحدود القومية ويقرب بين الحضارات، وقد لاحظ جورج فيجل (إن اقتلاع العلمانية من العالم هي إحدى حقائق الحياة الاجتماعية المهيمنة في أواخر القرن العشرين) .

٤ - إن الدور المزدوج للغرب عزز زيادة الوعي الحضاري خارج أوروبا، ومن مظاهره الانكفاء على الذات، والتحول إلى الطابع الآسيوي في اليابان ونهاية تراث نهرو، والتحول إلى الطابع الهندوسي في الهند وإخفاق الأفكار الغربية عن الاشتراكية والقومية ومن ثم « إعادة أسلمة » الشرق الأوسط، والتحول إلى الطابع الروسي في روسيا .

وبعد تشرب النخبة في المجتمعات غير الغربية بالاتجاهات والقيم الغربية في الماضي، تحولت إلى نزع الطابع الغربي وتأصيل الثقافة المحلية .

٥ - ظهرت أهمية الانتماء الحضاري بعد الصراعات بين الشعوب التي كانت تابعة للاتحاد السوفيتي سابقاً (مثل الأذربيجان والأرمن) . فالسؤال الآن هو (ما هويتك) ؟ ومن البوسنة إلى القوقاز ، إلى مناطق أخرى ، يمكن أن تعني الإجابة الخاطئة على هذا السؤال رصاصة في الرأس .

والدين يُميز - كلياً ويجد - بين البشر أكثر من الانتماء العرقي بصورة جادة، إذ يمكن للشخص أن يكون نصف فرنسي ونصف عربي، وفي الوقت نفسه حتى مواطناً في بلدين، ولكن من الصعوبة بمكان أن يكون نصف كاثوليكي ونصف مسلم^(١) .

(١) باختصار من كتاب (الإسلام والغرب - آفاق الصدام)

تأليف صموئيل بي هانتيجتون ترجمة مجدي شرشر - مكتبة مدبولي بالقاهرة ١٤١٥هـ / ١٩٩٥م .

ويقول هيلموت شميث المستشار الألماني السابق (وما يقلقني الآن هو كتاب نشره المفكر الأمريكي صمويل هانتجتون موضوعه صراع الحضارات وانتشرت الفكرة في العالم، وهو يقول للأمريكيين إن الصراع بين الغرب والإسلام لا مفر منه . . هذه الفكرة غرسها هانتجتون في أرض خصبة لأن الأمريكيين منذ وقت طويل يساندون إسرائيل، ويرى أن خطورة الفكرة أكبر مما نظن^(١) .

والحقيقة أن هانتجتون لا يعبر بآرائه عن موقف المثقفين الغربيين، فهناك من خالفوه في الرأي أمثال إرسكين ب . تشيلدرز ، وبول كيندي ، وفريدها ليداي، مؤلف كتاب (الإسلام وخرافة المواجهة) ، وقد خصص بحثاً ضمن كتابه بعنوان (خطر الإسلام أم خطر على الإسلام ؟ وكان ضمن ما قاله (فقد اختفى منذ أمد طويل الخطر العسكري الذي تثيره قوات إسلامية موحدة (في ظل الامبراطورية العثمانية)، ولكن خطورة رأى هانتجتون في تبنيه لفكرة (ضرورة تدشين القوة داخل صفوف العرب وخلق قوة الإسلاميين)^(٢) .

مناقشة النظرية في ضوء الفكر الإسلامي :

في مناقشة فكرة الصدام ، يذكر د / مانع الجهني - الأمين العام للندوة العالمية للشباب الإسلامي - أن سبب الصدام والتدافع بين الشعوب والأمم هو الاختلاف في المعتقدات والعادات والأفكار ، وبسبب المطامع السياسية والاقتصادية وغيرها، ولكن هذا الصراع لا يمانع من التعاون والتعايش بين الحضارات، ويرشح حضارة الإسلام بين الحضارات لتحقيق السلم والوثام بينها لسببين :

(١) الغرب والإسلام - رجب البنا ص ١٢٣ ط . دار المعارف بمصر سنة ١٩٩٧ م .

(٢) مقال منى ياسين (الإسلام في عيون الغرب) ص ٤٢ ، من كتاب (الغرب والإسلام) ، دار جهاد بالقاهرة ، فبراير ١٩٩٤ م ، ويُنظر كتاب (الإسلام وخرافة المواجهة) ترجمة محمد مستجير - مكتبة مدبولي س ١٩٩٧ م .

الأول : نظرة الإسلام إلى الإنسانية على أنها أسرة واحدة ، وأنهم كلهم خلق الله سبحانه وتعالى ، والاختلافات الموجودة بينهم في العقائد والأفكار والألسن والعادات هي اختلافات طبيعية لابد أن تحصل .

الثاني : اعتراف الإسلام بالأديان الأخرى فلها الاحترام ويوفر الحرية لاتباعها والتعايش السلمى بينها أمر وارد ^(١) .

وشاركه في الرأي الدكتور أحمد القديري الذي يقترح إقامة حوار هادئ بين الحضارات الأخرى باستخدام السلاح الثقافى والاقتصادى والسياسى والاجتماعى فى الصراع المقبل، ويقول: (وإن النصر الذى ننشده للمسلمين فى هذا الصراع الحضارى، ليس نصراً عسكرياً، فنحن نأبى أن نخترل مجد الإسلام فى قوة حربية، وهو دين اتخذ السلام منهجاً، والسلام اسم من أسماء الله الحسنى، كما أن النصر الذى نأمله ليس طغياناً على الحضارات الأخرى، أو إرادة هيمنة على شعوب سوانا بقدر ما هو دفاع مشروع عن أصولنا الروحية، وثوابتنا الحضارية، حتى نعتدها فى تحديد مصيرنا، وصيانة استقلالنا وإنشاء تضامتنا) ^(٢) .

ومن ملاحظات الدكتور أحمد القديري، على آراء هنتجتون أنه يهمل التحدى الأكبر المفروض على الشرق الإسلامى بسبب توسع الدولة اليهودية لا على فلسطين وحدها بل على حساب أراض عربية مسلمة عديدة مما يجعل المعركة الفلسطينية أخطر مواطن صراع الحضارات مستقبلاً، ويستطرد قائلاً: (وإننا نعتقد أن إهمال الكاتب اليهودى لهذا الصراع القادم الحتمى، ليس بسبب نقص فى

(١) د / مانع الجهني، مقال (الصراع بين الحضارات سنة كونية .. والهجوم عليه ليس وليد العصر ، ص ٩٧ مجلة الحرس الوطنى بالرياض) . ذو القعدة ، ذو الحجة ١٤١٦ هـ ، مارس / إبريل ١٩٩٦ م ، (ملف العدد : الإسلام وصدامات الحضارات) .
(٢) ص ٥٠ (الإسلام وصراع الحضارات د / أحمد القديري ، كتاب الأمة ، قطر ذو الحجة ١٤١٥ هـ ، مايو ١٩٩٥ م .

ثقافته، بل هو إهمال مقصود عن أيديولوجية، لأن هنتجتون يريد إيهام قرائه والرأى العالمى، بأن هذه المسألة محسومة، لأنه يضع الثقافة اليهودية فيما يسميه بالمنظومة الثقافية الشرقية التي يضع فيها الإسلام أيضاً هو ضرب من ضروب التضييل، يندرج فى المخطط، بينما الواقع أن الثقافة اليهودية انفصلت فى أواخر القرن التاسع عشر عن جذورها الشرقية، واندمجت فى المشروع الاستعمارى الامبريالى الفكرى والسياسى، ضد العدو المشترك: (الخلافة الإسلامية) (١).

(١) نفسه ص ٥٨ .

أضواء

على الفكر الإسلامي الغربي

في العصر الحديث

أضواء على الفكر الإسلامي الغربي في العصر الحديث :

إن هناك دروساً وعبراً يمكن تعلمها بدراسة آراء بعض الغربيين المسلمين، سواء منهم من وُلدَ مسلماً كالرئيس على بيجوفيتش، أو الذي اعتنق الإسلام مستخياً حواجز البيئة الثقافية والاجتماعية وحملات الدعاية العدائية للإسلام وتشويه تاريخه وحضارته وعقائده، أمثال جارودي، ورينيه جينو ومحمد أسد ود/ هوفمان ومريم جميلة وروجية دوبا سكويه .. وغيرهم .

إنهم يقدمون آية جديدة على أن ما أصاب مجتمعاتنا من نكسات ، لا تمسُّ جوهر حضارتنا، وبإمكاننا النهوض من جديد، فكما وسعهم اتباع تعاليم الإسلام وكانوا بعيدين عنها بُعد المشرقين - فبوسعنا من باب أولى اتباعها - وبين أيدينا الذخائر التي لا تحصى من تراثنا، بل في أعماقنا أيضاً .

ونتقى صفحة واحدة من صفحات تراثنا الغني الذي تعلمت منه البشرية، لنقرأها على مهل ، ونؤجل الحكم إلى نهاية النص :

يضع ابن الوزير اليماني شروط العدالة في رواية الحديث ، فيقول :

... فإنه (يقيم الصلوات الخمس، ويحافظ عليها، ويصوم رمضان، ويؤدى الزكاة ، ويؤدى فريضة الحج إن كان ممن يلزمه هاتان الفريضتان، ويذكر أنه يشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وأن الله عالم قادر، ويعدّد سائر الصفات الذاتية والمقتضاة، وأنه يستحقها لذاته لا لمعنى، ويذكر جميع ما يتعلق باعتقاده من مسائل الوعد والوعيد والإمامة والولاء والبراء، ثم يذكر محافظته على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأمثال ذلك من الواجبات مما يطول تعداده، ثم يذكر اجتنابه للمقبحات، فيقول : إنه لا يقتل النفس المحرمة، ولا يستحله، ولا يزنى، ولا يلوط، ولا يشرب الخمر ولا قليلها، ولا يسرق، ولا يقذف، ولا

يشهد الزور، ولا يغضب أموال الناس، ولا يُربى، ولا يفرّ من الزحف، ولا يأكل الربا، ولا أموال اليتامى، ولا يّعقُ والديه، ولا يكذب على الله، ولا على رسوله ﷺ - ولا على أحد - ولا يكتُم الشهادة بلا عذر، ولا يطفف في المكيال، ولا يبخس الميزان، ولا يؤخر الصلاة عن وقتها لغير عذر، ولا يضرب مسلماً بغير حق، ولا يبغض أمير المؤمنين - عليه السلام - ولا أحداً من العترة، ولا يسبّ الصحابة، ولا يُبغضهم، ولا يأخذ الرشوة، ولا يسعى إلى السلطان، ولا يحرق الحيوان، ولا يتخذ غرضاً، ولا يقع في أهل العلم، ولا حملة القرآن، ولا يلعب بالنرد ولا بالحمّام، ولا يكشف عورته في الحمام، ولا يتساهل في أكل الشبهات والحرام، ولا يسخر، ولا يسحر، ولا ينمّ، ولا يخاصم بالباطل، ولا يتكبّر من قول الحق، ولا يرائى، ولا يُعجب بعمله، ولا يضحك في الصلاة، ولا يبول ويتغوّط مستقبل القبلة ولا مستدبرها، ولا يشرب المثلث (*) ولا يفعل شيئاً من المختلف فيه وهو يعتقد تحريره، ولا يباشر الأجنبية بغير جماع، ولا يجامع زوجته في الحيض والنفاس، - وإن كانت امرأة - أنها تمتنع من زوجها بغير عذر، وتسافر من غير محرم، ولا يحتكر، ولا يبيع على بيع أخيه، ولا يسوم على سومه، ولا يخطب على خطبته، ولا يبيع لبادٍ وهو حاضر، ولا تلقى الركبّان، ولا يُصرّى، ولا يبيع المغيّب بغير بيان، ولا يدخل في شئ من أنواع الغرر، ولا يستعمل النجاسة في بدنه لغير حاجة، ولا يستعمل اللهو بالغناء والمعازف، ونحو ذلك مما لا يكاد الإنسان يحصيه من التأمل الكثير (أ . هـ (١).

ويتبين من النص أن أحكام الإسلام نظّمت أنشطة الإنسان، وغطت حركة حياته كلها .

(*) المثلث من الشراب : الذي طُيخ حتى ذهب ثلثاه (لسان العرب) .

(١) ص ٣٦٥ ، ٣٦٦ ، ٣٦٧ ، من كتاب العواصم والقواصم في الذّب عن سَنَةِ أَبِي القاسم للإمام محمد بن إبراهيم الوزير اليماني المتوفي ٨٤٠ هـ حققه وضبط نصه وخرّج أحاديثه وعلق عليه شعيب الأرناؤوط - مؤسسة الرسالة - بيروت ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م .

وإنها حقاً تجمع الأخلاق والسلوكيات التي اشتراطها العلماء لرواة حديث الرسول ﷺ ، إلا أنها ترقى بالإنسان - إذا ما التزم بها - إلى مستوى خلافة الله عز وجل .

إن حضارتنا إذن، ليست إحدى الحضارات التي نبتت في الأرض ، وإنما هي حضارة السماء .

ظاهرة إسلام الصفوة والإفادة منها :

إن الصفة العالمية للإسلام تقتضي عدم الانكفاء على الفكر الإسلامي بالشرق وحده والاققتصار على دراسة تراث علمائنا الذين وكّدوا مسلمين ، بل تقتضي عالمية الإسلام إضافة الدراسة الجادة للفكر الإسلامي التابع من الغرب ، وحصيلة أذهان رجاله الذين وجدوا في الإسلام ضالّتهم المنشودة بعد رحلة العمر الطويلة .

لذلك كله ، وبعد أن طوينا صفحات ملامح الفكر الإسلامي في العصر الحديث لدى بعض علماء المسلمين ، وانهينا بعرض مجمل لأراء الرئيس على بيجوفيتش ، بقي علينا فتح صفحات جديدة لنطلع على رافد آخر من روافد الفكر الإسلامي التابع من التجارب والمعاناة من بعض الأوروبيين الذين نشأوا في بيئة غربية ، ثم اعتنقوا الإسلام بعد بحث ودراسة فاقنتاع ، وانطلقوا للدعوة إلى الإسلام والإسهام في اقتراح الحلول للأزمات التي تعاني منها حضارتهم ، بل ذهب بعضهم إلى تقديم الاقتراحات والحلول لأزمات العالم الإسلامي ، كما فعل محمد أسد^(١) ، ود/ هوفمان ومريم جميلية وموريس بوكاي .

إن ظاهرة إسلام بعض الصفوة في الغرب جدير باهتمام المعنيين بشئون الثقافة والفكر في العالم الإسلامي ، لا سيما أن الظاهرة تتسع . يقول روجيه دوباسكويه (قابلت في المغرب السفير الألماني دكتور / مراد هوفمان ، الذي أخبرني بإسلام شخصيات هامة في ألمانيا ، منها المتحدث باسم الحزب المسيحي في بون ، وسفير السويد السابق في المغرب .

(١) يُنظر كتابنا (صيحة مسلم قادم من الغرب ، إسلام محمد أسد) ط ، دار الدعوة بالأسكندرية .

واتصلت بالآخر فقال فى معرض حديثه : الإسلام هو الطريق الطبيعى للمفكر الأوروبى ^(١) . وربما يعارضنا البعض بأنها حالات فردية، ولكن النظرة المتأنية فى مجموع آرائهم تكشف أنها ليست صدق لتجربة فردية بل يمكن تعميمها إذا نظرنا إليها من زاوية اعتبارهم من الصفوة، إنهم لا يعبرون فقط عن تجاربهم الشخصية بقدر ما يحملون على كاهلهم أعباء حضارتهم المزدهرة بالتكنولوجيا والتقدم العلمى، ولكنها تنوء أيضاً بأعباء التردى فى الحياة الإنسانية.

ويرجع ضرورة الاهتمام بهذه الظاهرة لعوامل كثيرة منها :

- ١ - دعوة المشتغلين فى الفكر الإسلامى بمختلف فروعهم بضرورة الاستفادة من آراء هؤلاء الصفوة .
 - ٢ - ضرورة تعديل مناهجنا التعليمية للتخلص من النظرة الأحادية للثقافة الغربية فى العلوم والمعارف الإنسانية، والاستفادة من الفكر الإسلامى الغربى لتوضيح الصورة الكاملة لهذه الثقافة بإيجابياتها وسلبياتها .
 - ٣ - التحذير المتواصل للمفتونين بحضارة العصر، الساعين لاقتباس ثقافتها وكأنها المنقذ من تخلفنا بينما هى تعاني أزمة مستحكمة لاحتلّ لها إلا من خارجها .
 - ٤ - استخدام حصيلة فكر هؤلاء الصفوة كدرع فولاذى نحتسى به من طعنات الغزو الثقافى المدمر لعقائدنا وهويتنا وأجيالنا الجديدة .
- فمنذ صدور كتاب (مستقبل الثقافة فى مصر) والأقلام عندنا تدبج المقالات وتكتب المؤلفات عن ضرورة تقليد الغرب تقليداً تاماً للجأق بركب التقدم
-
- (١) إظهار الإسلام ص ٧ ، مكتبة الشروق بالقاهرة ، سنة ١٩٩٤م ، ويقول ص ٩٢ (على أى حال إذا ظهر ازدياد معتنقى الإسلام اليوم فإنه يبقى فى تعارض مع الاتجاهات الهدامة فى الحضارة العلمانية الحديثة) ويُنظر كتاب (علماء الغرب يدخلون الإسلام) تأليف محمد حلمي ، ط النهضة العربية للصحافة والإعلان بالقاهرة ١٩٩٤م .

والعصرية والحضارة فى أرقى مراحلها !

وإذا كان الصخب يخفى صوت الحق إلى حين ، فإن للحق رسوخاً وثباتاً لا يتزعزع مهما طال الزمن ، فقد توالى الصدمات المفجعة بعد حربين عالميتين أفنت الملايين وخرّبت المدن والديار ، وزعزعت الثقة فى فكرة التقدم المتواصل للحضارة المعاصرة ، فتعالت الأصوات بين فلاسفة وعلماء الغرب تحذّر من بداية الانهيار المرتقب وتطالب بحل الأزمة لإنقاذ الحضارة من الوقوع فى الهاوية .

هذا ، وقد امتدّ بنا العمر - والحمد لله وحده - فوجدنا فى الغربيين أنفسهم من يجد الحلّ فى الإسلام ! واخترنا منهم ثلاثة :

١ - رينيه جينو .

٢ - د / مراد هوفمان .

٣ - روجيه دورا سكويه .

وسنعرض لبعض آرائهم من واقع مؤلفاتهم ، وكان الثلاثة حريصين على انتشال الحضارة المعاصرة فى الغرب من الأزمات التى تهوى بها ، كما تهوى الدّوامات بالغريق فى البحر إلى القاع .

فهل هناك أزمة حقيقية ؟ وماهى أسباب ظواهرها ؟ أم أنها - عند البعض - تعبّر عن مجرد رؤية تشاؤمية . يقول فوكوياما : (قد أصبحنا بالغى التشاؤم فيما يتصل بإمكانية التقدم الشامل فى مجال الأنظمة الديمقراطية ، وهو تشاؤم عميق لا أحسبه عارضاً أو من قبيل المصادفة وإنما هو ناجم عن أحداث سياسية رهيبة حقاً وقعت خلال النصف الأول من القرن العشرين : حربان عالميتان مدمرتان ، وظهور الأيديولوجيات الشمولية ، واستخدام العلم ضد الإنسان فى صورة

الأسلحة النووية وتدمير البيئة (١) .

ويقول الدكتور / رشدي فكار (إن رواد الفكر وعمداء الفلسفة في القرن العشرين يلتقون في أن هناك مأزقاً حضارياً جاء نتيجة لأن إنسان هذا العصر، إنسان الحيرة، إنسان القلق، إنسان الإكتئاب، إنسان لا يشبع في استهلاكه ويبحث دائماً عن الرفاهية وعن الرخاء) (٢) .

أزمات العصر الحديث (في الدين والعلم والفلسفة) :

نادراً ما يتفق العلماء والفلاسفة والسياسيون على إحدى الظواهر كاتفاقهم على ظاهرة (أزمة الحضارة المعاصرة) ونظرة التشاؤم للمستقبل المحفوف بالمخاطر، منذ الحرب العالمية الأولى، مما دفع أستاذة التاريخ بجامعة كاليفورنيا أدريين كوخ إلى جمع آراء لفيف من الكتاب الفلاسفة والفلاسفة الدينيين، والفلاسفة الإنسانيين ونشرتها في كتاب بعنوان (آراء فلسفية في أزمة العصر) وسجلت انزعاجها في مقدمة كتابها (لهذا القرن الفظيع ! مَنْ ذا الذي يتدبر مسيره وتاريخه ولا يحكم عليه بالفظاعة ؟!، وَمَنْ ذا الذي ينكر أن الثقة التي كانت تملأ نفوسنا عند مطلعته قد زالت من النفوس ؟!) (٣) .

وعبر شفيتر في كتابه (المدنية والأخلاق) عن الأزمة بقوله : (إن موضوعي هو مأساة النظرة الغربية إلى العالم . . . إن مدنيتنا تمر بأزمة حادة . . .) (٤) .

(١) نهاية التاريخ وخاتم البشر ، فرانسيس فوكوياما ، ص ١٠ / ٩ ، ترجمة حسين أحمد أمين - مركز الأهرام ١٤١٣هـ / ١٩٩٣ م ، ولكن فوكوياما يعبر عن تفاؤله فيكتب مستطرداً (ومع هذا فإني رعيم بأن الأخبار السارة تطرق الآن أبوابنا) ص ١٠ .

(٢) د . رشدي أفكار، الفكر الإسلامي العالمي في : حوار متواصل حول مشاكل العصر ص ٥٥ ، بقلم خميس البكري، مكتبة وهبة، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٦ م .

(٣) (آراء فلسفية في أزمة العصر)، أدريين كوخ، ترجمة محمود محمود، مكتبة الأنجلو المصرية سبتمبر ١٩٦٣ م .

(٤) نفسه ص ١٣ .

ونفس الملاحظة دوتها الرئيس الروسى الأسبق جوربا تشوف، فوصف التهديد الذى ينتظر العالم بأنه لا يتمثل فى التهديد النووى فحسب، وإنما فى جو مشاكل اجتماعية هامة لم تحل، وضغوط خلّفها التقدم العلمى والتكنولوجيا وتفاقم المشاكل العالمية، وتواجه البشرية اليوم مشاكل لم يسبق لها مثيل (١).

ويقول نيكسون الرئيس الأسبق لأمريكا (وعلى الرغم من التقدم الهائل الذى حققه الانسان فى هذا القرن، فإنه من الشائع أن تكون احتمالاته للمستقبل سلبية) (٢).

وسبقهما ونستون تشرشل فتنبأ بأن العصر الحجرى قد يعود مرة أخرى على أجنحة العلم البرّاقة، وإن النعم المادية التى تغمر الإنسان الآن ربما تؤدى إلى القضاء عليه تماماً (٣).

وسنعرض لآراء رينيه جينو وهوفمان وروجيه دوبا سكويه - على التوالي - وكلها تدور حول أزمة العالم المعاصر واقتراح الحلول لها .
فليس إذن من المبالغة وصف أدريين كوخ أزمة العصر الحاضر بأنها فريدة فى تاريخ الإنسانية ، (فهى أعمق وأوسع انتشاراً من أية أزمة أخرى عرفها تاريخ الإنسان ، لأنها أزمة الوجود البشرى ذاته) (٤) .
إنها إذن ليست أزمات عابرة تتصل بالخطط المرسومة لشئون الاقتصاد والسياسة والتسلح والتعليم وغيرها، أى الأزمات التى تظهر بوادرها بعد التطبيق فیسارع العلماء، وأهل الاختصاص بتعديلها، كما حدث مثلاً فى سنوات التنافس بين

(١) البيريسترويك ، ميخائيل جوربا تشوف ، ص ٨ ، ترجمة حمدي عبد الجواد - ترجمة محمد المعلم ، دار الشروق يوليو ١٩٩٨ م .

(٢) (١٩٩٩ - نصر بلا حرب) ريتشارد نيكسون ص ٢٧ ، إعداد وتقديم المشير محمد عبد الحكيم أبو غزالة . ، مركز الأهرام للترجمة والنشر ، ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ م .

(٣) نفسه ص ٢٨ . (٤) آراء فلسفية فى أزمة العصر ص ١٥ .

روسيا وأمريكا على غزو الفضاء ، أو الضجّة التي أثّرت حول النظام التعليمي الأمريكي بعد اكتشاف تقدم النظام التعليمي الياباني .
لوكان الأمر كذلك لهان الخطب، ولما سبّب الانزعاج الشديد الذى يلّمسه الباحث من قراءة المصادر المتنوعة المعنية بالأزمة، فهى تتصل إذن بأعمدة الحضارة الدينية والعلمية والفلسفية .

فمن حيث الدين: يقول هوفمان (إن المجتمع التكنوقراطى الذى نعيش فيه فى الغرب، بعبادته للفرد وتأسيس أخلاقياته على مبدأ (دعه يعمل، دعه يمر) يواجه فى الحقيقة خطر التدمير الشامل للأسس الأخلاقية التى ينمو عليها هذا المجتمع ذاته، أى القيم وأنماط السلوك المتجذّرة فى إيمان أجدادنا بالله) ^(١) .

ومن حيث العلم: (يقول هوسرل فى أول فقرة من كتابه أزمة العلوم الأوروبية عند نقده لأزمة العلوم، وذلك تحت عنوان « أزمة العلوم باعتبارها التعبير عن الأزمة الحقيقية للإنسانية الأوروبية ») ^(٢) . فيكتب مسجلاً فقد الإيمان المطلق بالعلم: (فهذا الإيمان المطلق فى العلم باعتبار أنه يوصلنا إلى الحكمة، وهو ذلك الإيمان الذى كان قد حل محل الإيمان الدينى، قد فقد قوته عند الكثيرين .

إننا نعيش فى عالم أصبح البحث فيه عن الغاية والمعنى عديم الجدوى بعد أن كان فيما مضى بحثاً لا يرقى إليه الشك) ^(٣) .

ويعبر جارودى عما سماه الأوهام التى تهاوت عقب الحربين العالميتين وانعكاساتها على الفكر الفلسفى فيقول: (وشاهدنا فى بحر سنوات معدودات أن الفلسفات التى كانت قد كتبت لها السيادة الكاملة حتى ذلك الحين - على الأقل فى

(١) يوميات المائى مسلم س ٨٠ .

(٢) من كتاب (نظرات حول الإنسان) ، روجيه جارودى ، ترجمة د / يحيى هويدي مطبوعات المجلس الأعلى للثقافة بالقاهرة رقم ٢٧١ ، ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م .

(٣) نفسه ص ٣١ .

الجامعات - قد جرفها الطوفان، وانقلبت الليبرالية العقلية إلى اتجاه عدوى فاشي، وتحول المذهب التفاؤلى إلى وجودية مأساوية (١) .

ونتيجة غلو نيتشه فى إلحاده (نزع النقاب من تلك الصورة للإنسان الأخلاقى والميتافيزيقى التى تعاون فى رسمها ألفان من السنين) (٢) .

ثم جاءت بعض التصورات المذهبية لفلسفة البنيانية بإعلان موت الإنسان (٣) . وأصبح الفرد فى صورة روائية، ليس فرداً ولكن (مجرد نقطة لقاء فى كل جزء من أجزائه لما يرد عليه من الخارج، فى غير أن يكون فى كيانه ما يسمح باعتراض هذا الوارد الخارجى وما يستعصى عليه) (٤) .

وقد أجاد هايدجر عميد فلاسفة القرن العشرين فى وصف حال هذا العصر بأنه (عصر يبدو كقصر شامخ فى منظر كئيب . سادته يعانون من الأرق والملل والقلق، وخذامه يقاسون من المرض والجهل والجوع) (٥) .

هذه هي خلاصة تعليل الأزمات التى اقتصرت على رؤى جزئية من زوايا تخصص أصحابها الفلسفية والعلمية .

ولكن عندما يُنظر إليها بمنظار الآمال العريضة التى كانت معقودة على القرن العشرين لتحقيق الرخاء والحرية الفردية كما تخيلها الفلاسفة فى أحلامهم لإقامة (المدن الفاضلة)، هذه النظرة ترتطم بالواقع المُخيب للآمال، فقد وصفت مؤلفة كتاب (المدينة الفاضلة عبر التاريخ) هذا الإخفاق بقولها { لقد أخفق القرن العشرين إحناقاً ذريعاً عندما حاول تحقيق الخطط اليوتوبية للماضى . أوجد دولا

(١) نفسه ص ١٧ . (٢) ص ٢٩٣ .

(٣) ص ٢٩٣ . (٤) ص ٢٩٥ .

(٥) ص ٥٥ بكتاب (د . رشدي فكتار فى حوار متواصل حول مشاكل العصر ، إعداد خميس البكري ، مكتبة وهبة ، ١٤٠٧ هـ - ١٩٧٦ م) .

جَبَّارة تتحكم في وسائل الإنتاج والتوزيع، ولكنها لم تقضِ على الجوع، دولاً
شجَّعت الاكتشافات العلمية وطوّرت الإنتاج، ولكنها فشلت في أن توفّر للمواطن
مستوى لائقاً للحياة، وزعمت أنها حققت المساواة الكاملة، ولكنها خلقت بدلاً
من ذلك طبقات جديدة مميزة وألواناً من عدم المساواة ربما تكون أفظع مما سبقها،
دولاً حوّلت الناس إلى « ربات » خاضعة لآلات التي تقوم على خدماتها،
وجعلتهم وحوشاً بتأثير الدعاية، دولاً أوجدت الظروف التي ينظر فيها إلى كل
فكر فردي على أنه جريمة، ويتوقف فيها الأدب، والموسيقى والفن عن أن تكون
تعبيراً عن الفرد، وتتحوّل بدلاً من ذلك إلى نفاق للنظام الذي حلّت فيه العبودية
للدولة، وآلهتها الجديدة محل الديانة القديمة^(١).

(١) المدينة الفاضلة عبر التاريخ (تأليف ماريا لويزا ص ٤٤٣ .
ترجمة د/ عطيات أبو السعود - مراجعة د/ عبدالغفار مكاوي العدد رقم ٢٢٥ من كتاب (عالم المعرفة)
بالكويت ربيع الثاني سنة ١٤١٨هـ / سبتمبر سنة ١٩٩٧م .

[١] رأى رينيه جينو (المعروف بالشيخ عبد الواحد يحيى)

فى أزمة العالم المعاصر

- فليسوف فرنسى، وُلد عام ١٨٨٦م لأسرة محافظة وأتم دراسته العليا فى باريس ١٩٠٨م، وفى ذات السنة أصدر رينيه مجلة علمية أطلق عليها (المعرفة) . . . وقد كان من الذين استعان بهم رينيه فى تحرير المجلة الشيخ (عبد الحق) . . وهو العلامة (شمبرينو) الذى كان قد سبق رينيه إلى الإسلام . . وقد تأثر به رينيه وتوطدت الصلة بينهما. كما اتصل بالشيخ عبد الرحمن عيسى، شيخ السادة المالكية بالأزهر الشريف وقتئذ .

وكان رينيه جينو مع اتصاله بالعلماء المسلمين وبمن أسلموا، لا ينقطع عن الدراسة للأديان عامة، والإسلام بوجه خاص، أشهر إسلامه ١٩١٢م بعد اقتناعه بأن القرآن الكريم هو الكتاب الوحيد الذى لم ينله التحريف والتعديل وتسمى باسم (عبد الواحد يحيى)، وحضر إلى مصر ١٩٣١م مندوباً عن إحدى دور النشر فى باريس لينقل إليها بعض النصوص الصوفية الإسلامية، فسكن فى حى الأزهر وتزى بزي علماء الأزهر المعروف حتى أصبح من يراه يحسبه عالماً أزهرياً مصرياً، وتزوج مصريّة واستمر يشغل بالتأليف والترجمة ويراسل المجلات العلمية الفرنسية حتى توفاه الله بمصر ١٩٥١، ومن أشهر مؤلفاته :

١ - أزمة العالم الحديث (الذى سنعتمد عليه فى دراستنا) .

٢ - الشرق والغرب .

٣ - كتاب رمزية الصليب .

٤ - أثر الثقافة الإسلامية فى الغرب^(١) .

(١) باختصار نقلاً عن كتاب (لماذا أسلموا) للدكتور عيسى عبده وأحمد إسماعيل يحيى من ص ٢٠٥ إلى ص ٢٠٨ ط دار المعارف بمصر ١٩٩٢م .

أزمة العالم المعاصر:

أقبل العلامة رينيه جينو (أو الشيخ عبد الواحد) على التراث الشرقي بتجرد، متحرراً من نزعة التميز المتوارثة عند أغلب المستشرقين لتراثهم الشقافي الغربي، ورأى بعين فاحصة السمات المميزة للحضارات الشرقية، وأبرزها ما سماه (التراث النقلى)، واعتبر الميتافيزيقا^(١). هى الجوهر والأساس، ووضع (الحكمة) فى مكانتها العالمية وفضلها على (الفلسفة) لأن الطريق إلى الحكمة هو الحدس العقلى الذى جعله فى مصاف الإلهام، بينما طريقة الفلسفة هى (العقلانية).

وتبع مظاهر الانحدار فى ثقافة الغرب إذ هبطت من الحدس^(٢) وموضوعه الميتافيزيقا إلى مجرد توظيف العقل فى المحسوسات المادية، فأدى ذلك إلى تجميد العقلانية بواسطة ديكارت والانطواء تحت راية النزعة الفردية وبتر الصلة بين ماهو إلهى وماهو إنسانى، فانتهى بها المطاف إلى المذهب النفى .

-
- (١) الميتافيزيقا = مابعد الطبيعة ، وجاء فى المعجم الفلسفى الصادر من مجمع اللغات العربية :
أحد أقسام الفلسفة ، وقد اختلف مدلوله باختلاف العصر تبعاً لقصره على مشكلة الوجود أو المعرفة،
ومن أهم هذه الدلالات :
أ - عند أرسطو والمدرسين : هم علم المبادئ العامة والعلل الأولى ويسمى الفلسفة الأولى، أو العلم الإلهي .
ب - عند ديكارت : معرفة الله والنفس .
ج - عند كانط : مجموعة المعارف التي تتجاوز نطاق التجربة وتستمد من العقل وحده .
د - عند كونت : معرفة بين اللاهوت والعلم الوضعي، تحاول الكشف عن حقيقة الأشياء وأصلها ومصيرها .
هـ - عند برجسون : معرفة مطلقة، نحصل عليها بالحدس المباشر .

نقلاً عن كتاب (إظهار الإسلام) روجيه دوباسكويه، مكتبة الشروق بالقاهرة، ١٩٤٤ م ص ٣١ .
(٢) الحدس : وهو مصطلح فلسفى، فإنه إدراك بالبصيرة، أو بالقلب أو بالوجدان، أو بالإلهام، أو بما تختاره من لفظ يؤدي معنى الإدراك الذي يتم بصورة مباشرة بين الذات العارفة والشئ الذي تعرفه . تفسير الدكتور زكي نجيب محمود بكتابه (ثقافتنا في مواجهة العصر) س ١٢ ، ط، دار الشروق يناير ١٩٧٦ م.

النقد الفلسفى :

إن المدلول الأصلى لكلمة (الفلسفة) معناه (حب الحكمة) كما وصفها فيثاغورث، ويرى رينه جينو أنها بهذا التعريف (لا تعدو أن تكون مرحلة للتمهيد وشوطاً فى سبيل الحكمة، كما أنها درجة أدنى من الحكمة ذاتها)، وقد تمثل الانحراف الذى وقع بعد ذلك فى النظر إلى هذا الشوط الانتقالى، وكأنه الغاية ذاتها ومحاولة إحلال الفلسفة محل الحكمة) .

ويرى جينو أيضاً أنه بسبب نسيان أو تجاهل طبيعة الحكمة الحققة (نشأ ما يمكن أن نسميه الفلسفة (الدنيوية) أى ما يُزعم بأنه حكمة إنسانية بحتة تندرج فى النطاق العقلانى وتحل محل الحكمة الحققة التى تستند إلى التراث ، وهى فوق المستوى العقلانى وهى غير إنسانية)^(١) .

هذا الفكر العقلانى ظل يتزايد لينتهى إلى العقلانية (وهى اتجاه اختص به المحدثون ويتمثل فى إنكار كل ما يسمو على المستوى العقلانى إنكاراً صريحاً)^(٢) . وتستمد أهمية أفكار جينو بأنها صدمت الآراء التقليدية حول مفاهيم متداولة حتى ظن الناس أنها صحيحة، كذلك وسّع آفاق دراسته لتشمل الحضارات الشرقية ليخفف من غلواء نظرة الاستعلاء الغربية التى ظن أهلها أنهم وحدهم أصحاب حضارة .

وألحّ فى طلب إعادة التراث النقلي الدينى إلى مكانته التى احتلها بجدارة فى الحضارات الشرقية، إذ لاحظ أن الحضارة الغربية تعادى روح العقيدة ، والتراث النقلي فقال: (وتواجهنا الآن فى العالم بحالته هذه جميع الحضارات التى تمسكت

(١) أزمة العالم المعاصر، رينه جينو (المعروف بالشيخ عبد الواحد يحيى) ترجمة / سامي محمد

عبد الحميد، دار النهار، بالقاهرة ١٩٩٦م ص ٥٦ .

(٢) ص ٥٦ أزمة العالم المعاصر .

بروح العقيدة والتراث، وهى الحضارات الشرقية من جانب وحضارة معادية لروح العقيدة والتراث الثقلى من جانب آخر، وهى الحضارة الغربية الحديثة^(١) .

ومن أهم المسائل التى شغلته أيضاً صلة النقل بالعقل، لأن النقل يشمل على مجال العقل أيضاً (ولا بد للحضارة الثقلى من أساس ميتافيزيقى مثل الصين والهند وتستند إليه أو أساس دينى مثل الحضارة الإسلامية والحضارة المسيحية فى القرون الوسطى، وهذا الأساس الثابت يشبه الفلك الذى تدور فيه الأجرام السماوية ولا تتخطاه ولكنها مع ذلك تدور ولا تكف عن الحركة ولا توصف بالجمود. وهذا يتفق مع قوانين الكون التى تأبى الخضوع للأهواء، ويعنى ذلك أن الحضارات تتجدد ولكن شريطة ألا تحيد عن المبادئ الميتافيزيقية أو الدينية العليا التى يفهمها رجال الصفوة ويعملون على بثها بين الناس على مختلف طبقاتهم بما يناسب كل طبقة^(٢) .

التحذير من فصل العلم عن المبادئ :

وأخذ يحذّر من استمرار دور الفلسفة والعلم (الدنيويين)، معللاً مظاهر الانحدار بتحول العلم - بعد فصله عن المبادئ - إلى (علم دنيوى) - (أى إنكار الفكر الأسمى الحقيقى وحصر المعرفة فى أدنى مستوى والبحث التجريبى والتحليلى لوقائع لا ترتبط بأى مبدأ^(٣) .

وكان سابقاً لعصره لأنه تنبأ بنتائج هذا الفصل الذى عانى منه العالم بتدمير المدن بالقنابل الذرية واختراع الأسلحة الكيماوية والجراثومية وخطر تلوث البيئة وإجراء التجارب الطبية على السود فى أمريكا، وأخيراً - وليس آخرأ - عملية الاستنساخ !.

(١) أزمة العالم المعاصر ، ص ٦٧ .

(٢) من مقدمة كتاب (أمة العالم المعاصر) بقلم مترجمة سامي محمد عبد الحميد ص ٢٠ .

(٣) نفسه ص ٥٩ .

ولئن أظهرت التطبيقات العملية التفوق الفعلى الوحيد للحضارة الغربية، إلا أنه أعطاها (طابعها المادى البحث الذى جعل منها مسخاً حقيقياً)^(١) . كذلك شاع (المذهب الانسانى) - لا بمعنى المحافظة على كرامة الإنسان وحرية وحقوقه - بل غايته حصر كل شئ فى أبعاد إنسانية بحتة - أى الابتعاد عن السماء بحجة امتلاك الأرض^(٢) .

ويرى العلامة عبد الواحد يحيى (رينيه جينو) أن هذه النزعة -النزعة الإنسانية- كانت الصورة الأولى (للعلمانية) المعاصرة (كما أن الرغبة فى النزول بكل شئ إلى مستوى الإنسان الذى اعتبر غاية فى ذاته أدى إلى الانحدار من درك إلى درك للوصول إلى أدنى ماهو خسيس فيه، وبذلك يتركز الاهتمام فى إرضاء نزعات الجانب المادى فى طبيعته، وهو سعى لا طائل فيه يُرجى من ورائه وذلك لأنه يخلق دائماً رغبات لم يكن لها وجود من قبل ولا يستطيع إشباعها)^(٣) . وكان حريصاً أيضاً على مدّ جسور التفاهم بين الشرق والغرب، فهو فى سعيه لإصلاح شأن الحضارة الغربية الحديثة ولا يحمل لها العداء ، بل يعادى فقط (روح العصر الحديث)، ويبذل الجهد المناسب لإنفاذ (الغرب من فوضاه التى يتخبط فيها)^(٤) .

ويتعجب ممن يدافعون عن الغرب بينما هو الذى يهدد (باكتساح كل شئ واستدراج الإنسانية كلها إلى دوامة نشاطة منطلقة على غير هدى)^(٥) . ويرى الأولى الدفاع عن الشرق (لأن الشرق الحقيقى لا يفكر فى الهجوم أو السيطرة على أحد كائناً من كان، وكل ما ينشده إنما هو استقلاله وسكينة، وذلك مطلب مشروع)^(٦) .

وهكذا أسهم برأى صائبٌ مخلصٌ فيما يدور الآن حول ما يسمى (حوار الحضارات) !

(١) نفسه ص ٥٩ .

(٢) نفسه ص ٦٠ .

(٣) نفسه ص ٦٠ .

(٤) نفسه ص ٧٧ .

(٥) نفسه ص ٧٧ .

(٦) نفسه ص ٧٨ .

وهو يعارض من يعتقد بقرب (نهاية العالم) وإنما الصحيح - فيما يبدو له -
الاقتراب من نهاية عصر، أو دورة تاريخية، لا تمس غير عالم الحياة الدنيا ،
ويحث للعمل على قدر الطاقة لتهيئة المخرج من هذا (العصر المظلم)^(١) .
هذا، وقد أبدى ارتياحه لاعتراف البعض بالآزمة التي تعترى العالم الحديث بعد
التخلص من أوهام الظن بأن الحضارة الغربية ستتقدم باطراد، وهي علامة مشجعة
على إمكان عودة العقلية المعاصرة إلى جادة الصواب .
ومن تأثروا بكتابات الأديب الفرنسي أندريه جيد (١٩٥١م) إذ كتب مقرأً
بذلك : (لقد علمتني كتب جينو الكثير ولو برد الفعل عليها، إنني أعترف طائفاً
مختاراً بعيوب القلق الغربي الذي مارالت الحرب بعض نتائجه . لكن المغامرة
الخطيرة التي انطلقنا في سبيلها دون حساب تستحق عناء المضي فيها حتى النهاية ،
فقد فات أوان التراجع وعلينا أن نمضي في المغامرة قدماً وأن نستمر حتى النهاية !
وهذه (النهاية) وهذا الطرف القصي أظن أنه (الله) وسوف نصل إليه عند
دمارنا)^(٢) .

(١) نفسه ص ٤١ ، ٤٦ .

(٢) الإسلام والمسلمون في فرنسا : صادق سلام ، نقلاً عن (أزمة العالم المعاصر) ، رينيه جينو ، ترجمة
سامي عبد الحميد ص ١٧

٢ - آراء / هوفمان بكتابه (الإسلام كبديل)

د / مراد هوفمان .

- ألماني مسلم ، سفير ، مؤلف ، دكتوراه في القانون من جامعة هارفرد ،
اعتنق الإسلام يوم ٢٥ / ٩ / ١٩٨٠ م ، ويقول في كتابه (يوميات ألماني مسلم)
تحت عنوان (لم أملك إلا أن أكون مسلماً) .
بعد اتخاذه قرار إعلان إسلامه رسمياً ، فنطق بالشهادتين :

أشهد أن لا إله إلا الله محمد رسول الله

(نطقت بالشهادتين في المركز الإسلامي بكونوليا « لا إله إلا الله محمد رسول
الله ، واخترت لنفسى من بين الأسماء الإسلامية اسم مراد فريد .
وأصبحت منذ اليوم - أى ٢٥ / ٩ / ١٩٨٠ مسلماً وهكذا بلغت مرادى) .
ود / هوفمان وضع لأهم كتبه عنوان له دلالة فسمّاه (الإسلام كبديل) ،
وضمّنه دعوته باتخاذ الإسلام بديلاً للانهايار الغربى ^(١) .

وبنظرة مقارنة بينه وبين الرئيس على بيجوفيتش قبله ، نرى أن الثانى وضع
الأساس النظرى العلمى والفلسفى بمنهج جدلى للإقناع بأن الطريق الثالث
- أى الإسلام كما تبين لنا من دراسة كتابه - هو الأصلح للحضارة إذا أريد لها

(١) ص ٢٤٦ من الكتاب وقد رجعنا أيضاً إلى كتابيه : يوميات الماني مسلم ، والإسلام عام ٢٠٠٠ م ،
ولكنه اشتهر بالكتاب أعلاه لما أثير من ضجة حوله .

أن تبقى وتحقق العدالة والحياة الطيبة للبشرية، وكأنما قادنا إلى الطريق المستقيم، وجاء هوفمان بكتابه (الإسلام كبديل) ليفصل ما أجمله بيجوفيتش، ويتوسع في الشرح والتحليل ليقنع قومه بأن الإسلام دين عالمي، ويعرض لعقائده ونظمه الاقتصادية والسياسية مدافعاً عن هذا الدين الذي تعرّض بواسطة القوى المعادية له (بنشر قصص الرعب المنفرة . . . وملء أسماع شعوب أوروبا وغيرها بتلك القصص، كما تشهد بذلك وسائل الإعلام)^(١). ويقوم بدراسة مصادر الإسلام من الكتاب والسنة، وحضارته، ومجتمعاته، وبعض مذاهبه. وكتب في المقدمة مسجلاً رأيه :

(كان الإسلام، إبان الصراع بين العالم الغربي والشيوعية يستطيع أن يعتبر نفسه الطريق الثالث المباشرة لهما، أى أنه الخيار الحرّ المستقل عن كليهما لفهم العالم والتعامل معه عقائدياً، أما اليوم فإن الإسلام يطرح نفسه بديلاً لكلا النظامين ، وذلك لتوفير الحياة على أفضل وجه، وتذليل مشكلاتها المستفحلة)^(٢) .
ولهذا فإنه لا يتفق فى رأى مع فوكوياما صاحب كتابه (نهاية التاريخ وخاتم البشر) .

وفسّر د / هوفمان بأنه يحمل رسالة مضمونها اعتقاد الغرب (بصفة عامة أن أسلوب الحياة الأمريكى سيفرض نفسه على العالم)^(٣) .
ويقف بشدة إزاء هذا الأسلوب - أو الثقافة الواحدة - ، ويقول بلهجة حاسمة تحمل روح الفهم والإخلاص :

(إذا أردنا نحن المسلمين أن نترك شأننا، فعلينا أن نحاهد جهاداً جباراً لنحمى حقنا فى الاختلاف الثقافى فى عالم يسعى لفرض النموذج الغربى عالمياً)^(٤) .

(٢) ص ١٩ / ٢٠ .

(٤) نفسه .

(١) الكتاب ص ٢٢٣ .

(٣) ص ٣٠ .

ويضع لنا المنهج - كما سنرى - لإعادة تأسيس الفكر الإسلامى كما حاول قبله الشاعر الفيلسوف محمد إقبال، ويتلخص فى تحقيق التجديد :

وهوفمان - كسلفه جارودى - تشبّع بالثقافة الأوروبية بشقيها الدينى والفلسفى، ويرى أنه (بعد إفلاس النظام والعقيدة الشيوعية منذ ١٩٩٠ وعلامات الخطر بأزمة روحية أخلاقية فى الغرب ، تمر المسيحية بتغيير فى المشروع، وما كان يسمى « مشروع التحديث » يتساقط أمام أعيننا)^(١).

ولكنه يختلف عن جاروى بأنه تبوأ مناصب سياسية قرّبتّه من صانعى القرار، وأطلعته على أسرار وحقائق، فأخذ منذ إسلامه يوقظ فىنا الوعى بما يحيط بنا من أخطار ، وما يُحاك حولنا من دسائس فكتب: (ويضع جنرالات النّاتو فى حسابهم أن أكثر المواجهات العسكرية احتمالاً فى المستقبل لن تكون بين الشرق والغرب، ولكن بين الشمال والجنوب، فالإسلام هو العدو المتنامى المرتقب)^(٢) .

وقبل كتاب هوفمان بثورة عارمة وكان إيذاناً بإعلان حرب شعواء ضده واتهامه بعدم الولاء لبلده . . إلخ .

وتوافقت هذه المخاوف مع التيار العام الذى اجتاحت الغرب بعد انهيار الاتحاد السوفيتى وكتب جان ماري جييهنيو الأستاذ بمعهد الدراسات السياسية الفرنسى ليسجل المخاوف بعد تبدد الآمال (وما يشير مخاوفنا التناقض بين- سأمنا نحن الذين تبددت آمالنا، والحزم الثورى لدى الإسلاميين، فكان بوسع الإسلام أن يقدم مشروعاً سياسياً شاملاً بعد احتضار الشيوعية، وهو مشروع خطير الشأن بوجه خاص بعد أن فقدنا إيماننا بالديمقراطية لكل العالم)^(٣) .

(١) الإسلام عام ٢٠٠٠ س ١٨ .

(٢) نفسه ص ١٧ ، وكان فى مرحلة من مراحل حياته مدير مكتب استعلامات حلف الأطلسي .

(٣) نهاية الديمقراطية ، جان - ماري جييهنيو ص ٨٦ ، ترجمة : حكيم طوسون - مكتبة الشروق يوليو ١٩٩٥ م.

ضرورة التجديد :

لم يكتف د/ هوفمان بنقد الغرب بل أخذ ينقد أيضاً العالم الإسلامى بواقعية - سماها قاسية - لأنه يعانى بسبب إخلاصه من أحواله المتردية ساعياً إلى إيقاظ المسلمين من (السبات العميق والدعة والشك فى الذات ، وعقليتهم التى اعتادت تبرير المثالب) (١) .

ولكنه يدعو المسلمين المهتمين للعمل جميعاً (على تجديد الدين الإلهى، الأمر الذى نأمله جميعاً لصالح البشرية) (٢) .

فبم يقصد بتجديد الدين ؟ هل يسعى إلى تطويره ليناسب العصر كما يتصور بعض المسلمين المهزومين نفسياً أمام حضارة العصر ؟

أم أنه فهم التجديد بمعناه الصحيح كما سبقه إلى ذلك علماء الإسلام النابهين . يبدو من سياق عرضه للآية الكريمة ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ (سورة الرعد الآية ١١)، أنه فهم حديث الرسول ﷺ (إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها) مستعرضاً بعض أسماء العلماء المجددين، معقياً بقوله (إن الله سوف يساعدنا إذا غيرنا ما بأنفسنا)، ليس بإصلاح الإسلام، ولكن بإصلاح موقفنا وأفعالنا تجاه الإسلام (٣) .

ويصف مهمة تجديد الإسلام بأنها مهمة هائلة لأنها تفترض تغييرات رئيسية فى المواقف والمداخل، لا بإجراء عملية جراحية لجعل الإسلام أكثر جاذبية، بل بإزالة الصدا الذى يملأه من خارجه، وبهذا يستعيد جاذبيته الأصلية (٤) .

ويأتى شرح المقصود بإزالة الصدا بقوله (فإذا نزعنا من الدين كل ما تراكم عليه من خارجه، رجع لأصله كجوهرة مصقولة برآقة، يناسب العالم كله فى زماننا الحاضر: كديانه توحيدية نقية، تؤمن بالله وتسلم له تسليمًا كاملاً) (٥) وهو

(٣) نفسه ص ١٢ .

(١، ٢) الإسلام عام ٢٠٠٠ ص ٧ .

(٥) نفسه ص ٧١ .

(٤) - نفسه ص ٦٩ .

تشبيه بليغ يصوّر فعلاً ما قام به المجدّدون على مدى تاريخ الإسلام^(١) .
ويفضّل النفاذ إلى جوهر القيم المعبرة عن الإسلام في شخص معتنقيه لا
الاكتفاء بالمظهر، فيرى أنه من الأفضل التعرف على المسلم (في كرمه، خيرته،
صبره وجلده، عاطفته، وتسامحه، علمه، إخلاصه ونجاحه في عمله، صدقه،
أمانته، عدله، خشوعه في الصلاة ..)^(٢) .

ويرى ضرورة إعمال مبدأ الاجتهاد لاستعادة المفهوم الأصلي للشرعية - أي ما
جاء بالقرآن والسنة ، والتمييز بين الشرعية والفقه - أي النظام الكلي للقانون
الإسلامي الذي بُنى من فهم واجتهادات الفقهاء^(٣) .

ويدخل ضمن التجديد أيضاً عودة العالم الإسلامي إلى أصوله الصافية في رفض
تقديس الأولياء، ويضرب على ذلك بمثال صارخ حول ما يحدث حول مقابر
(المرابطين) في المغرب وغرب الجزائر، فيسميها (الضلالات ذات الصبغة المسيحية)
التي زحفت على الإسلام خلال بعض التيارات الصوفية، التي ينبغي إزالتها

(١) يقول الأستاذ / أحمد أمين رحمه الله :

(وكان المجددون يمتثلون بحسب الحاجة إلى التجديد، فكان الإمام عمر بن عبد العزيز مجدداً في القرن
الثاني لما يلي أمية ، وأخلفوا وما مزقوا بالشقاق وفرقوا، وكان الإمام أحمد بن حنبل مجدداً في القرن
الثالث لما أخلق بعض بني العباس من إلباس السنة اتباع ما تشابه من الكتاب ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله
وقالوا كان الأشعري مجدداً في القرن الرابع بهذا المعنى، والغزالي مجدداً في أواخر القرن الرابع ، وأول
الخامس لما بزغت نزعات الفلاسفة وزندقة الباطنية، وكان ابن حزم مجدداً في القرن السادس لما طغت
الآراء على النصوص الشرعية، وكان ابن تيمية وابن القيم مجددين في آخر القرن السابع وأول الثامن لما
مزقت البدع الفلسفية الكلامية والتصوفية والحادية تعاليم الإسلام، ثم ظهر مجددون آخرون في كل
قرن، وكان محمد بن عبد الله المنصور منحصراً في قطر أو شعب كالمشايخي صاحب الموافقات والاعتصام بالكتاب والسنة
بالاندلس وولي الله الدهلوي والسيد محمد صديق خان في الهند ، والمولى محمد بن بيسر عليا ليركوي
في الترك ، ومحمد بن عبد الوهاب في نجد والشوكاني في اليمن) .

(ص ٢٠٦ ، ٢٠٧ من كتاب يوم الإسلام) للأستاذ أحمد أمين دار الكتاب العربي ، بيروت ١٩٥٢ م .

(٢) نفسه ص ٧٢ . (٣) نفسه ص ٧٣ .

والتخلص منها بحزم مقررأ ييقين (هذا مما لا يجوز التسامح فيه، فالبحث عن
وساطة يناقض أحد أهم مبادئ العقيدة في الإسلام)^(١) .
كذلك يطالب بكتابة سيرة محكمة للنبي ﷺ لتنقيتها من الأساطير لتساعد في
مجال الدعوة لأن الإسلام دون حصافة يخاطب راشدين أحرار الفكر^(٢) .
ولكن يبدو أن الدكتور هوفمان لم يطلع على بعض المصادر الموثوقة في سيرة النبي
ﷺ ، ونذكر منها: (زاد المعاد في هدى خير العباد محمد ﷺ)، (خاتم
النبيين وإمام المرسلين) لابن القيم الذي اختصره الإمام محمد بن عبد الوهاب .
ومن الكتب الحديثة في السنة : كتاب الأستاذ محمد لطفى جمعه (ثورة الإسلام
وبطل الأنبياء)، وكتاب (الرحيق المختوم) للشيخ صفى الرحمن المباركفوري .
ومما يدخل الطمأنينة في قلوبنا وقلوب هوفمان أن توثيق السيرة النبوية المباركة
موضع اهتمام من علماء المسلمين ، ونشير بصفة خاصة إلى كتاب (صحيح
السيرة النبوية) للأستاذ رزق الطرهوني الذي صدر منه جزءان .^(٣)

(٢) نفسه ص ٦٤ .

(١) نفسه ص ٦٣ .

(٣) مقال بعنوان (نحو توثيق السيرة النبوية المباركة) للأستاذ / محمد عبد الحكيم قاضي وهو يري أيضاً أن
كتابة السيرة النبوية تحتاج في عصرنا هذا إلى علماء محدثين واعين يتقون عن هذا المورد خبيثة،
ويكتفون بالصحيح منه ، مجلة (منار الإسلام - الإمارات - ربيع الأول ١٤١٨هـ / يوليو ١٩٩٧م) .

الإسهام فى تصحيح المفاهيم المشوهة عن الإسلام فى أوروبا ،

يبدى الدكتور هوفمان أسفه لأن الحروب التى شنها العالم الغربى قروناً بطولها على العالم الإسلامى لم يصحبها محاولة معرفة كنه الإسلام طيلة تلك القرون، إلا فى حالات منفردة ومن زوايا معينة تتسم جميعاً بالتحيز وعدم الموضوعية^(١) .

ويشيد ببعض قلة قليلة من المستشرقين الجادة الذين التزموا فيها بالمنهجية المنطقية، ولكن البعض الآخر نظر إلى الإسلام إما بعيون القساوسة المبشرين بالمسيحية مثل جيب، أو علم الاجتماع الماركسى مثل رودنسون أو بطريقة الانثروبولوجيا المتخصص فى الأعراق البشرية ويعتبر المسلمين شعباً بدائياً يرى التعجيل بدراسته قبل انقراضه!

وكان معظم المستشرقين بوعى أو بغير وعى كانوا أداة لخدمة الاستعمار ، ومنهم من كان جاسوساً للغرب بالفعل مثل لورنس^(٢) .

ولكن ظهر اتجاه آخر فى الاستشراق منذ القرن العشرين بل الأقل يغلب فكرة ولادة الحضارة فى المشرق ثم تحولت إلى المغرب ، وإن كثيراً من هؤلاء المستشرقين متعاطفون مع الإسلام وقد أسهموا بأبحاثهم بتصويب صورة الإسلام لدى الأوروبيين^(٣) .

ولكن مازالت الحاجة ملحة لنشر كتب هؤلاء، ومنهم الدكتور هونكة حتى يمكن إزالة الصورة المشوهة للمشرق فى أذهان الأوروبيين التى اخترعتها الروايات الخيالية وأفلام ألف ليلة وليلة .

واستطاع د / هوفمان - كغيره من الباحثين عن الحق بتجرد - الخروج من دائرة

(٢) نفسه ص ٢١٢ .

(١) الإسلام كبديل ص ٢١١ .

(٣) نفسه ص ٢١٤ .

تشويه الإسلام الذى دأب عليه أغلب المستشرقين والمبشرين التابعين للدوائر الاستعمارية ، وتابع الآراء الصحيحة المبنية على الدراسة الآمينية ، وأسهم فى تصحيح الأخطاء التى لا تكاد تخلو منها الدراسات المتحيّزة . .

والواقع أن دائرة الاستشراق فى ألمانيا تذخر بعلماء على شاكلة هوفمان ، من أبرزهم الأستاذ محمد أسد (ليوبولد فايس قبل إسلامه) الذى علل ظاهرة تشويه الإسلام بالإحساس بالقهر أمام عظمة الحضارة الإسلامية عندما احتكت بها جيوش أوروبا فى الحروب الصليبية .

وتتعجب المستشرق الألمانية هونكة مرّة من معرفة الغربى السطحية بطبيعة العرب والمسلمين مما يخالف خلق الغرب وطبعه وطبيعته ، ومرّة أخرى من وصف الإسلام ظلماً بأنه يشكل خطراً يهدد البشرية فتقول : (وحسبك مثال واحد فريد فى نوعه إبان تلك العصور لتفنيد تلك التخرّسات ، ولك أن تقول الوجه المشرق لتلك الميدالية الحالكة السواد ، والذى أشرق على البشرية حقبة مباركة لم تكن بالقصيرة وإنما قرابة ثمانية قرون : نعى إسبانيا)^(١) .

وهناك أيضاً حالة خاصة يعبر عنها الفيلسوف الفرنسى الشهير فولتير تستحق العناية والاهتمام من جانب الباحثين ، إذ مما يلفت النظر ، أنه بعد تنحيه عن أقواله الأولى المتسرعة عن الإسلام والرسول ﷺ ، ظلت المؤلفات تردد كلماته السابقة أى قبل تحوله إلى مرحلة تصحيح المفاهيم ، وهامى آراؤه الأخيرة وفحواها (ولا يزال القرآن فى واقع الأمر ، يشتهر إلى اليوم بأنه الكتاب الأكثر تميّزاً ، وسموّاً ، الذى كتب هذه اللغة (العربية) ، لقد ألصقنا بالقرآن مالا نهاية له من السفاهات التى لم تكن به على الإطلاق) .

ثم فنّد الشدة المزعومة فى معاملة النساء بقوله : (كان يكفى مع ذلك قراءة

(١) كتاب (الله ليس كذلك) ترجمة د / غريب محمد غريب ، ص ١٢ ، ٥٢ ، دار الشروق - مؤسسة بافاريا ، مجلة النور الكويتية ١٤١٦هـ - ١٩٩٥ م .

السورتين الثانية والرابعة من القرآن حتى يهتدى الناس إلى الحق) .
 ودفاعاً عما يُنسب للرسول ﷺ ، قال : (كما أننا لا نستطيع أن ندينه على
 عقيدته في الإله الواحد ، فهذه هي كلمات السورة رقم ١١٢ تقوله : ﴿ قُلْ
 هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ ۝ (٢) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ (٣) وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا
 أَحَدٌ ۝ (٤) ﴾ .

إننى أقول إن هذه الكلمات أخضعت له الشرق أكثر مما فعل سيفه، وفى كلمة
 موجزة، فلإن شريعته صالحة، وعقيدته تدعو إلى الإعجاب به^(١) .

حديث هوفمان إلى رفاقه المسلمين في الغرب :

سجل هوفمان الاقتراحات المتداولة للأخذ بيد شباب الغرب من الضياع
 والتأرجح بين بدائل الماركسية، ومذهب الخضر والبوذية، وكان حينذاك رئيساً
 للمؤتمر السنوى (للئاتو) لمديرى الإعلام بوزارات الدفاع المكلفين بعرض اتجاهات
 الرأى العام فى المدى المتوسط (نوفمبر ١٩٨٤م)^(٢) .

وكان من رأيه أن الشباب محبطون ومتبلدون عاطفياً وقد تزعزت ثقتهم فى
 الديمقراطية المطبقة ومؤسسات الدولة، وشبه هذه الظواهر بقمة جبل جليدى تخفى
 تحته تفسخات إجتماعية وثقافية وهى تشكل أعراض التداعى الهيكلى الزاحف على
 العالم الغربى^(٣) .

وكان لا بد من إيجاد حلّ لوقف أسباب التدهور الدينى فى الغرب ، لأن المجتمع
 الغربى مدين- للقيم اليهودية المسيحية - فى تثبيت دعائمه .

(١) القاموس الفلسفى لفرولتير، المجلد السابع، نقلاً عن اللواء / أحمد عبد الوهاب بكتابه (الإسلام في
 الفكر الغربى) ، دين ودولة وحضارة ص ٥٠ ، ٥٣ ، ٥٤ ، مكتبة التراث الإسلامى بالقاهرة ص ١٩٩٣م .
 (٢) يوميات ألماني مسلم ص ١٤٦ .
 (٣) نفسه ص ١٤٦ ، ١٤٧ بتصرف .

وعندئذ قام أحد المندوبين فسأل عما إذا كان هناك فرصة لحدوث صحوة دينية في الغرب ؟ ، ووقف هوفمان ليعلن بكل جدية واقتناع أن الحل في دين الفطرة (أى الإسلام) .

وظن المستمعون أنه يمزح^(١) ! ، مع أنه كان في غاية الجدية ، ومقتنعاً بصحة ما اقترحه تمام الإقتناع وتعالوا نستطلع حجج الرجل من كتابه (يوميات ألماني مسلم) الذى يتسم بالصدق مكتفين باختيار ما سجله من الأسباب التى حولته إلى الإسلام بعد الدراسة والتدبر والمقارنة ، بدءاً بالإيمان بالله عز وجل وتوحيده ، وتصديقاً برسالة الرسول ﷺ .

يتبين من قصة إسلامه أنه دأب على الاطلاع على مؤلفات من سبقوه بالإيمان ، وظل يسير على طريق الهداية شوطاً بعد شوط ، وكل حقيقة يكتشفها تُسلمه إلى أخرى .

وكانت له صلوات أيضاً بمن سبقوه وأهمهم محمد أسد - وهو منحدر من أصل يهودى - وقد أسهم إسهاماً عظيماً فى شرح ونشر الإسلام فى الغرب (٦٥ يوميات) ، وكان فى مقابلاته معه دائم السؤال عن إنجازاته العلمية والأدبية فى سبيل الإسلام (ترجم وعلق على الجزء الأول من أحاديث البخارى ، سنوات الإسلام الأول ، وكذلك ترجم معاني القرآن الكريم كله ، رسالة القرآن)^(٢) . وكان محمد أسد يأمل منذ الثلاثينات فى أن (يشغل الإسلام الفراغ الناجم الذى سيخلفه رحيل الإلحاد الغربى والشيوعى من مسرح الأحداث فى حالة إفلاس روحانى)^(٣) .

ويأسف د / هوفمان لأنه بالرغم من تحقيق النبوءة جزئياً ، ولكن لم يتم الاعتراف

(١) نفسه ص ١٤٨ . (٢) يوميات ألماني مسلم ص ٦٧ .

(٣) نفسه ص ١٩٢ .

بالإسلام كبديل، وسبب أسف أنه (من دولة إسلامية قد استطاعت أن تطوّر نفسها بطريقة تجعل الغرب ينظر إليها كنموذج مضاد مقنع وجذاب) (١) .

أى أنه يرى أن هذه الطريقة هى أقوى الطرق فى الدعوة إلى الإسلام، وتناسب عقلية الإنسان الغربى الذى يقتنع عن طريق الواقع، وتزيح عنه التعصب.

وهو اقتراح عملى سبقه به منذ سنوات الدكتور عماد الدين خليل الذى قال : (. . . فالنظام والحل الإسلاميان للمشكلة الحضارية المعاصرة موجودان فى الحقيقة، على الأقل نظرياً، ولكن تطبيقهما فى حيز من الأرض الإسلامية غير موجود، ولو استطاعت بعض الدول الإسلامية، فى العصر الحاضر أن تقوم بالتجربة الإسلامية العقائدية، لقدّمت مثلاً عملياً منظوراً لإمكانية الحل والخلاص من بأسى الحضارة المعاصرة، ولحققت بذلك هدفين :

أولهما : إنقاذ الإنسان الشرقى المسلم من مأساة وجود المتغرب المريض .

وثانيهما : حمل رسالتها الحضارية، للعالم الغربى الذى ينتظر الخلاص) (٢) .

كذلك اقتفى د / هوفمان أثر أحد المهتدين للإسلام - وهو الرحالة سير ريتشارد بيرتون (١٨٢١ - ١٨٩٠ م) الذى خاطر بمغامرة السفر إلى المدينة ومكة ، وتوغل فى العقيدة، والتاريخ واللغة والثقافة الإسلامية إلى درجة لم يسبقه إليها أحد، ولكنه لم يستطع التغلب على الحاجز النفسى عند مواطنيه بسبب تعصبهم ضد الإسلام (٣) .

وكان يُتابع إصدارات الكتب عن الإسلام، ويجمع نتائجها المؤيدة لصحة الإسلام، حتى ولو كانت من غير المسلمين، ومنهم د / بول شفارتسنا وهو أستاذ

(١) نفسه .

(٢) نهافت العلمانية ، د / عماد الدين خليل ص ١٦٧ ، مؤسسة الرسالة ١٣٩٥ هـ - ١٩٧٥ م .

(٣) يوميات ألماني مسلم ص ٣٩ .

بروتستانتى فى أصول الدين - وقد ألف كتاباً بعنوان (القرآن - دليل المسيحيين) ، فوصف فيه للقرآن بأنه صحيح (ووحى غير مختلق ، وأنه على الرغم من الأحداث التاريخية الواردة فيه ، إلا أنه مستقل عن أى سياق تاريخى ، لا يحدّه زمان ومتضمن للحقيقة المركزة ، وشبه القرآن ببلورة دوائر متعددة تصوّر نور الله فى انعكاسات لاحصر لها) (١) .

وتأكد من صدق نبوة نبينا محمد ﷺ عندما تتبع حياته وسيرته معتمداً على كتابين أحدهما كتاب السيرة لابن اسحق والثانى بعنوان (محمد ﷺ) ، حياته منتقاه من أقدم المصادر (نيويورك ١٩٨٣ لمارتن لنجر .

وأبدى ذهوله من سلوك الرسول ﷺ ذات الطابع السياسى - دستور المدينة وصلاح الحديبية - وقيادته العسكرية الفذة .

مع نجاحه فى التجارة وحكمته كقائد وقدرته الخطابية وبلاغته ، واستعراض هذه الحياة الحافلة يرى أنه ليس هناك من تفسير هذا كله لعربى محروم من التعلم أسمى ، ينتمى إلى مجتمع متخلف إلا الإقرار بأن هناك شيئاً غريباً فى هذا الأمر هناك شئ إلهى فى هذا الأمر) (٢)

وأمام الحياة المضطربة المليئة بالجرائم والأمراض - وعلى رأسها « الإيدز » - يرجح التفسير الصحيح بأنها نتيجة مخالفة القواعد التى سنّها الله تعالى للسلوك الإنسانى ، فهى (نتائج طبيعية صرفة للعيش فى تناقص وتعارض مع النظام الفطرى للحقيقة التى نحن جزء منها) (٣) .

وهو يعطى لما سمّاه بقانون السلوك الإسلامى - أى الشريعة - اسم « الصراط » ، ثم يستطرد مبيناً ضرورة البقاء عليه (وكثيراً ما يطلب المسلمون فى دعائهم البقاء على هذا الصراط كلما قرأوا فاتحة القرآن ، طالبين الهداية إلى الصراط المستقيم) (٤) .

(٢) يوميات ألماني مسلم ص ١٨١ .

(١) نفسه ص ١٢٢ .

(٤) نفسه .

(٣) يوميات ألماني مسلم ص ٣٧ .

ويستمر الدكتور / هوفمان مسجلاً بكتابه « يوميات ألماني مسلم » ألواناً من الحياة السعيدة التي تتحقق فعلاً من اتباع تعاليم الإسلام ، عندما يحرم المسلم على نفسه شرب الخمر وأكل الخنزير وباقي المحرمات ، ويتطهر ويتوضأ للصلاة مؤدياً سائر الشعائر ، ثم يشرح آثار ذلك كله على حياة الإنسان بحيث ينشرح صدره وتحقق الصحة الجسمية والنفسية ويتخلص من آفات حضارة الغرب^(١) .

ولئن كان حديثه موجهاً في المقام الأول لرفاقه المسلمين في الغرب ، فلا يمنع ذلك من تقديمه لضحايا التغريب من بنى جلدتنا كأحد وسائل الإقناع لرجل خاض التجربة وهي أقوى البراهين ، فلن العالم الفيزيائي في معمله يدرس الظاهرة وموضوعها وهي بعيدة عنه أي لا يندمج فيها بأحاسيسه وعواطفه وجوارحه ثم يجرى التجارب ويستقرئ النتائج ويضع النظرية وفقاً لها ، أما في مثل هذه الظاهرة الدينية الفذة ، فإن الإنسان يندمج بكيانه كله في التجربة ، فيقرأ ويتدبر ويفحص ويقارن ، ثم يأتمر بالأوامر وينتهى عن النواهي الإلهية ، ويظل يكتشف شيئاً فشيئاً مع تجاربه كمسلم حديث عهد بالإسلام - نتائج جديدة ، تعمق في نفسه عرى الإيمان متذوقاً حلاوته ، فصدق عندما قال (وهكذا أدركت وقد هزنتي الحقيقة)^(٢) .

وفيدنا د / هوفمان بتجربته وتجارب المسلمين المعتنقين للإسلام في الغرب ، في تلقى ثلاثة دروس هي :

الأول : إقناع بعض مثقفينا المصريين على التغريب بعدم جدوى هذا الإصرار ، إذ يدعو هوفمان وغيره من مسلمي الغرب إلى اتخاذ الإسلام بديلاً للانهيار الغربي^(٣) .

الثاني : إفحام بعض المشككين من المستشرقين المتذرعين بظواهر أحوال المسلمين المعاصرين فيتساءلون متهمين .

(٢) يوميات ألماني مسلم ص ٧٣

(١) يوميات ألماني مسلم ص ١٨١ ، ١٨٢ .

(٣) الإسلام كبديل ص ٢٤٦ .

(أى إسلام يريدنا المسلمون أن ندرس: هل إسلام المغرب العربى أم إسلام الهند أم إسلام إيران أم إسلام . . .)

وقد ألقى مستشرق نفس السؤال بهذه الصيغة فى إحدى المحاضرات فانبرى له الدكتور / مانع الجهنى بسؤال مضاد :

(إنك كشخص متخصص فإن مصادر الإسلام معروفة فى مقدمتها الكتاب والسنة ، وعليك إذا أردت أن تتعرف على الإسلام أن تدرسه من مصادره الأصلية وليس من خلال أتباعه)^(١) .

الثالث: عرف حقيقة الشمول فى الإسلام فلم يقدمه لغيره من الأوروبيين من روايا جزئية - كما يحلو للبعض أن يفعل (أى المأوى الروحي) لكى يوزان عند الأوروبي بين احتياجات البدن، واحتياجات الروح، أو اعتبره ملاذاً (للمضطهدين والمهمشين والمبعدين)^(٢) وكأنه مجرد حزب سياسى يحقق المساواة والعدالة لأتباعه .

لم يفعل د / هوفمان شيئاً من ذلك لأنه فهمه على حقيقته وقيامه بتنظيم شئون الحياة الإنسانية - على أكمل - وجه لأنه الدين الخاتم، والرسالة الأخيرة للبشرية، فإن (محمداً - ﷺ) لم يدع مطلقاً بأنه قد جاء بدين جديد وإنما كانت رسالته هى تجديد وإتمام دين الله الواحد، إنه التسليم والخضوع^(٣) . صحيح إن الإسلام يغذى فى الإنسان الروح ولكن يتعامل معه كبدن أيضاً، وهو

(١) مجلة الحرس الوطني، بالرياض، العدد ١٦٤ / ١٦٥، ذو الحجة ١٤١٦هـ، مارس / إبريل ١٩٩٦م، (ملف العدد : الإسلام وصدام الحضارات) ص ٩٦ .

(٢) وهو رأي الأستاذ / أحمد عباس صالح، عندما وصف مظاهرة المسلمين السود فى أمريكا التي قُدرت بنحو مليون شخص بأنها تجسيد للشعور بالاضطهاد، مقال بعنوان (الفردية والنفعية فى الثقافة الغربية) الشرق الأوسط فى ١١ / ٧ / ١٩٩٧م .

(٣) يوميات ألماني مسلم (ص ١٠٦ .

ينظم حياة الفرد والمجتمع ، ويتضمن أسس النظام الاقتصادى والسياسى .
 وباختصار فإن هوفمان يضع الإسلام كدين وحضارة مقابل حضارة الغرب
 برمتها (لأن القانون الإسلامى يرى نفسه بكل ما فى الكلمة من معنى مأخوذاً من
 الوحي السماوى أى أنه قانون إلهى أو سماوى)^(١) ويصف المخطط الإسلامى
 لفلسفة الحياة (والذى يفرض نفسه بديلاً، قادمًا من بيئة مخالفة، مواجهة حقيقية
 تصدم الفلسفة العصرية الغربية، وجهلها بالقيم، وإباحيتها المطلقة لكل شئ،
 حسب التعبير الأمريكى - لا شئ ممنوع - هذه المدينة العصرية الغربية تصطدم
 بالمخطط الإسلامى المضاد الجاد، الذى يراه البعض قديماً بالياً لا لشئ سوى قيام
 صرحه واستمراره ، غير مرتبط بعنصر الزمان، بمعنى صلاحيته لكل العصور^(٢) .
 مع امتداد تصور الحياة بطرفيها فى الدنيا والآخرة، فإن المسلم (يحيا فى دنيا لا
 تساوى شيئاً إذا قيس بنعيم الآخرة، أو كما علّمه القرآن الكريم ﴿ وَمَا الْحَيَاةُ
 الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ (سورة الانعام
 الآية ٣٢) .

ومنذ إسلامه وهو يلقي المحاضرات والدروس على المسلمين فى كل مكان،
 وكانت جهوده الأخيرة فى أمريكا حيث قام بجولة لإلقاء محاضرات ومقابلات مع
 الجالية الإسلامية الأمريكية فى عدد من المدن الأمريكية، وقال عن زيارته إن
 الغرض منها هو بناء جسور وأن نعمل كل ما فى وسعنا، لنؤكد بأننا لسنا قادمين
 على صراع حضارات^(٣) .

وفى مؤتمر الإسلام والغرب الذى عُقد بالقاهرة فى ربيع الأول ١٤١٨ هـ ، ١ يوليو
 ١٩٩٧ ، صرّح بأن فرصة الإسلام فى الانتشار فى أمريكا أفضل بكثير من فرصته

(١) ص ١٧٨ الإسلام كبديل . (٢) نفسه ص ٢٠٦ .

(١) مجلة العالم الإسلامى بمكة المكرمة ، ٤ - ١٠ صفر ١٤١٨ هـ .

فى أوروبا لأن أوروبا تخلت عن الدين عموماً ، ومارالت تنظر إلى الإسلام بعيون
العداوة والحقد الذي تركته الحروب الصليبية والفتوحات الإسلامية ، بينما الوضع
يختلف فى أمريكا حيث ينتشر الإسلام بسرعة حتى أنه من بين كل خمسة أطباء
فى أمريكا يوجد طبيب مسلم^(١) .

العلمانية فى الغرب لا تعادى الدين :

ويرى هوفمان أن نموذج العلمانية السياسية محقق أتم ما يكون فى فرنسا، ولكن
هناك وشائج وترايط بين الدين والدولة بصورة ما فى أمريكا وبريطانيا وألمانيا - أى
أنها لا تعادى الدين هناك - والأدلة على ذلك كثيرة معها (تدريس الدين
بالمدراس ، وأداء الصلوات فى المدارس، والضريبة التى تُستقطع من رواتب
المسحين للكنيسة ، والأعياد المسيحية و(تقديس) يوم الأحد)^(٢) .

يحتل إذن الدين مكانته الهامة اجتماعياً وسياسياً فى الغرب، وتُخفى علينا
بعض الأقلام عندنا هذه الظاهرة عن عمد، لنلقى بالدين وراء ظهورنا، ولكن
هوفمان الأمين فى نقل صورة الدين هناك، يعرفنا بمكانة المسيحية فى النظام
الاجتماعى، وفى تحديد علاقته بالسياسة عندما يتحرك ليؤدى دور استشارة الغربيين
لمواجهة الإسلام، والتحذير من المسلمين ! بل إن الأساقفة الكاثوليك يشيرون رمزاً
باجتناب التصويت لبعض الأحزاب، أليس هذا التصرف تدخلاً فى أعماق
السياسية ؟!

(١) اللواء الإسلامى بالقاهرة، ١٢ ربيع الأول ١٤١٨هـ، ١٧ يوليو ١٩٩٧ م .

(٢) ص ١٣٧ ، الإسلام كبديل، ويقول فى كتابه (الإسلام سنة ٢٠٠٠) (فى ألمانيا ، الله معتبر فى
الدستور ... يقسم الجنود بالله على ولائهم للجمهورية والدفاع عنها .. للكنائس الحق فى قرع
أجراسها، التجديف جريمة يعاقب عليها قانون العقوبات، أشار الأساقفة الكاثوليك - رمزاً - باجتنا
بالتصويت لبعض الأحزاب) ص ٤٢ ، وبعد أن يذكر تشابه الأحوال فى البلدان الأوروبية الأخرى وفى
أمريكا يقول (أما فى فرنسا فالعلمانية تؤخذ على أنها دين) .

وأمام هذه الحقائق التى لا تخفى على أحد، يعلق هوفمان على الوسواس الأوروبي ضد قيام حكومات إسلامية للخوف من أنها لن تتوافق مع الحكومات العلمانية فى الغرب ، فيقول ساخراً :

(يكون نفاقاً صريحاً رفض الحكومة الإسلامية لأنها ليست علمانية)^(١) .
وهناك مؤشرات أخرى إضافية - كما سيأتى - تقودنا إلى رؤية أكثر وضوحاً للحيـز الذى يشغله الدين فى الثقافة الغربية، كغيرها من ثقافات الأمم الأخرى ، إذ إن التأثير الدينى - فى دراسة للأستاذ محمد الرابع الندوي - يشغل حيزاً كبيراً من حياة الأمة الثقافية، بعد ملاحظته أنه فى أغلب الأحيان لا نفطن إلى ذلك، ثم يدفعنا دفعاً للتدقيق فى النظر إلى بعض المعالم التى أدهشته، فيقول :

(ولكن نظراً مُمعناً فى ذلك يكشف هذا الواقع، ومثال ذلك فى حياة الغرب المسيحى إبراز شكل صليب فى العمارات، وفى المظاهر المدنية والثقافية المختلفة، فأقواس الأبنية وأبراجها تشبه أقواس الكنائس وأبراجها أحياناً، وشعارات الهيئات الصحية وجمعيات الإغاثة توجد على شكل صليب، ومنعرجات وثقوب فى الجدران والحيطان قد ترمز إلى شكل صليب، والكرافتات المعقودة حول الرقاب ترمز إلى شكل صليب ..)^(٢) .

ويتبين مما تقدم أن أبواق الثقافة الغربية المتسللة إلى عقولنا نجحت فى إبعاد صور الدين لحكام الغرب وشعوبه ليسهل عليها خداعنا بترك ديننا وراء ظهورنا، فإن حكام بريطانيا وهولنده واسكندنافيا، يعترفون جميعاً أنهم مسيحيون ... وقد وقف هذا الموقف قادة كثيرون فى الولايات المتحدة، فالرئيس روزفلت كان معترفاً بمسيحيته وناظراً لكنيسة أسقفية، والرئيس ترومان بعد مؤتمره الصحفى الأول طلب أن يصلّى لأجله .

(١) الإسلام سنة ٢٠٠٠ ص ٤٢ .

(٢) الثقافة الإسلامية والواقع المعاصر ، محمد الرابع الحسنى الندوي ص ٥٨ ، دار الصحوة بالقاهرة ،

١٤١٠هـ / ١٩٩٠م .

ولما جاء رئيس أفريقي وثنى إلى الملكة فيكتوريا متسائلاً (إلى من تنسبن ازدهار
الامبراطورية البريطانية، دفعت إليه كتاباً مقدساً وقالت ببساطة (إلى هذا الكتاب).
وكان الإمبراطور الألماني القيصر فلهم - دارساً للكتاب المقدس - وكان يعظ في
(كنيسة) القصر أحياناً^(١) .

وعندما انتقلت قيادة العالم إلى أمريكا، كان لبعض رؤسائها مواقف دينية ثابتة فقد
ألقي الرئيس الأمريكي الأسبق جيمى كارتر خطاباً في سياسته الخارجية مع
إسرائيل، أمام « الكنيست الإسرائيلي » في شهر مارس ١٩٧٩ قال فيه : (لقد
آمن وأظهر سبعة من رؤساء الجمهورية إن علاقة الولايات المتحدة الأمريكية
بإسرائيل هي أكثر من علاقة خاصة، لقد كانت ولاتزال علاقة فريدة، وهي علاقة
لا يمكن تقويضها لأنها متأصلة في وجدان وأخلاق وديانة ومعتقدات الشعب
الأمريكي نفسه ... إننا نتقاسم معاً ميراث الثورة، وبالقدر نفسه من النجاح
تمكنت الصهيونية من التأثير الروحي على أوساط الكنائس الأمريكية ، الذين
صاروا يعتقدون أن نزول المسيح المخلص مرتبط كل الارتباط بقيام إسرائيل
الكبرى، ومن هذا المنطلق تستخدم هذه الكنائس، في غالبيتها كل إمكاناتها لحشد
التأييد لإسرائيل في أوساط الرأي العام الأمريكي)^(٢) .

الأصولية والسلفية :

يستبعد د / هوفمان أولاً شرح مصطلح (الأصولية) بأنه تعصير الدين
لكى يتفق ومتطلبات العصر، ولكن المصطلح الغربي Funda mental ism
ليس له مطابق في العربية لأنه يطلق على ظاهرة (غربية) فاستعمل أولاً لتمييز

(١) نبوة إشعيا ، تفسير سفر إشعيا ، هـ . آ : إيرنسايد ص ١٧٩ ، تعريب س . ف باز ص ٢٠٧ ، دار
الحياة - عمان ، الأردن (المقدمة بتاريخ ١٩٥٢) .

(٢) مقال بعنوان (مستقبل الصراع العربي الإسرائيلي - دراسة في الحرب القادمة) ص ١٧٧ مجلة (منبر
الشرق - يصدرها المركز العربي الإسلامي للدراسات) ذو القعدة سنة ١٤١٢ هـ ، يونيو ١٩٩٢ م .

الأمريكيين البروتستانت في القرن التاسع عشر الذين أكدوا عصمة الإنجيل في قصة الخلق رافضين النظرية الفجة عند دارون ، وينسحب أيضاً على القائلين من اليهود بالعصمة المطلقة لتوراتهم^(١) .

ثم يأتي بتعريف الأصولية في الإسلام ، وهي (عبارة عن موقف فكري ورؤية عالمية ، وبالمعنى البعيد أيضاً لحركة - ترى الالتزام بالإسلام ، كما هو في أول عهده وكما عرفه السلف الصالح من الصحابة ، منطلقاً ومثالاً يُحتذى به في صياغة المعايير والقيم وقواعد السلوك والمعاملات في عملية بناء الحاضر)^(٢) .

وهو تعريف يتوافق مع (السلفية) في رأينا . ثم الإمام أحمد بن حنبل بوصفه صيغ الإسلام بالمذهب الفقهي كما يعرفه السنيون ، وهو يقصد بذلك تغليب الاهتمام بالقضايا الفقهية على الآراء الفلسفية ، فيقول (مع الأخذ بالانتقادات الفلسفية التي قال بها الأشاعرة)^(٣) .

وفي إحدى مقالاته بكتاب (يوميات ألماني مسلم) يكتب تحت عنوان (لولا الوحي لظللنا عمياناً) فيذكر قراءته لكتابي (تهافت الفلاسفة) للغزالي وكتاب (تهافت التهافت) لابن رشد .

ويُبدى ألمه لانزلاق فلاسفة المسلمين إلى نفس شرك التساؤلات التي حاكها أساتذتهم من الإغريق !! ثم يتساءل في حيرة (هل استولى أرسطو هذا الشعبان ، على عقول هؤلاء الفلاسفة المؤمنين ... ؟)^(٤) .

رجّح د/ هوفمان إذن منهج السنة ذاكراً الإمام أحمد والأشاعرة وقد عرف شيخهم أيضاً الإمام أبا الحسن الأشعري ، كما مدح الدور الذي قام به في

(٢) الإسلام كبديل ص ١٠٧ .

(١) الإسلام كبديل ص ١٠٧ .

(٣) نفسه . ويُنظر كتابنا (السلفية بين العقيدة الإسلامية والفلسفة الغربية) ط دار الدعوة - بالاسكندرية .

(٤) ص ٤٦ يوميات ألماني مسلم .

معارضة الفلسفة ويصفه بقوله (فليس لودفيج شتاين ابن القرن العشرين هو الذي قرع النواميس إيداناً بموت الفلسفة، وإنما قرعها قبله أبو الحسن الأشعري في القرن التاسع الميلادي)^(١) .

كذلك يرى أن حركة إحياء الإسلام اتباعاً للإمام أحمد قام بها أئمة تالون له منهم الشيخ ولي الله - توفى ١٧٦٣ م - ومحمد بن عبد الوهاب - توفى (١٧٨٧م) . وهو من مؤسسي الوهابية السعودية ، والسنوسى والحركة الليبية فى الثلاثينات والإخوان المسلمون فى مصر ، والجماعة الإسلامية الباكستانية) .
ويدافع عن مثقفى الأصوليين رداً على الاتهامات الظالمة الموجهة إليهم قديماً وحديثاً بالسذاجة والتأخر والاستمساك الحرفى بالنصوص، فيكتب (علماً بأن وسائلهم فى الدرس، والتحليل والاستنتاج ومعالجة النصوص، تتفق وأفضل نتائج فلسفة اللغة التحليلية للمعاصرين فى أوطانهم)^(٢) .

وقد أسس د / هوفمان هذا الحكم الصائب على أساس متين من الاقتناع بأن (حدود ما يمكننا إدراكه ليست هى حدود الحقيقة ، وبقدر ما نحن أسرى لمعجمنا الذى وضعناه بأنفسنا ، بقدر ما تبدو قدرتنا - حتى بمساعدة الوحي - عاجزة عن إدراك سوى لمحات من حقيقة الله - عز وجل - الشاملة)^(٣) .

وكان مقتنعاً برأى ابن خلدون الذى أورده فى المقدمة، وخلاصته (أن العقل هو فى الواقع ميزان سليم، ومع ذلك فإنه ينبغى ألا يستخدم العقل لوزن بعض الأمور مثل : وحدانية الله عز وجل، والعالم الآخر، وصدق النبوة، والصفة الحقيقية للخصائص الإلهية، وإن المرء ليقارن ذلك بالرجل الذى يرغب فى وزن الجبال بميزان الذهب)^(٤) .

(١) الإسلام كبديل ص ٧٤ .

(٢) الإسلام كبديل ص ١٠٨ .

(٣) يوميات الماني مسلم ص ١٢١ .

(٤) نفسه ص ٨٨ .

ونحن نقرّه على رأيه باستثناء صدق نبوة نبينا ﷺ ، إذ ذهب علماؤنا إلى إمكان إثباتنا بالعقل بناءً على أمر الله عز وجل في القرآن الكريم .
ومثال ذلك قوله تعالى ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلَىٰ خِزْفٍ ﴾ (سورة سبأ الآية ٤٦) .

قال القاسمي في تفسير هذه الآية (أى قياماً خاصاً لله بلا محاباة ولا مراعاة اثنين اثنين ، وواحداً واحداً) ثم تتفكروا (أى فى أمره ﷺ وما جاء به من الهدى وإصلاح الأخلاق، ورفع النفس عن عبادة ما هو أحط منها من الأوثان إلى عبادة فاطر السموات والأرض، واتباع الأحسن ونبذ التقاليد وإنزال الرؤساء إلى مصاف المروسين رغبة فى الإخاء والمساواة، إلى غير ذلك من محاسن الإسلام وخصائصه فى الكتب المؤلفة فى ذلك وقوله تعالى ﴿ مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ ﴾ أى جنون ، مستأنف وصفه لهم على ما عرفوه من رجاحة عقله كاف فى ترجيح صدقه . . . والتعبير عنه ﷺ بـ (صاحبهم) للإيماء أن حاله معروف مشهور بينهم . لأنه نشأ بين أظهرهم بقوة العقل، ورزانة الحلم وسداد القول والفعل ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ وهو عذاب الآخرة والمآل^(١) .

وعلى آية حال، فقد كان د / هوفمان مقتنعاً بصحة منهج أهل السنة ناقداً منهج المعتزلة (باتخاذهم منطقهم هم المعيار الأعلى الذى يحتكمون إليه)^(٢) .
هذا ، بينما ما يطمح إليه السنّى فى معرفة الله عز وجل (وخلقته وتصاريقه إنما يؤخذ من الوحي، الذى لا يمكن للبشر الإحاطة به عن طريق العقل)^(٣) .

(١) القاسمي : محاسن التأويل ص ١٤ ص ٤٩٦٦ ، تصحيح محمد فؤاد عبد الباقي ، ط الحلبي و ينظر كتابنا (الإسلام والأديان) ص ٢٣٧ ، وما بعدها عن (المدخل العقلي لصدق نبوة محمد ﷺ) ط دار الدعوة بالإسكندرية .

(٢) الإسلام كبديل ص ٧٢ . (٣) نفسه ص ٧٣ .

وبحكم اطلاع هوفمان على مذاهب الفلسفة الألمانية ، فقد استخلص من آراء الفيلسوفين (كانت) و (فنجشتاين) فى العصر الحديث ما يؤيد صحة منهج أهل السنة ، فيكتب متسائلاً (ولئن كان من علامات الذكاء الأخذ بنقد نظرية المعرفة واتباع الفيلسوفين « كانت » و « فنجشتاين » فى الاقتناع بالمحدودية الضيقة للإدراك الحسى، وللمنطق البشرى، أفىكون من علامات الغباء إذن أن يأخذ المسلمون بالنقد نفسه، أى بعجز المنطق والإدراك الحسى فى تناول ما وراء الطبيعة، أو الغيبيات التى ترد فى القرآن) ؟! ^(١) .

٣ - روجيه دوباسكويه

(إظهار الإسلام)

كاتب وصحفى سويسرى يبلغ من العمر نحو ستين عاماً ، درس الإسلام واعتنقه تحت اسم : سيدى عبد الكريم ، وكذلك أسلمت زوجته الهولندية ^(٢) . وبإحساس عميق بالأزمات التى تأخذ بخناق العالم ، يبدأ روجيه أو (عبد الكريم) الفصل الأول من كتابه - وهو بعنوان (تحدى العصر) - فيسجل قلقه وانزعاجه ، ويكتب هذه الأسطر :

(يبدو أنه لا شئ على الأرض يمكنه الهروب من الأزمات التى تزلزل العالم الحديث، لا يكفى الحديث عن أزمة حضارة بعد أن اكتسبت الظاهرة أبعاداً عالمية وبعث الظلام الوشيك شعوراً متزايداً بعدم الاطمئنان) ^(٣) .

(١) الإسلام كبديل ص ١٠٩ ،

(٢) ص ٥٧ ، من كتاب (الإسلام فى الفكر الغربى) للواء / أحمد عبد الوهاب ، مكتبة التراث الإسلامى ١٩٣٣ م .

(٣) ص ٩ إظهار الإسلام .

وها هو ينضم إلى سلفيه في الرغبة في الخروج من هذا المأرق المتمثل في الأزمات التي تعصف بالإنسان المعاصر فتفقده نفسه ، والبحث عن البديل الذي وجده في الإسلام فيقول :

(يساعد الإسلام المرء على العيش في هذه المرحلة من التاريخ بدون أن يفقد نفسه، تقدم الحلقة النبوية الخاتمة في سلسلة التنزيل الإلهي وسائل مقاومة الفوضى الحاضرة، وإعادة تأسيس الطمأنينة والوضوح داخل الروح - مع التوافق في العلاقات البشرية - وتحقيق الغاية العظمى التي خلقنا الله لها)^(١) .
وبهذا البيان الموجز عرّف برسالة الإسلام كوحى إلهي جاء به الأنبياء والرسل جميعاً عليهم السلام وخاتم النبيين محمد ﷺ .

وأخذ روجيه - مثلما فعل^(٢) د/هوفمان - يقترح الإسلام لحل أزمة حضارة العصر، ولكن بسبب هذه الظاهرة أكسبتها أبعاداً عالمية فقد أصبحت تزلزل العالم الحديث .

ولا يستثنى العالم الإسلامى - من حالة الأزمة - التي لم يسبق لها مثيل ولكنها أخف وطأة من أزمة الغرب الصناعى (فليست أساساته الأخلاقية والروحية رهن التحدى بنفس الطريقة ، وتحفظ الغالبية العظمى من المسلمين بإيمانها التقليدى ، الأزمة التي تمر بها البلاد الإسلامية أزمة مادية)^(٣) .
فقد دخل روجيه الإسلام من باب اليقين بأن القرآن الكريم هو معجزته الدالة على صدق الرسول ﷺ ، وسيرته تقدم للإنسان أحسن منهج للحياة الإنسانية ، فإن كل (حياته - ﷺ - كانت امتثالاً لله)^(٤) .

(١) نفسه ..

(٢) وذكر في المقدمة أنه قابله بالمغرب حيث أخبره هوفمان بإسلام شخصيات هامة في ألمانيا ، منها المتحدث باسم الحزب المسيحي في بون « وسفير السويد السابق في المغرب الذي قال لروجيه (الإسلام هو الطريق الطبيعي للمفكر الأوروبي ص ٧) .

(٣) إظهار الإسلام ص ٢٦ . (٤) إظهار الإسلام ص ٦٣ .

(عاش محمد ﷺ وأنجز مهمته بالاعتبار الكامل للدنيا والآخرة، وأعطى المثل فى إمكانية تحقيق الحالة الانسانية على الأرض بدون إغفال - ولو للحظة - البعد الروحى، وأقام الاتزان الرائع الذى يميّز المسلم ، والذي يسمح له بالتمتع بالحياة الدنيا دون أن ينسى أننا كلنا راجعون إلى الله عز وجل ومائلون أمامه ^(١) . ولا تعجبه مظاهر التطبيق الغير الكامل للشريعة فى بعض البلاد الإسلامية أو إبعادها عن البلاد الأخرى ويزعجه انحدار القيم الأخلاقية فى العالم الإسلامى المعاصر .

هذه الانحدارات الأخلاقية لا تحمله على الحكم على الإسلام من واقع أحوال المسلمين إذا أخذ يرفع الغشاوة عن أعين بنى قومه (لإظهار الإسلام) ويعنى به (إثبات الدليل على إمكان العيش فى ظلال الحقيقة على المستويات الفردية والجماعية، عيشة كاملة بلا تنازل ولا حلول وسط) ^(٢) .

لما كان غرضه شرح رسالة الإسلام بطريقة تناسب القراء أصحاب الخلفية أو التعليم الأوروبى، ونضيف المخدوعين - أو ضحايا - حضارة العصر ، فقد حرص على تصحيح المفاهيم حول الانسان : نشأته، ومكانته ، حتى يزيل أثر تجاهل - أو جهل - الحضارة العصرية للبعد العلوى ، وتطلّع الإنسان للسمو والكمال ، إنها تجهل سبب ميلادنا (لماذا نعيش ، ولماذا يجب أن نموت) ^(٣) .

بينما يعرف الإسلام منزلة الإنسان بين الخلق أمام الله تعالى ، ويعيد تأسيس الطمأنينة داخل الروح ، (مع التوافق فى العلاقات البشرية وتحقيق الغاية العظمى التى خلقنا الله لها) ^(٤) . وهو التصور الصحيح الذى يحقق الطمأنينة ويرتقى بالإنسان بدلاً من الخط من قيمته واختزاله إلى مجرد مادة

(١) إظهار الإسلام ص ٦٥ .

(٢) إظهار الإسلام ص ٦ .

(٣) إظهار الإسلام ص ١٠ .

(٤) إظهار الإسلام ص ٩ .

وظائف كمية مسخرة للإنتاج والاستهلاك مع إفساده (وتمزيق داخله وإفراغ حياته من المعنى والأمل)^(١) .

الإسلام مبنى على عقيدة التوحيد

وتقتضى شهادة (لا إله إلا الله) الامتثال الضروري والتسليم لمشيئته - عز وجل - ، ثم تأتى الخطوة الثانية (محمد رسول الله) فتقرر (أنه لتحقيق الامتثال والتسليم لله ، لا توجد وسائل أفضل من اتباع رسوله ﷺ)^(٢) .

وتتضح سهولة ممارسة شعائر الإسلام بوصفها سهلة ومرنة تناسب كل ظروف الحياة - حتى عصرنا - وتصور (فعالية الممارسة - بوضوح - حفظ الاتزان الرشيد بين الروح والجسد)^(٣) .

ويتوقف روجيه Liecny بشعائر الإسلام لجعل منها سبيلاً لتحقيق العبودية لله عز وجل وتذكيراً له بحقيقة الحياة ومغزاها إذ يعدّ السجود فى الصلاة عن تطلع العابد للتسليم الكلى للذات الإلهية ، وعندما يحقق الإنسان قوله تعالى ﴿ فَادْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾ فإنه يحافظ (على الصلة بين المرء والحقيقة ، بينما تحوّل الغفلة إلى كائن هامشى مقهور بالمظهر الكمى الخارجى للعالم ، والجاذبية الدنيوية الواضحة فى أخريات القرن العشرين)^(٤) ويعرف الصلاة بأنها :

(ليست الصلاة عمل عقلى فقط ، بل تسمو بكل كيان المصلّى وتشمل أربعة

(١) نفسه ص ١٣ . (٢) إظهار الإسلام ص ١٩ .

(٣) نفسه ص ٢٠ . (٤) إظهار الإسلام ص ٢١ .

أوضاع رئيسية ، القيام ، الركوع ، السجود ، الجلوس) .
ويقوى الصيام إرادة المسلم ويهذب رغباته ويزيد اتصاله الروحي بالله عز وجل
وتهذب الزكاة الغنى وتعين الفقير وتقيه الحقد والحسد ، وتزرع التكافل والتراحم
ويعنى الحج الكثير ، فهو عودة للمركز ، للكعبة ، وتأکید لوحدة العالم
الإسلامي فتتلاشى الاختلافات وتذوب الفوارق ^(١) .

مكانة الإنسان

أصاب روجيه في فهم آية « الأمانة » بإنها تمنح الإنسان حرية الاختيار في
قوله تعالى : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ
يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ (سورة الاحزاب
الآية ٧٢) .

كما يدل على أنه اطلع على أحد تفاسير علماء السنة ، يضيف إليها بسابق
خبرته بمذاهب الفلاسفة أنها تجيب على سبب وجود الانسان في الأرض وبذلك
يقدم الإسلام (علم الإنسان) تام الترابط فى مقابل (الإدارية
الحديثة) ^(٢) .

كذلك أصاب في فهمه أن الإسلام يقدم العلاج الأكثر فعالية لمرض العصر.
وهو ماسماه (تكبر إبليس) ، بعد عرضه لقصة غواته إبليس لأدم عليه السلام ،
ثم قبول الله تعالى لتوبته وهدايته ، هذه الهداية هي الدين الأزلى ، الذى اتخذ على
مرّ العصور تعابيراً متعددة ، ختامها ما أنزل على النبي ﷺ ، إذ يبين الإسلام
للمرء كيف ينجو من إبليس ، ويتمتع فى الأرض بما أحله الله له ، فهو دين وسط
- وإن كانت الآخرة أكبر تفضيلاً - وينظم حياة المرء بانسجام بين الحياة الفردية

(١) نفسه ص ١١٢ / ١١٥ باختصار .
(٢) إظهار الإسلام ص ٢٢ ، ٢٣ .

والجماعية ليعيش في رضا وقناعة بمشيئة الله تعالى^(١) ويدرسته للتاريخ أيقن أن القيم الأخلاقية في الشريعة كفلت استقرار وانسجام المجتمعات الإسلامية لقرون طويلة، ولكنها تواجه الآن تحدياً خطيراً لا سيما من الشباب المقلدين لغيرهم في أمريكا وأوروبا، كذلك تغيرت القيم الأخلاقية عند النساء، بسبب التغيرات الاجتماعية والاقتصادية التي زلزلت البلاد الإسلامية عقب الحرب العالمية الثانية، وبالرغم من الأعداد التي لا تحصى من المؤمنين المتمسكين بدينهم بإخلاص إلا أن حياة المسلم تُقاسى اليوم انحطاطاً لم يسبق له مثيل منذ عصر النبوة، لذلك يحتاج الأمر إلى مزيد من الإصرار والجهد والمثابرة (ويعزى أولئك المتمسكين بدينهم جاء في حديث الرسول ﷺ : (يأتى على الناس زمان القابض فيهم على دينه كالقابض على الجمر)^(٢). والكلمات الأخيرة هي من حديث طويل للرسول ﷺ، فعن أبي أمية الشعباني قال : (سألت أبا ثعلبة الخشني قال: قلت يا أبا ثعلبة كيف تقول في هذه الآية ﴿عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾؟ قال: أما والله لقد سألت عنها خيراً، سألت عنها رسول الله ﷺ فقال: { ائتمروا بالمعروف وانتهوا عن المنكر حتى إذا رأيتم شحاً مطاعاً وهوى متبعاً، ودنيا مؤثرة وإعجاب كل ذي رأي برأيه، فعليك بنفسك، ودع عنك العوام، فإن من ورائكم أيام الصبر فهن مثل القبض على الجمر للعامل، فيهن مثل أجر خمسين رجلاً يعملون مثل عملكم } رواه ابن ماجه والترمذي، وقال : حديث حسن غريب، وأبو داود وزاد :

قيل يارسول الله : (أجر خمسين رجلاً منّا أو منهم؟ قال : بل أجر خمسين منكم)^(٣) .

(١) إظهار الإسلام ص ٣٥ .

(٢) نفسه ص ١٢٣ .

(٣) الترغيب والترهيب للمنذري ج٤ ص ١٢٥ / ١٢٦ . ضبط أحاديثه وعلّق عليه مصطفى محمد عمارة ط الحلبي بمصر ١٣٨٨ هـ / ١٩٦٨ م .

ويتضح من كتابه أنه اجتاز الطريق الصحيح إلى الإسلام حيث أيقن صحة القرآن الكريم بدراسته لسيرة النبي ﷺ فلم يقدم أحد (تفسيراً مقبولاً لكيفية تقديم تاجر قوافل أمي مثل هذا النص الذي لا يضاهي في الجمال ، وإثارة الانفعالات، الذي يزخر بمعرفة وحكمة يحلقان عالياً عن الأفكار السائدة في ذلك العصر، وحتى اليوم)^(١) .

وخلاصة آرائه تقديم التفسير الصحيح بما يتفق مع التنزيل عن الإنسان ومصيره، فاتّجه بكل عناية لتقديم الحل للإنسان المتأزم في ظل حضارة قدمت له وسائل الراحة والرفاهية والإنتاج الوفير، ولكنها لم تحقق له واحة الأمان والطمأنينة النفسية، التي بدونها تصبح الحياة جحيماً لا يطاق .

وباتّباعه للطريقة العلمية في التفكير، تأكد من نبوة نبينا محمد ﷺ ، وانبهر بكلام الله عز وجل - القرآن الحكيم - ووقف بعد التجارب العملية على أسرار العبادات ، وفي قمتها الصلاة .

إن القارئ لكتابه (إظهار الإسلام) يرى روحه وكأنها تقفز بين سطوره بالإيمان ، محققاً في الواقع حديث الرسول ﷺ (ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان : أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا الله ، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار) رواه البخاري .

والإسلام إذن دين الوضوح واليقين والدراسات التي تحاول جاهدة تحديد المصادر التي استخدم بزعمها الرسول ﷺ أو تلقى الضوء على أحواله النفسية ، هذه الدراسات أبرزت شيئاً واحداً فقط (أبرزت تعصب الدارسين ضد الإسلام)^(٢) .

(١) نفسه ص ٧٣ .

(٢) نفسه ص ٧٣ .

وهكذا يأتي الفكر الإسلامى الغربى ليضيف أقوى دليل إلى أدلتنا التى نستمسك بها، أي موقفنا الثابت الذى يتلخص فى أن التنازل عن منهجنا الذى خطه لنا رسول الله ﷺ، يعنى التنازل - بمحض إرادتنا - عن المنهج الحق والنزول عن مستواه إلى مستوى المناهج البشرية التى يختلط فيها الحق بالباطل، وهو يعنى أيضاً قبولنا للاحتواء داخل دائرة الثقافة الغربية، لامناذتها وتحديها، كما فعل علماؤنا طوال تاريخنا، إعتزازاً بإسلامهم واعتقاداً بأفضلية ثقافتهم النابعة من التنزيل .

كذلك يعطينا هذا الفكر مفاتيح حل أزمت عصرنا، ويزيل عن بعض المثقفين الوهم بأن الفكر الإسلامى لا يزال يعيش فى الماضى ويعجز عن التصدى لمشكلات الحاضر .

إن أفكارهم فى مجملها سمة من سمات الطبيعة المتجددة لهذا الدين .

الفكر الإسلامى

فى مواجهة الفلسفة البرجماتية (العملية)

وأخيراً سنعرض فى الصفحات التالية بإيجاز للفلسفة البرجماتية- أى العملية - التى يراها البعض أساس نجاح التجربة الأمريكية، والتى يُراد لها أن تُعمّم على مستوى العالم المعاصر باعتبارها النموذج الذى يُحتذى للّحاق بركب الحضارة .

وسيتّضح لنا بعد مناقشة هذه الفلسفة أنها لا تقوى على الصمود أمام النقد بالمنهج الفلسفى ثم يأتى الفكر الإسلامى ليدعم هذا النقد، ويضيف عرض البديل الذى تحقق فى ظل الحضارة الإسلامية، ومازالت دعائمه قائمه، وهى التى أبقت على أمة الإسلام وحضارتها التى وصفها توينبى بأنها (نائمة) متوقفاً أن النائم لا بد أن يستيقظ !! .

تنسب (البرجماتية) كفرع فلسفى إلى أصل شجرتها المسماة بـ(الوضعية)، فيجب أن نعرّف أولاً بالوضعية ليسهل علينا بعد ذلك فهم أحد معالم الفلسفة البرجماتية .

إن الوضعية (هى اتجاه فكرى يقنع بما هو كائن ويفسره ويرفض أن ينبغى أن يكون) ثم أخذت الوضعية الشكل الجديد فى الولايات المتحدة الأمريكية اسمه (البرجماتية)، هذا الشكل الجديد يحدده الدكتور توفيق الطويل بقوله (إذا كانت الوضعية قد رفضت التسليم بالحقائق المطلقة والقضايا الميتافيزيقية ، فإن الفلسفة العملية لا تتردد فى قبولها واعتبارها صادقة متى كانت مفضية إلى نفع يتحقق فى حياة الإنسان)^(١) .

ولفهم مضمون هذه الفلسفة ، ينبغى أن نعرف أولاً أصلها اللغوى ثم نتنقل

(١) د . توفيق الطويل : الفلسفة الخلقية . نشأتها وتطورها ص ٢٧١ دار النهضة العربية بالقاهرة سنة ١٩٦٧م .

إلى التعريف بمؤسسها (بيرس) ، ثم بيان تفصيل الفلسفة عن أبرز فلاسفتها وهو
وليم جيمس .

والأصل اللغوي يفيد (ماهو عملى) ومن هنا أطلق عليها
اسم (الفلسفة العملية) ، لذلك فإنها تهتم بالعمل على حساب النظر^(١) .

إن مؤسس المذهب الفلسفى هو تشارلس ساندر بيرس (١٨٣٩-١٩١٤)م
وصاحب فكرة وضع (العمل) مبدأ مطلقاً فى مثل قوله (إن تصورنا لموضوع
ماهو إلا تصورنا لما قد يتتج عن هذا الموضوع من آثار عملية لا أكثر) .

وهذا يعنى أن علامة الحقيقة أو معيارها العمل المنتج لا الحكم العقلي .

ويتوسع فى دائرة العمل بحيث يشمل المادى والخلقى أو التصور ، وتثمر هذه
النظرة للعمل اتساع العالم أماناً ، إنه عالم مرن ، نستطيع التأثير فيه وتشكيله ، وما
تصوراتنا إلا فروض أو وسائل لهذا التأثير والتشكيل^(٢) .

أما أشهر فلاسفة البراجماتيزم فإنه وليم جيمس (١٨٤٢ - ١٩١٠م) الذى
تدرج فى اهتماماته العلمية والفلسفية التى تلقاها فى معاهد وجامعات أوروبية
وأمرىكية حتى حصل على درجة (الدكتوراه) فى الطب من جامعة هارفارد سنة
١٨٧٠ ، وعين أستاذاً للفسيولوجيا والتشريح بها ، ثم أستاذاً لعلم النفس فبرز
فيه^(٣) .

ويتبين من ترجمة حياته أن سبب اتجاهه إلى الفلسفة يرجع إلى سماعه
لمحاضرة فلسفية ألقاها (شارل بيرس) الذى كان يعرض فيها مذهبه ، ف شعر وليم

(١) د . مراد وهبه : قصة الفلسفة ص ١٠١ ط دار الثقافة الجديدة بالقاهرة ١٩٨٠م والوضعية تنسب إلى
الفيلسوف الفرنسى (أوجست كونت ١٧٩٨ - ١٨٥٧) ثم امتدت إلى المخترا على يد (هربرت سبنسر
١٨٢٠ - ١٩٠٣) والولايات المتحدة الأمريكية على يد شارلس س . بيرس (١٨٣٩ - ١٩١٤)
وليم جيمس (١٨٤٢ - ١٩١٠) ثم جون ديوي (١٨٥٩ - ١٩٥٢ م) .

(٢) يوسف كرم : تاريخ الفلسفة الحديثة ص ٤١٧ / ٤١٨ ، ط . دار المعارف بمصر سنة ١٩٦٩ م .

جيمس على أثرها وكأنه ألقى عليه رسالة محدده، وهى تفسير رسالة (البرجماتية)^(١).

ويعرّف وليم جيمس الحقيقة بأنها (مطابقة الأشياء لمنفعتنا ، لا مطابقة الفكر للأشياء) ولا اختصار الإحاطة بهذه الفلسفة فإن مدخل دراستها يقتضى تحليلها إلى مكوناتها الأساسية فى النظم والقيم ، فنحن أمام مقولتين :

الأولى : إزدراء الفكر أو النظر .

الثانية : انكار الحقائق والقيم .

أى بعبارة أخرى أكثر وضوحاً ، فإن العمل عند جيمس مقياس الحقيقة (الفكرة صادقة عندما تكون مفيدة . ومعنى ذلك أن النفع والضرر هما اللذان يحددان الأخذ بفكرة ما أو رفضها) ^(٢) .

وقد نبتت فلسفته منذ بداية اهتماماته بها من حاجاته الشخصية ، إذ عندما أصيب فى فترة من عمره بمرض خطير، استطاع بجهوده أن يرد نفسه إلى الصحة، فاعتقد أن خلاص الإنسان رهن بإرادته، وكان الموحى إليه بالفكرة المفكر الفرنسى (رنوفيير) الذى عرف الإرادة الحرة بأنها (تأييد فكرة لأن المرء يختار تأييدها بإرادته حين يستطيع أن تكون له أفكار أخرى) .

وكانت تجربة شفائه من المرض قد هدته إلى أهمية العمل ورجحت عنده الاجتهاد فى العمل بدلاً من الاستغراق فى التأمل (لأن العمل هو الإرادة البشرية استحالت حياة) ^(٣) .

(١) هنري توماس ودانالي توماس : المفكرون من سقراط إلى سارتر ص ٤٣٠ / ٤٣١٠ ترجمة عثمان نويه - مكتبة الأنجلو المصرية سنة ١٩٧٠ .

(٢) مراد وهبة / قصة الفلسفة ص ١٠٥ .

(٣) نفسه ص ٤٣٣

وتلون هذه الفلسفة نظرة أتباعها إلى العالم . فإن العالم الذى نعيش فيه ليس نظرية من النظريات، بل هو شئ كائن، وهو فى الحق مجموعة من أشياء كثيرة، وليس من شئ يقال له الحق دون سواه . إن الذى ندعوه بالحق إنما هو فرض عملى - أى أداة مؤقتة نستطيع بها أن نحيل قطعه من الخامات الأولية إلى قطعة من النظام .

ويلزم من هذا التعريف للعالم، أنه خاضع للتحويلات والتغيرات الدائمة ولا يستقر على حال (فما كان حقاً بالأمس - أى ماكان أداة صالحة أمس - قد لا يكون اليوم حقاً - ذلك بأن الحقائق القديمة، كالأسلحة القديمة - تتعرض للصدأ وتغدو عديمة النفع)^(١) .

نقد البرجماتية من وجهة النظر الفلسفية :

- ١ - فى نقدنا لهذه الفلسفة، سنبدأ بالمنهج المقارن حيث يتبين أنها فى جوهرها الفلسفة الرواقية القديمة، ومؤسسها زينون (٣٤٣ - ٢٧٠ قبل الميلاد) !! فإذا أباح وليم جيمس لنفسه بعث الحياة فيها من جديد، فإن ذلك يقوض دعائم فكرته عن استبعاد (الحق القديم) كما سنوضح بعد قليل .
- ٢ - الحق قيمة مطلقة - وليست نسبية - وإلا فإن المجتمع يصاب بالفوضى المدمرة لكيانه وبعلاقاته مع غيره من المجتمعات بسبب الحرب .
- ٣ - هل نلتزم بالدين لأنه نافع ؟

إن هذا الاعتقاد يجعل البرجماتية فى موضع نقد شديد لأنها أخضعت أعظم علاقة تربط بين العبد وربّه - عز وجل - إلى مجرد علاقة نفعية تتأرجح بين الإيجاب والسلب ، فأين الإيمان الذى يهب الإنسان القدرة على مقاومة أعتى الصعاب ؟ وهو نفسه - أى وليم جيمس - فى طور من أطوار حياته - استطاع

(١) هنري توماس / المفكرون من سقراط إلى سارتر ص ٤٣٨ .

التغلب على المرض بإرادته النابعة من إيمانه !!

ونأتى الآن إلى التحليل والتفصيل فى نقد المذهب :

١ - لتقويم هذه الفلسفة ينبغى ألا نبخس وليم جيمس حقه فى بعثه للأمل الذى يحفزنا إلى تحدى الشر وغلبته ويهينا الشجاعة (على أن نأخذ الحياة غلاباً)^(١) وحثنا على ترقية العالم، لأنه فى وسعنا أن نهض بترقيته بفضل إرادتنا.

هذا الشرط من فلسفته لاغبار عليه ، بل يتضمن كثيراً مما يحتاجه الإنسان الفرد لشحذ إرادته، ودفعه إلى العمل الإيجابي المثمر، ولكن وفق أى (مبدأ) ؟ تلك نقطة الخلاف معه، إذ نعتقد بثبات القيم والمبادئ فى بداية الطريق ، ثم نمضى بإرادتنا لتحقيقها وإذا فرض وفشلنا فى الوصول إلى الهدف ، فلنعد النظر فى طريقنا إذ ليس العيب فى (المبدأ) ولكن العيب فىنا وفى منهجنا .

وبغير الاعتقاد فى ثبات المبادئ ، فإننا لسنا أمام فلسفة جديدة وإن بدت كذلك، ولكنها مجرد إعادة للنظرية الرواقية القديمة (مضافاً إليها الروح النضالية الحديثة)^(٢) . فإن الخير الحقيقي عند الرواقى القديم فى حكمة الاختيار وحدها وليس فى الشئ المختار الذى يصطفيه (مثله كمثل ضارب القوس يهدف إلى عين الثور، فغايته ليست فى إصابة الهدف نفسه، بل إظهار مهارته فى إصابته)^(٣) !! .

(١) هنري توماس : المفكرون من سقراط إلى سارتر ص ٤٣٦ .

(٢) نفسه ص ٣٢٧ .

(٣) د . هـ . سدجويك : المجلد فى تاريخ علم الأخلاق ج ١ ص ١٦٥ . ترجمة وتعليق د . توفيق الطويل وعبد الحميد حمدي - دار نشر الثقافة بالإسكندرية ١٩٤٩ معنى ذلك أننا نساوي وفق هذه الفلسفة بين اللص الذى ينهب الثروات وينجح فى جمعها بأية وسيلة ، وبين التاجر الذى ينمي ثروته وفق مبادئ الشرف والصدق (والرواقية تنسب إلى زيتون الرواقى (٣٤٣ - ٢٧٠ ق . م) وكان يختار (ليعلم الناس فيه) .

ولكن من جهة أخرى يرى الدكتور توفيق الطويل، أن العمليين اتفقوا مع السوفسطائية فى رد القيم إلى الإنسان ولكنهم خالفوا السوفسطائية فى جعل الإنسان - وليس الفرد - معيار هذه القيم، فقصدوا بهذه التجربة الإنسانية وهي تجربة تصطبغ فى نهاية المطاف بطابع اجتماعي (الفلسفة الخلقية ص ٢٧٢ .

إن تعليق الحكمة هنا فى مظهرها العملى - أى على النجاح فى ذاته بصرف النظر عن إصابة الهدف - تجعل من المجتمع غابة من الوحوش الضارية يأكل بعضها بعضاً إذ تتنافس على (التفوق) و(الغلبة) ولا تتفق إراداتها على تحقيق أى قيمة من القيم الفاضلة : كالحق والعدل والإيثار وغيرها من الفضائل الإنسانية الثابتة فى ذاتها .

فهل نحن مرة أخرى أمام دليل جديد يثبت أن الفلسفة الغربية تعيش على تراثها القديم ؟

٢ - يرى وليم جيمس أن (الحق) إنما هو فرض عملى ، أى مجرد أداة يختبر بها (تصوره) السابق ، ويرى أن الحقائق تنقسم إلى قديمة وجديدة !!

والصواب الذى يتفق عليه أغلب الفلاسفة ، أن الحق يستمد قيمته المطلقة من قيمته الثابتة خارج مقولاتى (الزمان) و (المكان) .

ونراه أيضاً يخلط خلطاً معيباً بين المبادئ والأهداف حيث يصبها فى قالب (المنفعة) ، بينما التفكير السليم يقتضى العكس ، أى الإيمان بالفكرة والعقيدة أولاً عن اقتناع وثبت بقيمتها الذاتية ، ثم السعى بمقتضاها مهما قابلنا فى طريقنا من صعوبات ، فضلاً عن افتقاد (المنافع) وهذا هو منهج الأنبياء والرسل عليهم السلام .

ومهما كانت نية وليم جيمس وحوافزه ذات الطابع الأخلاقى فإن صدق فلسفته كانت متعارضة مع نواياه فقد فوجئ بإخوانه الأمريكيين يندفعون لتكديس الثروات ، وأخذ يلومهم (لأنهم يعبدون تلك الآلهة الفاجرة التى تدعى «النجاح»)^(١) .

ولكن ماذا كان يتوقع غير ذلك ؟

(١) هنري توماس المفكرون من سقراط إلى سارتر ، ص ٤٣٩ .

إن هذا هو المصير المحتوم والنتيجة المنطقية لفلسفة تعظم المنفعة وتزدرى الفكرة الثابتة والقيم المطلقة^(١) .

يقول الدكتور توفيق الطويل فى تقييم هذه الفلسفة (ويكفى أن تعتبر البراجماتية الحق أو الخير كالسلعة المطروحة فى الأسواق ، قيمتها لا تقوم فى ذاتها بل فى الثمن الذى يدفع فيها فعلاً ، فالحق فيما يقول جيمس كورقة نقد تظل صالحة للتعامل حتى يثبت زيفها ! ولم يجد أصحاب البراجماتية غضاضة فى النظر إلى الحق أو الخير كما ينظرون إلى السلعة التى تطرح فى الأسواق ، هذه هى العقلية الأمريكية فى الفلسفة وفى الأخلاق وفى السياسة وفى كل مجال)^(٢) .

ونضيف إلى ذلك أن هذه الفلسفة كانت ملهمة للنظام الرأسمالى القائم على مبدأ المنافسة الحرة^(٣) . ثم ظهرت مساوؤه عند التطبيق،

(١) وفى تحليل المجتمع الأمريكى المعاصر . يقول الأستاذ / هيكال الصحفى المعروف ذو الخبرة الواسعة بالسياسة العالمية : (إننا نتصور أحياناً أن التأثير ممكن بمنطق الحق والعدل والقانون، وننسى أننا حيال مجتمع تعود أن يتعامل مع الواقع بصرف النظر عن التاريخ ، وبالنسبة لمعاييره فليس هناك حق ولا عدل ولا قانون فى المطلق . إنما معيار القيمة الوحيدة هو النجاح) من كتابه (زيارة جديدة للتاريخ) .

(٢) د . توفيق الطويل : الفلسفة الخليفة ص ٢٧٨ .

(٣) د . مراد وهبة : قصة الفلسفة ص ١٠٥ .

ويرى أن المنافسة الحرة غير المقيدة تضرب فى نهاية أمرها بالمشروعات الخاصة ، الأمر الذى يؤدى إلى ضرورة تكتلها واتخاذها على هيئة شركات كبرى وبنوك وغرف تجارية فتنتهى الرأسمالية إلى مرحلة احتكار يتم فيها تقسيم العالم بين الاحتكارات الدولية الكبرى ، وتسمى هذه المرحلة بالإمبريالية ، ويظهر التطور للهيكال الاقتصادى للرأسمالية لزم تفسير فى الفكر الفلسفى البرجماتى الذى عبر عنه (ديوى) فى جمعه بين فكره (المعمل) كمقياس للحقيقة من البرجماتية و (الروح المطلق) عند هيجل . يقول الدكتور وهبة (ولهذا فإن الاحتكارية فى حاجة إلى إيديولوجية تروج لإزالة الفوارق والفواصل من جهة ، وإلى تجميد الأوضاع الاجتماعية من جهة أخرى وليس فى الإمكان توفير الإزالة والتجميد إلا بأن ترقى الإيديولوجية المطلوبة إلى مستوى المطلق (ص ١٠٩ نفس المصدر - ويقصد بإزالة الفوارق بين أصحاب المعتقد الواحد ثم تذويب الفوارق بين المعتقدات كلها . كذلك يرى أنه من أجل تحقيق الخطوة الأولى تشكلت منظمات دينية فى المسيحية باسم (مجلس الكنائس العالمى) الذى أسس سنة ١٩٤٨ م (ص ١١٠ نفسه) .

واستفحلت أخطاره التي تتضح - كما يرى الدكتور فؤاد زكريا في ثلاثة :

أ - اللاأخلاقية بالرغم من التقيد ببعض الفضائل كالأمانة والانضباط والدقة ومراعاة المواعيد ولكنها - كفضائل - ليست مقصودة لذاتها ولكنها تفيد الرأسمالي في تعامله مع الغير ، وتظهر (اللا أخلاقية) بوضوح في أساليب الدعاية والإعلان .

ب - الارتباط الوثيق بالحرب .

ج - الانحرافات السلوكية وأظهرها الإجرام ، إذ إن فتح الباب على مصراعيه للمنافسة والصراعات من شأن تمجيد العنف، ويتضح الانحراف بصورة أخرى في شرب المسكرات والمخدرات وعقارات الهلوسة وغيرها (وتفسيرها أنها ظاهرة هروبية من واقع العنف والمنافسة المريرة التي لا ترحم)^(١) .

٣ - ولم يسلم (الدين) أيضاً من التفسير (النفعي) في ضوء الفلسفة البراجماتية ؛ (فإن اعتبار شروط وجود الدين وأصوله ونشأته لا أهمية لها عند من يسأل عن قيمة الدين ، لأن قيمته فيما ينتجه)^(٢) .

الفرق بين نظرته للدين وعقيدتنا الإسلامية :

ولم يكن (الدين) عند وليم جيمس كموضوع للبحث في ذاته ، ولكن في آثار الانفعال الديني ، وهل هذه الآثار حسنة تحقق الأمل ؟ وهل يمكن الحصول عليها بطريق آخر خلاف الديني ؟

(١) د . فؤاد زكريا : الجوانب الفكرية في مختلف النظم الاجتماعية ص ٦ / ٥٠ ط جامعة عين شمس سنة

١٩٧٢ م .

(٢) اميل بونرو : العلم والدين في الفلسفة المعاصرة ص ٢٤٧ ترجمة د . أحمد فؤاد الأهواني - الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٧٣ م .

أنه يرى أن للدين أثراً أخلاقياً ، كما أنه يتفوق على أى مصدر آخر للحث على النشاط والمشاركة وفعاليته تظهر بإيحائه المؤثر فى الغالب أكثر من الأساليب المادية ، ويضرب على ذلك مثلاً بالطبيب الذى يعترف بأن شفاء المريض لا يتحقق بالعلاج المادى وحده بل بالإيحاء أيضاً، ذلك الإيحاء الناجم عن قوة الإيمان .

إذن الدين نافع فى بعض الأحوال مما لا يمكن استبدال غيره به (فماذا يجب أن نطلب أكثر من ذلك لنقول إنه حق) ؟ (١) .

وهذا رأى - كما يقول (برتراندرسل) - لا يقنع مؤمناً مخلصاً فى إيمانه ، لأن المؤمن لا يطمئن إلا متى استراح إلى موضوع لعبادته وإيمانه ، إن المؤمن لا يقول : إني إذا آمنت بالله سعدت - ولكنه يقول إني أؤمن بالله ومن أجل هذا فأنا سعيد ... إن الاعتقاد بوجود الله - تعالى - فى نظر المؤمن الصادق مستقل عما يحتمل أن يترتب على وجوده من نتائج وآثار (٢) .

النظرة الإسلامية :

أما نحن معشر المسلمين فإننا بحمد الله نمتلك أعظم ثروة للعقيدة والقيم تضمنها كتاب الله عز وجل ونفذها الرسول ﷺ حيث حقق فى عقيدته وسلوكه وأخلاقياته الأسوة الحسنة - وجمع بين (الحق) عقيدة وإيماناً ، و(العمل) أخلاقاً وسلوكاً حدد الأهداف ، ووضع المنهج وأحصى القيم ، مبيناً الطريق الذى يجتازه المسلمون من دنياهم إلى آخرهم ، وقد ألف علماؤنا مجلدات فى هذه الأغراض كلها ولكن يكفيننا أن نسجل بهذه المناسبة بعض التعليقات التى تصلح لعلاج آفات (البراجماتية) ، والتى تبرهن على أن العقل البشرى لا يستطيع

(١) نفسه ص ٢٤٨ .

(٢) نقلاً عن الدكتور توفيق الطويل بكتابه : الفلسفة الخلقية ص ٢٧٩ ، ويُنظر كتاب (تاريخ الفلسفة الغربية - الكتاب الثالث - برتراندرسلي ص ٤٧٥ ، ترجمة د / محمد فتحي الشنطي - ط الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٧٧ م .

الوقوف وحده بغير عون من الوحي :

أولاً :

١ - أن الخير هو الذى يحدد الشرع ويستمد إلزامه منه للتسليم بأن الله تعالى هو العليم الحكيم . قال تعالى : ﴿ كَتَبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (سورة البقرة الآية ٢١٦) .

يفسر ابن كثير هذه الآية ببيان وجوب الجهاد وآثار قتال أعداء الإسلام من النصر والظفر ثم يعضى فى تفسير قوله تعالى ﴿ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ ﴾ فيذكر ابن كثير أن (هذا عام فى الأمور كلها ، قد يحب المرء شيئاً وليس له فيه خيرة ولا مصلحة ، ومن ذلك القعود عن القتال ، قد يعقبه استيلاء العدو على البلاد والحكم) ثم قال تعالى ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ - أى هو أعلم بعواقب الأمور منكم ، وأخبر ما فيه صلاحكم فى دنياكم وأخراكم ، فاستجيبوا له ، وانقادوا لأمره ، لعلكم ترشدون) (١) .

ب - كذلك قد يجهل الإنسان الفروق المرجحة لما يفيد عما يضره ، قال تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَّفْعِهِمَا ﴾ (سورة البقرة الآية ٢١٩) .

أما إثمهما فهو فى الدين ، وأما المنافع فدنيوية ، ولكن هذه المصالح لا توازى المضرة والمفسدة الراجعة لتعلقها بالعقل والدين ، ولهذا كانت هذه الآية عمهدة للتحريم على البتات كما فى سورة المائدة ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رَجَسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾

(١) تفسير ابن كثير ج ٣ ص ٣٦٧ / ٣٦٨ ، طبعة دار الشعب بالقاهرة .

﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ ﴾^(١) (سورة المائدة الآية ٩٠ . ٩١) .

ثانياً :

أن النجاح مطلوب والسعى والتنافس على فعل الخيرات مرغوب فإن المؤمن القوى أحب إلى الله تعالى من المؤمن الضعيف ولكن ينبغي أن يستظل السعى هدفاً وطريقاً بأوامر الشرع والالتزام بأدابه . وسنورد هنا بعض الآيات للاسترشاد:

١ - قد يوسع الله تعالى الرزق للعبد استدراجاً له ، ثم ينزل به عقابه الشديد، قال تعالى : ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّكُمْ تُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لَّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾ (سورة آل عمران الآية رقم ١٧٨) .

وقال عز وجل : ﴿ وَالَّذِينَ كَذَبُوا بآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ﴿ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴾ (سورة الاعراف الآيتين ١٨٢-١٨٣) .
وقال سبحانه : ﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَّالٍ وَبَيْنَ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ سورة المؤمنون الآيتين ٥٥/٥٦ .

٢ - لا يصلح الله حال أمة إلا إذا صلحت ضمائرهما وأعدت نفسها للتقوى، قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ (سورة الرعد الآية ١١) .

٣ - تكثر المصائب عند فساد الأخلاق ، قال تعالى : ﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ

(١) نفسه ص ٣٧٣

مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ ﴿ (سورة الشورى الآية ٣٠) .

٤ - وفيما يتعلق بتقوية الإرادة فهناك آية تبين كيف يربى الله تعالى المسلم على تحمل الشدائد حتى يكون قوى العزيمة معداً لتحمل كل خطر : قال تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسْتَهْمُ الْبَاسَاءِ وَالضَّرَاءِ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ (سورة البقرة الآية ٢١٤) (١) .

ثالثاً : ضرورة أعمال الخير لإقامة المجتمعات الإنسانية :

إن إقامة المجتمع على موازين المكسب والخسارة وحدهما كفيل بهدمه مادامت العلاقات بين أفراده لا تقوم إلا على أساس المصلحة ، والكسب المادى ، فكم من علاقات أخرى تقوم على الإيثار والتضحية وحب الخير لذاته ، وهى التى تكفل تحقيق السعادة للمجتمع لأن التعاطف والتعاون هما الرائدان فى حركة المجتمع الإنسانى وإلا تحول إلى غابة من الغابات التى يأكل فيها القوى الضعيف .

ومن الصعب - بل يتعذر - ولا نقول : يستحيل إقناع النفوس بأعمال الخير ، التى لا تقوم بالمال ، إلا بناءً على عقيدة إيمانية راسخة تحقق أعمالاً خيرة وتسعى لاكتساب فضائل أخلاقية وتنميها ابتغاء مثوبة الله تعالى وجنته .

وكم فى الإسلام من أعمال خيرة يحض عليها ويحث على فعلها أفضل حياة إنسانية ممكنة على ظهر هذه الأرض !!

(١) ينظر (المصحف الميسر) بتفسير الشيخ عبد الجليل عيسى وهو تفسير جليل لجأ فيه عالمنا - رحمه الله تعالى - إلى تفسير الكتاب بعضه ببعض وهو يكاد يكون فريداً فى هذا الباب . فضلاً عن وضعه لفهرس ببعض مبادئ مهمة تعرض لها القرآن . وقد اعتمدنا عليه فى الاستدلال بالآيات أعلاه : البنود رقم ٤٥ و ٥٧ و ٢٢ و ٣٥ بمقدمة التفسير المذكور . ط . دار الشروق سنة ١٣٩١ هـ .

إن الحديث عن هذه الأعمال يحتاج إلى مجلد كامل ، ونكتفى بالإشارة هنا إلى نزر يسير منها ونحيل القارئ إلى المصادر للتوسع في معرفتها وتنفيذها ، لتحقيق لنفسه الطمأنينة النفسية والسعادة المرجوة ، ولمجتمعه المثالية على المستوى الانساني الذي تحقق في عصر الحضارة الإسلامية الزاهرة ، مع العلم بأنه كثيراً ما تشمل هذه الأعمال على الجزئين الدنيوي والأخروي :

عن أبي موسى رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (على كل مسلم صدقة) قال : أرأيت أن لم يجد ؟ قال : يعمل بيديه ، فينفع نفسه ، ويتصدق ، قال : أرأيت إن لم يستطع ؟ قال : يأمر بالمعروف أو الخير ، قال : أرأيت إن لم يفعل ؟ قال : يحبسك عن الشر فإنها صدقة (متفق عليه .

وعن جابر رضي الله عنه أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (ما من مسلم يغرس غرساً إلا كان ما أكل منه له صدقة ، وما سُرق منه له صدقة ، ولا يروؤه أحد إلا كان له صدقة) رواه مسلم .

وفي رواية له (فلا يغرس المسلم غرساً ، فيأكل منه إنسان ولا دابة ولا طير ، وإلا كان له صدقة إلى يوم القيامة) .
وفي حديث (متفق عليه) (اتقوا النار ولو بشق تمرة) .

وعلى قمة العلاقات بين الناس التي تخلو من أية شوائب مادية نفعية نضع الحديث القدسي أمام القارئ ليتدبر نتائج العمل به في البناء الاجتماعي ، ففي حديث أبي هريرة في مسلم (إن الله عز وجل يقول يوم القيامة : أين المتحابون بجلالي أظلمهم في ظلي يوم لا ظل إلا ظلي) .

ويضيق كتابنا عن ضم الأحاديث المشابهة والتي تشكل لو نفذت في مجموعها

أمة كاملة - لا مجتمعاً من المجتمعات فحسب - مترابطة متعاونة ، يتعاون أفرادها ويتبادلون أعمال الخير - وما أكثرها - يبتغون بها رضى الله تعالى والآخرة ، وهى كلها : إما أنها لا تتصل بالنفع المادى بتاتاً أو تختلط مع النفع المعنوى إن صح التعبير كما بينا ^(١) .

(١) ينظر كتاب (رياض الصالحين) باب فى بيان كثرة طرق الخير وله طبعات متعددة ونظراً لأن مؤلفه - الإمام النووى رحمه الله - قد رتب على الأبواب، فأنى أحيل القارئ إلى بعضها: باب المبادرة إلى الخيرات، التعاون على البر والتقوى، تعظيم حرمة المسلمين وبيان حقوقهم وقضاء حوائج المسلمين، الإصلاح بين الناس، بر الوالدين وصلة الأرحام، وتوقير العلماء والكبار وأهل الفضل، زيارة أهل الخير، الكرم والجود والانفاق، الإيثار والمواساة، إكرام الضيف، عيادة المريض وتشجيع الميت، إعانة الرقيق... وغيرها، وغيرها .

وكلها كما يتضح من عناوينها لا تتصل بالكسب المادى والنفع العاجل بأية صلة، ولكنها ضرورية لإقامة مجتمع مترابط يحقق السعادة لأفراده ، كما يكفل له البقاء والاستمرار، وإلا تعرض للانهدام والتفكك، وأصبحت الحياة فيه لوتاً من الشقاء المحقق فى الدنيا قبل الآخرة ، وينظر أيضاً كتاب (مختصر شعب الإيمان) للبيهقى - اختصره القزوينى .

والخاتمة

إن من دواعي الشقة بالنفس أن الفكر الإسلامي أثبت أنه عصي على الاحتياجات وقت سطوة الماركسية ونفوذها، ويقف اليوم أيضاً على أرض صلبة في مواجهة (العولمة) الحديثة التي تريد إخضاع العالم لثقافة واحدة ! وأول خطوات الصمود في المعركة القادمة هي الاستمسك بعقائدنا وتنفيذ شرائع ديننا، مع الامتناع عن التقليد الأعمى (للمأكولات والمشروبات والاستغراق في مشاهدة الأفلام السينمائية والمسلسلات التليفزيونية التي تستهدف اختراق المجتمعات ، مع أن الكاتب الأمريكي ميشيكو كاكوتاني وصفها بأنها « نفايات حضارية »^(١) .

ويرى (لويس فرقان) زعيم جماعة « أمة الإسلام الأمريكية » أن الخلاص في الإسلام كمنقذ وحيد لحضارة العصر من الغرق، موجهاً نداءه للعالم الإسلامي للعودة إلى صراط الله عز وجل لتحقيق الأمان والأمن والثقة بالنفس ، وهذا سيجعل من العالم الإسلامي (**المجداف الخلفي لقارب الحضارة الضالة في محيط الظلام**)^(٢) .

إن أكبر الدروس المستفادة من تجاربنا الفاشلة وهزائنا المتكررة منذ التخلص من الاستعمار العسكري الأوروبي أن الحضارات لا تقوم على التقدم العلمي أو التفوق العسكري أو الازدهار الاقتصادي وحده، أي ما لم يصحب ذلك كله عقائد متميزة وقيم إنسانية راقية ومبادئ أخلاقية ثابتة، وهي بحمد الله

١ - من مقال (الأستاذ جميل مطر ، بعنوان : أمريكا تقحم الدين في السياسة لإضعاف الكنائس الشرقية جريدة (الحياة) في ١٩٩٧ / ١٠ / ١٧ م ص ١٧ .

٢ - مقال (لويس فرقان يتحدث) بقلم محمد جمال عرفة جريدة (الشعب) القاهرة ٢٣ شعبان ١٤١٨ هـ ٢٣ ديسمبر ١٩٩٧ م .

وفضله متوفرة في شريعتنا . يقول الأستاذ / شريف الشوباشي (فإذا كان الغرب يفوقنا سياسياً واقتصادياً وعلمياً ، فإن للعالم العربي والإسلامي تراثاً ثقافياً مضيئاً يتيح له أن يكون نداءً للغرب ، إن لم يكن متفوقاً في هذا المجال^(١) .

ولكن ، كيف نستفيد من تراثنا الثقافي المضيء في معركة الصراع الفكري الحالي وهي معركة حقيقية تُدار من وراء الستار ولا تتوقف أبداً ، فإن (قادة الصراع الفكري ومراصدهم موزعة في العالم وهي دائمة المتابعة والمراقبة)^(٢)؟ .. نوجز الإجابة فيما يلي :

أولاً : الثقة بالنفس :

وإننا لنستخلص أيضاً من دراستنا المختصرة بهذا الكتاب، أننا على أعتاب فترة يظهر فيها الإسلام ظهور الحجة والسلطان العقلي العلمي - وإن بدا الضعف في أمته - والامارات على الطريق كثيرة، منها الصحوة الإسلامية^(٣) المعاصرة، فهي لم تظهر في بلد دون آخر، ولكنها أصبحت ظاهرة عامة في بلاد المسلمين شرقاً وغرباً، وهي سبب انزعاج الغرب لأنه لم يكن يتوقع قط - بعد كل أعمال التغريب والتنصير والاستعمار الثقافي وفرض التبعية سياسياً واقتصادياً على العالم الإسلامي المغلوب على أمره بالاستعمار العسكري ، ولم يتوقع أن تستيقظ أمة الإسلام وتبدأ في العمل على استرداد ما اغتصبه منها من ثروات منهوبة - وقبلها استرداد الهوية والكرامة الإنسانية - بل

١ - هل فرنسا عنصرية ؟ ، شريف الشوباش ص ١٢ مطابع الأهرام بالقاهرة ١٩٩٢ م .

٢ - مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي ، مالك بن نبي ترجمة محمد عبدالعظيم ص ١٩٢ مكتبة عمار بالقاهرة ١٣٩١ هـ - ١٩٧١ م .

كذلك يرى أن الاستعمار مسئول عن النصيب الأكبر من الفوضى التي تسود العالم الإسلامي اليوم ص ٩٧ .

٣ - يُنظر كتابنا (الصحوة الإسلامية عودة إلى الذات) ط دار الدعوة الإسكندرية .

أصبحت ظاهرة اعتناق الإسلام بداخل بلاده والعالم تقلقه، إذ تبين (أن معدل اعتناق الإسلام هو أعلى معدل في العالم)^(١) .

ثانياً : تصحيح المفاهيم وزيادة الوعي :

وفي ضوء ما تقدم لا ينبغي إذن أن نخدعنا الألفاظ المنمقة عن التنوير والتجديد والتطور والعصرية ، بينما غرض أصحابها حثنا على السير على نفس قضبان القاطرة التي يقودها السائق المتفرنج لكي نصل إلى المحطة النهائية ونكتشف أننا كنا نسير وراء السراب ! . . بل إن هذا ما حدث بالفعل عندما جرّبت الأمة تطبيق الأنظمة والأيدولوجيات الغربية ، فماذا حدث لها؟ . .

إن الإجابة على السؤال واضحة في تجربة تركيا الكمالية (وكان أتاتورك من يهود الدونمة) وهي الآن ملفوظة من أوروبا لأن الأتراك هم أحفاد العثمانيين الذين فتحوا القسطنطينية وظلوا سادة العالم لعدة قرون عندما رفعوا راية الإسلام .

لقد تقدمت بعض الدول الإسلامية بخطوات ناجحة نحو هذا الهدف ، فهناك تجربة النور الآسيوية وفي مقدمتها اندونيسيا و ماليزيا حيث ارتبط المنهج العلمي للحاق بالعصر مع المحافظة على الشخصية و الثبات على الهوية الإسلامية كما صرّح بذلك الدكتور/ محمد ماجد رئيس الوزراء الأندونيسي . وقد تأسس هناك (المنتدى الإسلامي العالمى للعلوم والتقنية و تنمية الموارد البشرية) و مقره جاكرتا .

١ - هذا ما أكدته شبكة سي . إن . إن الإخبارية الأمريكية (مجلة المختار الإسلامي - ١٥ شعبان ١٤١٨هـ - ١٥ ديسمبر ١٩٩٧م) .

ثالثاً : أصبح تحصيل العلوم الشرعية فرض عين على كل مسلم و مسلمة :
ولا حجة للمسلمين كأفراد أيضاً في الجرى وراء مبادئ العصر و نفاية
الثقافات ، لأن بين أيديهم الوحي المعصوم بالكتاب و السنة ، وسيرة الرسول
ﷺ تجمع مالا نستطيع حصره في هذا الحيز و لكن يكفي بعض الإشارات
المضيئة على الطريق :

ولابد أولاً من التأكيد على المسؤولية الشخصية لكل مسلم و مسلمة : قال
رسول الله ﷺ { كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته الإمام راع ومسئول عن
رعيته ، والرجل راع في أهله وهو مسئول عن رعيته ، والمرأة راعية في بيت
زوجها ومسئولة عن رعيتهما والخادم راع في مال سيده ومسئول عن رعيته ،
فكلكم راع ومسئول عن رعيته } متفق عليه .
وقال ﷺ : { لا تزول قدما عبد حتى يُسأل عن عمره فيما أفناه ، وعن
علمه فيما فعل فيه ، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه ، وعن جسمه فيما
أبلاه } .

(رواه الترمذي وقال : حديث حسن صحيح) :-

والمسلم المعاصر لا يختلف - شأنه في ذلك شأن كل مسلم منذ عصر النبي
ﷺ حتى قيام الساعة - من حيث عقائده وأعماله وأهدافه وخلقه وهي من
الثوابت التي لا تتغير بتغير العصور : ففي وصفه قال النبي ﷺ : { المسلم
من سلم المسلمون من لسانه ويده ، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه } رواه
البخاري .

وعن صلة الإيمان بالأعمال ، نأتي بالحديث الذي رواه أبو ذر الغفاري إذ
سأل النبي ﷺ عن الإيمان فقال عليه الصلاة والسلام : قال الله عز وجل

﴿لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا وُجُوهَكُمْ قَبْلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ
الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى
وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ
بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ
صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ سورة البقرة ١٧٧^(١) .

أما الطارئ في عصرنا الحاضر فهو من قبيل المتغيرات في كل عصر من
العصور بلا استثناء وهي سنة من سنن الحياة التي لا تتوقف .

فعن الزبير بن عدي، قال: اتينا انس بن مالك رضي الله عنه، فشكونا إليه ما نلقى
من الحجاج، فقال: اصبروا!! فإنه لا يأتي زمان إلا والذي بعده شر منه
حتى تلقوا ربكم، سمعته من نبيكم عليه السلام (رواه البخاري)

ومن جوا مع الكلم للرسول عليه السلام في ارشاد المسلمين هو امره بالاستقامة،
ومعناها لزوم طاعة الله تعالى، وهي نظام الأمور كلها. فعن ابي عمرو -
وقيل أبي عمره - سفيان بن عبدالله رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله، قل لي
في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً غيرك، قال: قل: آمنت بالله ثم استقم
(رواه مسلم)^(٢) .

وتقتضي الاستقامة تنفيذ أوامر الله عز وجل وأوامر رسول الله عليه السلام ومنها
الكف عن التقليد أو التشبه بالأمم الأخرى: قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا
تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾ المائدة ٥١

١ - الشريعة، للإمام ابن بكر الاجري ص ١٢١ تحقيق محمد حامد الفقي دار الكتب العلمية - بيروت
١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م .

وقال الاجري في تعليقه على هذا الحديث: وبهذا الحديث وغيره احتج أحمد بن حنبل في كتاب الإيمان:
أنه قول وعمل، وجاء به من طرق .

٢ - رياض الصالحين للإمام النووي - باب في الاستقامة .

وفي حديث أبي سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ أنه قال : { لتسبعن سنن من قبلكم شبراً بشبر، وذراعاً بذراع حتى ولو دخلوا جحر صُبْ خرب لتبعتموهم، قلنا يا رسول الله: اليهود والنصارى؟ قال: فمن غيرهم؟ (متفق عليه) .

ونقول: إن مشاغل المسلم المعاصر على كثرتها فإنها (تدور كلها حول كيفية الحفاظ على دينه ودنياه في نفس الوقت ، على نحو يجعل كلا منهما سنداً للآخر ودعمه له)^(١) أى يلتزم بأوامر الشرع ونواهيه - كما تقدم - متيقظاً لما يدور حوله، عارفاً بمذاهب العصر بإيجابياتها وسلبياتها، وقادراً على فرز الصحيح من الفاسد فيما يسمع ويرى ويقرأ، بعلم وبصيرة .

وما لم ييذل كل واحد منا جهده ما استطاع لداء الفتن المتزايدة فسنقبل -كما يقول أحد الكتاب اللبنانيين- على (مرحلة دجاجة في ثقافتنا وفي حياتنا، حيث يصبح الجميع بلون واحد في قفص واحد ، يطلقون تلك النظرة الفارغة البلهاء عبر زجاج المقاهي . إنها مرحلة توحيد العلف الثقافي والفكري والسياسي . . في مزارع النظام العالمي الجديد)^(٢) .

تم الكتاب بحمد الله تعالى

-
- ١ - من مقدمة كتاب (فكر المسلم المعاصر ، ما الذي يشغله) ؟ مركز الاهرام بالقاهرة - الكتاب الثاني سنة ١٩٩٤ م .
 - ٢ - من مقال عن كتاب (الثقافة ووسائل نشرها في الوطن العربي) أصدرته المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم للباحث الإعلامي نبيل الدجاني - جريدة الشرق الأوسط ١٩ شعبان سنة ١٤١٨ هـ - ١٩ ديسمبر ١٩٩٧ م .

المراجع

=====

حرف (أ)

- ١ - الوحي المحمدي - محمد رشيد رضا المطبعة السلفية بالقاهرة .
- ٢ - الأركان الأربعة أبو الحسن الندوي دار القلم الكويت
- ٣ - الإسلام في الغرب - جان بول رو ص ٥٦ ، ٧٠ تعريب نجدة هاجر وسعيد الغز ، المكتب التجاري - بيروت نوفمبر ١٩٦٠م
- ٤ - العالم الإسلامي د/ جمال حمدان ص ١٣٢ عالم الكتب - القاهرة ١٩٧١م .
- ٥ - الإسلام في عالم متغير ص ٧١ ، د/ مصطفى الفقي ص ٩٧ .
- ٦ - الإنسان القرآني ، سمير عبد الحميد إبراهيم .
- ٧ - الإسلام كبديل ، هوفمان ترجمة د/ غريب محمد غريب ص ١٨ ، ٢٠ ، ١٩٩٣م .
- ٨ - الحوار الإسلامي العلماني أ/ طارق البشري ص (١٨٢ ، ١٨٣) .
- ٩ - الذين يلحدون في أسمائه ، دار المعارف القاهرة ١٩٨٣م . د/ كامل سغفان ص ٩ .
- ١٠ - الصراع الكبير بين الشرق والغرب ط الأهرام ١٤١٣هـ ، ١٩٩٢م . اللواتي غيرهم
- ١١ - الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي ، دار الفكر بيروت د/ محمد البهي ١٩٦٨م .
- ١٢ - الله أو الدمار أ/ سعد جمعة ص ٧٥ المختار الإسلامي ١٩٧٦م .
- ١٣ - الإسلام والمسلمون ، فتحي رضوان ص ٤٩٥ ، ٥٠٦ دار الشروق ١٩٨٢م ص ٥٠١

- ١٤ - التطور والإنسان ، حسن زينو ص ١٤٩ بيروت سنة ١٩٧١ م ص ١٥٠ .
- ١٥ - أربع وخمسون وظيفة يجب على المؤمنين. في كل اليوم ، للحسن البصري التحقيق دار التراث بطنطا ١٩٩٢ م .
- ١٦ - « الحملة الأمريكية - متعبون وسفراء ورخالة » ترجمة محمد الخولي .
- ١٧ - القول الفصل بين الذين يؤمنون بالغيب والذين لا يؤمنون ص ٨٨ دار الإسلام .
- ١٨ - الغرب والشرق الأوسط ص ٥٦، ٥٧ تعريب د / نبيل صبحي .
- ١٩ - الإسلام دين المستقبل ، جارودي ترجمة عبدالمجيد بارودي ص ١٨٣، ١٨٩ دار الإيمان بيروت سنة ١٩٨٣ م .
- ٢٠ - الشرق الأوسط في العصر الحديث د/ حسين مؤنس مكتبة التجارين مصر سنة ١٩٣٨ م .
- ٢١ - الإسلام بين الشرق والغرب علي بيغوفيتش ص ٣٤، ٧١، ٩٣، ٩٤، ٣٥٦، ٣٧٣ .
- ٢٢ - الإسلام حضارة ص ١١١ الدار السعودية - جدة سنة ١٩٨٧ م .
- ٢٣ - الإسلام ومشكلات العصر ص ٩ د/ مصطفى الرافي دار الكتاب اللبناني - بيروت سنة ١٩٨١ م .
- ٢٤ - الإسلام في مواجهة العصر وتحدياته ص ٢٣٢، ٢٣٣ عبدالكريم الخطيب الغد العربي .
- ٢٥ - الإسلام والمذاهب الفلسفية د/ مصطفى حلمي دار الدعوة - الإسكندرية سنة ١٩٨٥ م .
- ٢٦ - الإسلام منهج حياة ص ١٧٢/ ٩ د / عمر فروخ دار العلم سنة ١٨٣ م .
- ٢٧ - الإسلام في القرن العشرين ، حاضره ومستقبله ص ٣٢ عباس العقاد .

- ٢٨ - الذريعة إلى مكارم الشريعة الراغب الاصفهاني .
- ٢٩ - الشفا بتعريف حقوق المصطفى (ﷺ) المجلد ص ٩٧ / ٢٩٦١ مكتبة دار التراث القاهرة سنة ١٣١٢ هـ .
- ٣٠ - الإسلام على مفترق الطرق ص ١١ محمد أسد دار العلم بيروت - الإنسان ذلك المجهول ص ٣٣، ٣٢٤، ٣٣١ ألكس كاريل ، ترجمة شفيق أسعد فريد، مؤسسة المعارف - بيروت .
- ٣١ - البوسنة والهرسك ص ٧٢ قصة شعب يواجه العدوان ، دا رالاعتصام، بقلم كاريتش سنة ١٩٩٤ م .
- ٣٢ - البوسنة والهرسك من الفتح إلى الكارثة .
- ٣٣ - آراء في أزمة العصر - أدريين كوخ .
- ٣٤ - الإسلام قوة الغد العالمية ص ٢٢٣ د/ محمد شامة مجلة الأزهر سنة ١٩٧٩ م .
- ٣٥ - المسلمون في آسيا الوسطى والبلقان د/ محمد حرب .
- ٣٦ - الوعي التاريخي والثورة الكونية ص ٢٣٧ السيد يس مركز الدراسات سنة ١٩٩٥ م .
- ٣٧ - اليابان لم تقل لا - صراع المستقبل بين الكبار ، ترجمة هالة العوري - القاهرة سنة ١٩٩١ م .
- ٣٨ - أرنولد توينبي ص ٩٧، ٩٨ لمعي المطبعي دار الكتاب العربي - القاهرة سنة ١٩٧٢ م .
- ٣٩ - مجلة العالم الإسلامي .
- ٤٠ - مجلة المختار الإسلامي .
- ٤١ - التاريخ وكيف يفسرونه من الكنفوشيوسية إلى توينبي - الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٧٢ م .

- ٤٢ - { الإسلام والغرب - آفاق الصدام } صموئيل بي هاتينجتون .
- ٤٣ - الغرب والإسلام - رجب البنا ص ٢١٢، ٢١٣ - دار المعارف - مصر سنة ١٩٩٧ م .
- ٤٤ - الإسلام و صراع الحضارات .
- ٤٥ - العواصم والقوائم في الذب عن سنة أبي القاسم للإمام / محمد بن ابراهيم .
- ٤٦ - البيروستروكا - ميخائيل جورباتشوف مؤسسة الرسالة- بيروت سنة ١٩٩٢ م .
- ٤٧ - المدينة الفاضلة عبر التاريخ ص ٤٤٣ ماريا لويزا .
- ٤٨ - أزمة العالم المعاصر مارينيه جينو ص ٦٧، ٥٩، ٢٠ دار النهار القاهرة سنة ١٩٩٦ م ، سامي محمد عبدالمجيد .
- ٤٩ - الإسلام كبديل د. هوفمان
- ٥٠ - الإسلام سنة د/ هوفمان .
- ٥١ - الله ليس كذلك د/ غريب محمد غريب ص ١٢، ٥٢ دار الشروق سنة ١٩٩٥ م .
- ٥٢ - الثقافة الإسلامية والواقع المعاصر ، محمد الرابع الندوي ص ٥٨ دار الصحوة - القاهرة ، سنة ١٩٩٠ م .
- ٥٣ - السلفية بين العقيدة الإسلامية والفلسفة الغربية د/ مصطفى حلمي ، دار الدعوة - الإسكندرية . الإسلام والأديان .
- ٥٤ - الإسلام في الفكر الغربي للواء / أحمد عبد الوهاب ، مكتبة التراث سنة ١٩٣٣ م .
- ٥٥ - الترغيب والترهيب للمنزري ص ١٢٥، ١٢٦ الحلبي - مصر ١٩٦٨ م .
- ٥٦ - إظهار الإسلام .

- ٥٧ - الفلسفة الخلقية دار النهضة / توفيق الطويل ص ٢٧١ القاهرة سنة ١٩٦٧ م .
- ٥٨ - المفكرون من سقراط إلى سارتر / هنري توماس ودانالي توماس ص ٤٣٩ .
- ٥٩ - المجمل في تاريخ علم الأخلاق د/ سرجويك .
- ٦٠ - الجوانب الفكرية في مختلف النظم الاجتماعية د / فؤاد زكريا .
- ٦١ - العلم والدين في الفلسفة المعاصرة - إميل بوترو ص ٢٤٧ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٧٣ م .
- ٦٢ - المصحف الميسر / الشيخ / عبدالجليل عيسى .
- الحضارة د/ حسين مؤنس ص ٣١٢ عالم المعرفة بالكويت سنة ١٩٧٨ م .

حرف (ت)

- ٦٣ - تجديد في المسلمين - لا في الإسلام د/ عمر فروخ ص ١١، ١٢، ٢٠٦ .
- دار الكتاب العربي - بيروت ١٤٠١ هـ ١٩٨١ م .
- ٦٤ - تاريخ العرب والإسلام أنور الرفاعي دار الفكر ص ٤٧٠ .
- ٦٥ - تغريب العالم دار العالم القاهرة سيرج لا توش سنة ١٩٩٢ م .
- ٦٦ - تفسير التاريخ ص ٢٩ دار القلم - الكويت عبد الحميد صديق ترجمة د/ كاظم الجوادي .
- ٦٧ - تهافت العلمانية ص ١٦٧ عماد الدين خليل الرسالة، القاهرة سنة ١٩٧٥ م .
- ٦٨ - تاريخ الفلسفة الحديثة / يوسف كرم .
- ٦٩ - تفسير ابن كثير .
- ترجمه إلى العربية د/ حسين أحمد حسيني - مركز الأهرام سنة ١٩٨٣ م .
- ٧٠ - أدب الاختلاف في الإسلام ص ١٦٠ قطر . جمادي الأولى سنة ١٤٠٥ هـ .
- ٧١ - الحملة الأمريكية ترجمة محمد الخولي سنة ١٩٩١ م ص ٨٧، ٨٢، ٧٠ .

- ٧٢ - الفكر الإسلامي د/ إبراهيم مذكور سيدكو للطباعة القاهرة ص ١٦١ .
- ٧٣ - المفردات في غريب القرآن ص ٥١٩ محمد سعيد كيلاني ص ١٩٦١ م .
- ٧٤ - الإسلام والغرب والمستقبل ص ٦٢ د/ نبيل صبحي الدار العربية بيروت سنة ١٩٦٩ م .
- ٧٥ - الاستقطاب الفكري، مجلة منار الإسلام قطر سنة ١٩٨ م ص ٩٥ إلى ١٠٠ .
- ٧٦ - الحياة الاجتماعية كما صورها بعض المستشرقين ص ١٥٥ د/ عبدالوهاب مكتب التربية العربي سنة ١٩٨٥ م .
- ٧٧ - الإنسان القرآني ص ٣٧، ٣٨، ٧٥ د/ سمير عبدالمجيد دار الصحوة مصر سنة ١٩٨٥ م .
- ٧٨ - الموافقات في أمور الشريعة لأبي إسحق الشافعي المجلد ٢ ص ٧٩٠ دار المعرفة بيروت .
- ٧٩ - آراء في أزمة العصر ص ٩٠، ٩١ مكتبة الأنجلو المصرية سنة ١٩٦٣ م .
- ٨٠ - المسلمون في آسيا الوسطى والبلقان ص ٢١٨، ٢٢٠ د/ محمد حرب ، المركز المصري للدراسات مدينة نصر - القاهرة سنة ١٩٩٣ م ، ص ٢٢، ٣٠، ١١٢، ١٣٥، ١٧٤ .
- ٨١ - الصراع بين الحضارات ص ٥٨، ٩٧ إبريل سنة ١٩٩٦ م .
- ٨٢ - إظهار الإسلام ص ٧ ، مكتبة الشروق - القاهرة سنة ١٩٩٤ م .
- ٨٣ - الإسلام عام ٢٠٠٠ ص ٧، ١٢ .

حرف (ح)

- ٨٤ - حصوننا مهددة من داخلها محمد حسين المكتب الإسلامي بيروت ص ٣٠٩، ٣١٣ سنة ١٩٧٧ م .

- ٨٥ - حضارة الإسلام في دراسة توينبي ص ٩١ ، فؤاد محمد شبل ، دار الكتاب العربي - القاهرة سنة ١٩٦٨ م .
- ٨٦ - حوار متواصل حول مشاكل العصر - رشدي فكار .

حرف (د)

- ٨٧ - رسالة في الطريق إلى ثقافتنا، كتاب الهلال العدد ٤٨٩ - سبتمبر ١٩٩١ م.
- ٨٨ - رياض الصالحين الإمام / النووي رحمه الله .

حرف (س)

- ٨٩ - سلوك المالك في تدبير الممالك ص ١١٣ د/ حامد ربيع مطبعة الشعب القاهرة .

حرف (ص)

- ٩٠ - صليبية إلى الأبد ص ٤١٠ عبدالفتاح عبدالمقصود الدار القومية القاهرة.
- ٩١ - صفحات من أوراقه الخاصة د/ جمال حمدان تقديم / عبدالرحمن حمدان دار الغد العربي - القاهرة سنة ١٩٩٦ م .
- ٩٢ - صوت أسيا ص ٨٤، ١٧٤، ١٧٥ تأليف محاضير بالاشتراك مع شينتاراوايتهاار مجلة منار الإسلام - الإمارات سنة ١٩٩٧ م .
- ٩٣ - صيحة مسلم قادم من الغرب (إسلام محمد أسد) د/ مصطفى حلمي .

حرف (ع)

- ٩٤ - علم التقى والأخلاق ص ١١٥، ١١٦ - هافليد - ترجمة / عبدالحميد أبو العز مكتبة مصر سنة ١٩٥٣ م .
- ٩٥ - علماء الغرب يدخلون الإسلام - محمد حلمي .

حرف (ف)

- ٩٦ - في الفكر الإسلامي د / ابراهيم مذكور .

حرف (ق)

- ٩٧ - قصة الفلسفة ص ٧٣ ديل ديورانت ، ترجمة أحمد الشيبان ، منشورات المكتبة الأهلية - بيروت سنة ١٩٦٥ م .
- ٩٨ - قراءة في كتاب الإسلام بين الشرق والغرب ، علي عزت بيغوفيتش - كلية دار العلوم سنة ١٩٩٥ م .

حرف (ك)

- ٩٩ - كلمة الحق ، دار الكتب السلفية - القاهرة ص ٥ سنة ١٤٠٧ هـ .

حرف (ل)

- ١٠٠ - لماذا أسلموا ص ٢٠٥ إلى ٢٠٨ عيسى عبده وأحمد إسماعيل يحيى دار المعارف مصر سنة ١٩٩٢ م .

حرف (م)

- ١٠١ - مخططات استعمار العالم الإسلامي ، دار الثقافة ، مكة المكرمة سنة ١٩٦٥ م .
- ١٠٢ - مجتمعنا المعاصر والطريق إلى الإسلام ص ١٠٣ نور عالم خليل الأميني دار الصحوة مصر سنة ١٩٨٨ م .
- ١٠٣ - مع الفيلسوف ص ٤٥، ٤٦، ٢٥٩، ٢٧٢ د / محمد ثابت الفندي ، دار النهضة العربية سنة ١٩٨٠ م .

(٢) مناهج المستشرقين في الدراسات العربية الإسلامية .

الجزء الثاني

١٠٤ - مجموعة رسائل الإمام الشهيد حسن البنا ص ١١٠، ١١١ بيروت

حرف (ن)

- ١٠٥ - نظرات إسلامية للإنسان والمجتمع من خلال القرن الرابع عشر الهجري ص ٧٤ د/ رشدي فكار، مكتبة وهبة - القاهرة سنة ١٩٨٠ م.
- ١٠٦ - نظرية المصلحة في الفقه الإسلامي ص ٣١٢ د/ حسين حامد حسان مكتبة المنبي - القاهرة سنة ١٩٨١ م .
- ١٠٧ - نهاية التاريخ وختام البشر - فرانبي فوكوياما ص ٥٦ ترجمة حسين أحمد أمين مكتبة الأهرام سنة ١٩٩٣ م .
- ١٠٨ - نصر بلا حرب ص ٢٣٨ ريتشارد نيكسون، تقديم المشير / محمد عبدالحليم أبو غزالة مركز الأهرام سنة ١٩٨٨ م .
- ١٠٩ - نهاية عمالقة في حضارة الغرب ص ١٣٨، ١٣٩ د/ رشدي فكار، مكتبة وهبة القاهرة سنة ١٩٨٩ م .
- ١١٠ - نظرات حول الإنسان ص ٢٧١ سنة ١٤٠٣ هـ د/ روجيه جارودي ، القاهرة سنة ١٩٨٣ م .
- ١١١ - نبوة أشعيا - تفسير سفر أشعيا .
- ١١٢ - نهاية الديمقراطية ص ٨٦ جان - ماري جيهنيو مكتبة الشروق سنة ١٩٩٥ م.
- ١١٣ - ندوة اتجاهات الفكر الإسلامي المعاصر ، قلم د. محمد الأحمر الرشيد ص ٩، ١٠ مكتبة التربية .

حرف (ي)

١١٤ - يوميات ألماني مسلم ص ٨٠ د / مراد هوفمان .

١١٥ - يوم الإسلام ، أحمد أمين .

الفهرس

الموضوع	الصفحة
مقدمة	١١

الباب الأول

- أحوال العالم الإسلامي في العصر الحديث ١٥
- الفصل الأول : تصحيح المصطلحات والمفاهيم ٢٩
- الفصل الثاني : الغزو الثقافي وخططه ٤٩
- الفصل الثالث : مواجهة الفكر الإسلامي للغزو الثقافي ٧٩
- الفصل الرابع : طرح البدائل (علي عزت بيجوفيتش) الإسلام بين الشرق والغرب ١١١

الباب الثاني

- ما بعد انهيار الاتحاد السوفيتي وتهافت الماركسية، أثر الواقعة على ثقافة العصر ١٣٣
- أضواء على الفكر الإسلامي الغربي في العصر الحديث ١٥٥
- ظاهرة إسلام الصفوة والإفادة منها ١٥٩
- - أزمت العصر الحديث في الدين والعلم والفلسفة ١٦٢
- رأي رينيه جينو (المعروف بالشيخ عبدالواحد يحيى) في أزمة العالم المعاصر ١٦٧
- آراء هوفمان بكتابه الإسلام كبديل ١٧٣
- روجيه دوباسكويه « إظهار الإسلام » ١٩٤
- - الفكر الإسلامي في مواجهة الفلسفة البرجماتية « العملية » ٢٠٣

٢٠٦	- نقد البرجماتية من وجهة النظر الفلسفية
٢١٠	- الفرق بين نظرتي للدين وعقيدتنا الإسلامية
٢١٧	• الخاتمة
٢٢٣	• المراجع
٢٣٣	• الفهرس





دار الأمان للطباعة

٨ ش أبرم الختالي (الصحيفة) الجمهورية - ت/لأقصى ٢٤٧٣١٩١
١ ش مسوفاج من ش الزقازقي - القوم - ت/لأقصى ٥١٢٤١٩٩

